عباس منصور




تخليص المعتربين من عقائد الصحراء



# نهج البداوة




- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة، تستهدف المشاركة فى استنهاض وتأكيد الانتماء والوعى القومى العربى، فى إطار المشروع الحضارى العربى المستقل.
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافى والعلمى مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة.
- يسعى المركز إلى تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب، ونشره وتوزيعه.
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه.
- الآراء الواردة فى ما يصدر عن المركز تعبر عن آراء كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية.

◆◆◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

◆◆◆

**مركز الحضارة العربية**

4 ش العلمين – عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات – القاهرة

تليفاكس: 33448368 (00202)

www.alhdara-alarabia.com

E.mail: alhdara_alarabia@yahoo.com

alhdara_alarabia@hotmail.com

**عباس منصور**

# نهج البداوة

## تخليص المعتربين من عقائد الصحراء



الكتاب: نهج البداوة

الكاتب: عباس منصور

الناشر: مركز الحضارة العربية

الطبعة العربية الأولى: القاهرة ٢٠١٢

الغلاف

تصميم وجرافيك: محمد النوبي

الجمع والصف الإلكتروني:
وحدة الحاسوب بالمركز

تنفيذ: محمود عبد الفتاح

رقم الإيداع 2011/16941

الترقيم الدولي 978-977-496-093-2

منصور، عباس
نهج البداوة وتخليص المعتربين من عقائد الصحراء / عباس منصور.
- ط١. - الجيزة: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر والدراسات، ٢٠١١.
٢٣٢ص؛ ٢٠سم
تدمك: ٩٧٨-٩٧٧-٤٩٦-٠٩٣-٢
١- المجتمعات البداوية.
أ- العنوان. ٣٠١,٣٥٣

# إهداء

إلى شعب مصر، الذي ما غاب يومًا عن الوجود على الرغم من مؤامرات البدو وأطماع الغزاة والمستعمرين.

عباس منصور



# المقدمة

## أعراف البادية

جاء في القرآن ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ﴾ ٤ سورة الطلاق.

جاء ذلك في القرآن ولم يقل لي أحد من أساتذتي حتى في كلية دار العلوم أن مضمون تلك الآية يبيح نكاح الأطفال ويعطي شرعية للرجل الشاب أو العجوز أن ينكح طفلة لم تبلغ سن الحيض، ويجوز له أن يطلقها، وإن شك في بلوغها سن الحيض عند الطلاق فله أن يحبسها عن نكاح غيره مدة ثلاثة أشهر، ولم يقل لي أحد من مشايخي الذين حفيت أقدامي وانفعالاتي وقلبي في إثرهم من صلاة إلى أخرى ومن مسجد إلى آخر طوال ثلاثين عاما، لم يقل لي أحد منهم أن الإسلام يبيح ذلك.

والسبب أنني كنت أعيش في مصر، وولدت في مصر، وتربيت في مصر ـ طبعا اكتشفت كل ذلك متأخرًا ـ وأن الناس في مصر على دين حقيقي لا يحبون الخوض في أعراض الناس وحُرماتهم أو النيل منهم وتجريسهم ولا يحبون اتباع العورات والفتن والاختلاف وهذا دينهم الأصلي في السر والعلن منذ الآف السنين، وعلى هذا يسير معلموهم في الأزهر والجامعات والمدارس والمساجد حتى الآن، كنت أعيش في مصر وتلقيت دين شعبها على نص عربي في المدارس والجامعة، وكنت أحسب

أن العرب كالمصريين، والمصريين كالعرب لا فرق بينهم في مباشرة أمور الحياة والنظر إلى الوجود ومسائل الزواج والطلاق والغنى والفقر وتكوين الأسرة وتربية الأولاد ومعاملة الضعفاء والمساكين وممارسة الحرف والمهن والصنائع، كنت أحسب مصر كالعرب، ولم يقل لي أحد من أساتذتي أو مشايخي غير ذلك إلى أن انتقلت إلى بلادهم وأقمت بينهم في الرابعة والثلاثين من عمري وكانت الصدمة التي أربكتني لأكثر من خمس سنوات إلى أن عرفت الحقيقة بعد معاناة وطول اصطبار على متابعة الحياة من حولي في بلادهم وفي متون الكتب التي أسلمتني إلى المشي في العهدين القديم والجديد والفقه الإسلامي والسير والتفاسير وكتابات قدماء المصريين وآدابهم عبر ثلاثين قرنا سبقت مجيء الإسكندر الأكبر في القرن الرابع قبل الميلاد.

لم يقل لي أحد أن معظم ما يقال عن كرم العرب هو من قبيل الرياء والسمعة والبحث عن الرياسة، وأن الشجاعة لديهم هي استئساد على الضعفاء والمنكوبين وخصوصا إذا أمنوا العواقب؛ لم يقل أحد لي أن معاجم العربية لا تشتمل على كلمة الضمير إلا دلالة على كل مستور وسري وليست لها أي دلالة على قيمة أخلاقية تتحكم في السلوك، فالضمير عندهم هو كل مضمر ومختبئ ولا علاقة له بالاخلاق والسلوك.

عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري مكثت في العراق تسعة أشهر ما بين بغداد والفلوجة مدرسا على شاطئ الفرات ولم أجد كبير فرق بين المصريين والعراقيين، وظننت أنهم عرب وأن العرب كلهم هكذا، لم أكن أعلم أن القسم الأكبر من العراقيين ليسوا عربًا وأن العراق نفسها لم يكن اسمها كذلك إلا في وقت متأخر من تاريخ الإقليم، وقرأت النص

القرآني معاودةً ثلاث مرات ولم تستوقفني حينها إلا مسألة " إسرائيل " هذا الرجل الذي صار قبيلة ثم شعبًا على مدى خمسة قرون قضى أربعة ونصفًا منها بين المصريين في أرض مصر، هذا الرجل النبى القبيلة الشعب أزعجنى النص القرآنى فى تناول سيرته، فهو قد اصطفاه الله واختاره هو ونسله وميّزه على العالمين وكتب له أرضا بشعبها، إسرائيل هو نفسه الشعب والقبيلة التى واصلت معصية الله ومخالفته ولم يطق الرب إبادتها على الرغم من تتابع الهلاك والإبادة على صفحات القرآن لكل الأمم التى عصت رسلها ابتداء من نوح وثمود وهود ولوط وشعيب وغيرهم إلى شعب إسرائيل الذي لم يفعل الرب معهم سنته في العصاة، وهذا كله في القرآن مما أربكني وأزعجني كثيرًا وسلب السكينة والطمأنينة من حياتي ولم تعد الصلوات وارتياد المساجد قادرة على إعادتها.

في بلاد العرب وأثناء إقامتي بينهم انفتح التاريخ القديم والوسيط على الواقع وأصبح كله أمامى سيرة واحدة واضحة؛ حلقات تسلم إحداها إلى الأخرى، فالأديان منها جذر سماوى قادم من خارج التاريخ ومنها جذر أرضى اهتدى إليه البشر خلال حياتهم فى كل أصقاع المعمورة عبر التاريخ، والجذر السماوى تمت حلقاته كلها في منطقة صغيرة من العالم في ما بين الموصل على الفرات وحتى طيبة على شاطئ النيل في جنوب مصر وأن أهم حلقاته ظلت متداولة شفاهة إلى أن تم تدوينها في سراديب بابل أيام الغزو الآشوري لأرض إسرائيل المكتوبة في اللوح المحفوظ.

وعرفت أن الدعاة الأنبياء كلهم من نسل واحد تكرس تماما ابتداء بأبراهيم وحتى محمد في المدة ما بين القرن الثامن عشر قبل الميلاد وحتى السادس الميلادي على مدار ثلاثة وعشرين قرنا تقريبا وأن البشرية منذ ذلك التاريخ بلا أنبياء مكرسين من قبل السماء على الرغم من أن الحياة تتوالد والآثام والشرور والمعاصي تتوالى وبنو البشر يعيشون في

ضنك ومازالت الأيام تدفع بالجبابرة والعصاة والضالين حسب المفهوم الديني في الجذر السماوي.

في بلاد العرب أصبحت أصغي جيدا للنصوص ـ تعلمت الإصغاء ـ وعرفت أن الدين الذي دعا إلى المساواة وأن لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى قال خليفة رسوله في سقيفة بني ساعدة عقب وفاة الرسول عندما أوشك الأنصار على اختيار زعيمهم سعد بن عبادة ليخلفه ـ ابن عبادة هذا قالت كتب السيرة أن الجن قتلته في الصحراء وروت في مقتله شعرا على ألسنة الجن.

في السقيفة حسم خليفة رسول الله الأمر بالقول إن الأئمة من قريش وهم يتنازعون على من يتولى خلافته في تدبير أمور المسلمين، وقريش قبيلة، والمعنى أن الله فضلها وجعل الحكم والسلطان فيها وهذا ضد مبدأ التقوى والمساواة وقد ظلت في قريش رياسة الناس وخلافة الرسول، تداولها بنو أمية وبنو العباس من هاشم وكلهم من قريش بمن فيهم الأربعة الراشدون.

وعرفت أن العرب مازالوا قبائل إلى الآن وأن كل حكام بلادهم من نسل قبائل مشهورة وعريقة؛ لكنهم لا يظهرون أسماء قبائلهم لمكر فيهم يعتبرونه نوعًا من الحكمة لعدم إثارة الآخرين ضدهم بلا مبرر في زمن الثورات الاجتماعية والديمقراطية وتداول السلطة والدساتير المكتوبة بين الحكام والمحكومين، فأغلبهم من قبائل عنزة أو هاشميون من قريش لهم قصص طويلة في التحالف مع حكومات الاستعمار لمساعدتهم في القضاء على العثمانين منذ مطلع القرن العشرين وحتى الآن.

وفي بلاد العرب عرفت أن الإسلام لم يفرض الجزية على العرب النصارى من قبائل تغلب بن وائل المجاورين للروم، وذلك لأنهم يعتبرونها

"خوة" " فردة" وإتاوة يفرضها القوي على الضعيف وأنهم لا يحتملون ذلك فهرع عمر بن الخطاب إلى فقهاء يثرب فأجازوا له أن يأخذ منهم ضعف الزكاة المفروضة على المسلمين؛ بينما عزل والي مصر عمرو بن العاص لأنه لم يستخلص الجزية من المصريين كما ينبغي وشكّ في ذمته وأرسل له من يحاسبه، هذا العمرو الذي جمع مليوني دينار من ذهب الشعب المؤمن الذي رفض تبديل دينه كما فعل الفرس ـ إلى حين ـ وارتضى دفع الجزية، عزله عمر وعيّن مكانه عبدالله بن سعد بن أبي السرح ـ أحد المطلوبين للقتل في القائمة السوداء عند فتح مكة ـ هذا السرح جمع أربعة ملايين من الدنانير الذهبية جزية من ذهب المصريين فكان تعليق عمر أن قال لعمرو هامزًا لامزًا " يبدو أن مصر في عهدكم قد أصابها لفاح" هذا مع العلم بأن الشعب المصري ظل تعداده عبر التاريخ يتراوح ما بين مليونين وأربعة ملايين حتى مجيء محمد علي وإصلاحاته الإدارية والزراعية والمائية.. ومع ما يقال عن أن الجزية لم تفرض إلا على كل ذكر قادر على حمل السلاح، فهل كان في مصر في عهد عمر بن الخطاب مليونان من المصريين المقاتلين وإذا كان الأمر كذلك فهل كان تعداد المصريين في ذلك الزمان اثني عشر مليونًا إذا أضفنا النساء والأطفال والكهول!؟ ابن الخطاب لم يشأ أخذ الجزية من نصارى العرب على الرغم من صراحة النص القرآني في وجوب أخذها ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴾(التوبة: ٢٩)، وعرفت أن " صاغرون هذه " ليست معنوية كما يحاول فقهاء مصر تقديمها للناس إنما لها اشتراطات وإجراءات مادية محددة وملزمة؛ لم يشأ ابن الخطاب أخذ الجزية من العرب في حين عزل والي مصر لأنه في نظره تهاون في جباية الجزية من المصريين!؟ وهكذا

سلب العرب المسلمون ذهب مصر بالجزية تقربا الى الله كما سرقه بنو إسرائيل من قبل بزعامة نبيهم موسى قبل ذلك تقربًا إلى نفس الإله.

وعرفت في بلاد العرب أن كل الأنبياء والرسل الذين ذُكروا في القرآن لم يحمل أحدهم سيفا في وجه الناس سوى داود ومحمد وأنهم كانوا أصحاب معجزات أو شهودًا عليها ما عدا النبي الخاتم الذي لم يورد له النص القرآني معجزة أو خرقًا لناموس أو قانون وإن كان الشعراوي في أواخر القرن العشرين حاول فلسفة الأمر بالقول أن معجزة كل نبي كانت من جنس ما برع فيه قومه وأعداؤه فمعجزة موسى كانت السحر ومعجزة عيسى إحياء الموتى وشفاء المرضى والنار معجزة إبراهيم أما محمد فكانت معجزته الكلام، بلاغة الكلام حيث العرب كانوا أهل بلاغة إلا أن محمدًا لم يكن ولم يقل أحد إنه نبي للعرب وحدهم بل هو حسب قوله تفرد بالنبي الخاتم للناس كافة وتفرد بأخذ الأسلاب والغنائم من أعدائه المهزومين تحت وطأة الحرب. وعرفت أيضًا أن المسلمين فقط هم الذين يعترفون بسماوية الديانة اليهودية وكذلك المسيحية وأنهما من عند الله بينما اليهود والمسيحيون لا يعترفون بسماوية الدين الإسلامي وأن المسلمين في نظرهم مجموعة من الناس أتيح لهم زعيم ذكي استطاع أن يوحد قبائل العرب ويصنع منهم قوة تغلبت على مستعمرات الفرس والروم من حولهم في الشرق والغرب، وتمكن رجاله في عهده وبعد موته من احتلال البلدان والشعوب المجاورة وطرد المستعمرين من الفرس والرومان في ظرف تاريخي كان مواتيا حيث ضعفت القوتان ـ الفرس والروم ـ نظرا للحروب المستعرة بينهما والتي استمرت أكثر من ألف سنة قبل مجيء رسول العرب إضافة إلى عوامل الضعف والانحلال الداخلي في كل امبراطورية منهما وأن ذلك من الأمور الطبيعية في التاريخ حيث يتغلب الأقوياء على الضعفاء وأن الأيام دول بين الشعوب والأقوام عبر التاريخ الإنساني كله.

عرفت في بلاد العرب أن نظام ملك اليمين ما زال معمولا به من خلال نظام الكفيل وقوانين الإقامة وكذلك نظام الرق والتجارة بالبشر ولماذا لم يحرم الإسلام ذلك النظام بل أبقاه وجعله من كفارات المسلم إذا عصى ثم أراد التوبة؛ في حين دخل الإسلام بتشريعاته المفصلة في أمور النكاح والطلاق والعدة والرضاعة وغيرها من الأمور التي تسير عليها الشعوب والأمم والناس منذ الخلق وحتى الآن دونما تشريعات تفيض بها السماء على قلوب الأنبياء الرسل؛ " يعني أيهما أهم الرق واستعباد البشر وتكريس المظالم ولا عدة الحائض!؟

وعرفت فى بلاد العرب أن شيخ القبيلة لايجوز لأحد أن يطأ "يركب" نساءه من بعده سواء مات عنهن أو طلقهن فى حياته، ولماذا حرم الإسلام نكاح زوجات الرسول بحجة أنهن أمهات للمسلمين على الرغم من أن النص قال فى موضع آخر ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢)، ولماذا لم يطلق الرسول واحدة من نسائه وفضل الاحتفاظ بأكثر من عشرة منهن على الرغم من مخالفة ذلك لما جاء به من تشريع!؟ "مثنى وثلاث ورباع ".

وعرفت حجم التناقض واللامعقول فى كثير من أحداث الإسلام وما جاء به المسلمون الأوائل، ولماذا سكت الرسول عن قتل عصماء بنت مروان وكعب بن الأشرف وأبي عفك فى يثرب لمجرد أنهم تعرضوا له بالشتم ولم يقترب من هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان التى مثلت بجثة عمه حمزة فى معركة أحد وأخرجت كبده من أحشائه وأكلت منه بعد أن أعتقت عبدها وحشى مكافأة له على قتل عم الرسول،ولم ينلها سوء بل أكرمها الرسول كما أكرم زوجها عند فتح مكة بعد خمس سنوات من مقتل عمه قائلًا: "من دخل دار أبي سفيان فهو آمن". وكيف لم يدع الرسول إلى قتل أحد من أقاربه القرشيين في مكة على الرغم من أنه قتل النضر بن الحارث

وعقبة بن أبي معيط اللذين أُسرا مع عمه العباس بن عبدالمطلب وابن عمه عقيل بن أبي طالب وزوج ابنته زينب أبي العاصي بن الربيع وسهيل بن عمرو فعفا عن أقربائه وقبل منهم الفداء بينما قتل النضر وعقبة مع العلم أنهم جميعًا وحتى ذلك الحين كانوا كفارًا جاءوا من مكة لقتل الرسول وأصحابه، والأغرب من ذلك أن الرسول أعطاهم الأموال وهم كفار، أموال الغنائم التي سلبها من قبيلتي هوازن وثقيف يوم حنين؛ أعطاهم على سبيل التأليف "المؤلفة قلوبهم" ومنهم أبو سفيان بن حرب وسهيل ابن عمرو، أعطى كلًا منها مئة ناقة. أعطى الكفار من أموال الكفار!! فلماذا إذا قتل وسلب كفارًا ليعطي ويهب كفارًا آخرين!!.

و عرفت في بلاد العرب أن أغلب ما أقره الإسلام من تشريعات وقوانين كانت أعرافًا وتقاليد معمولًا بها قبل الإسلام ومنها أخذ الخمس من الغنائم عندما أقدم عبدالله بن جحش على فصل الخمس من الغنائم التي سلبها وسريته في غارة بأمر الرسول على قافلة مكية في السنة الأولى للهجرة وفي الأشهر الحرم ورفض الرسول أخذ الخمس أول الأمر ثم عاد وأخذه بعد نزول الوحي الذي أباح القتال في الأشهر الحرم التي حرم فيها العرب القتال ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ ﴾ (البقرة:٢١٧) وكذلك دفع الأجرة للزوجة التي ترضع طفلها والحج والجزية التي كان يفرضها سادات القبائل القوية على القبائل الضعيفة أو الغرباء حتى يسمحوا لهم بالعيش بينهم أو المرور في مضاربهم وكذلك الرجم والجلد وإرضاع الكبير ونكاح الصغيرة والمهر الذي يدفع لولي المنكوحة مقابل استحلال فرجها وملك اليمين والعبيد والموالي وحتى القصص المتداول شفاهة ما بين تخوم الشام الرومانية حتى حدود اليمن والعراق الفارسية ولعل قصة موسى مع ملك مصر التي كتبها زيد عمرو بن نفيل شعرًا وأوردها ابن هشام في سيرته؛ لعلها أصدق دليل على ذلك، ناهيك عن عاد وثمود

والأحقاف وأصحاب الأيكة وذي القرنين وأهل الكهف وغيرها من القصص السائرة في نطاق الجزيرة العربية وجوارها من القصص التي لم يرد ذكرها في العهدين القديم والجديد.

وبعد؛ فمن هم هؤلاء العرب!؟ هل كل من يتحدث العربية بأية لهجة أو لسان فهو عربي، أم أن العروبة لها علاقة بالعرق والأصل والثقافة لا بالنطق واللسان، هذه قضية لم يحسمها أحد من الباحثين وخصوصًا في الفترة التي أعقبت التوسعات الكبيرة بعد مجيء الإسلام وصار لهم نفوذ وحكومة في كثير من البلدان والشعوب المجاورة شرقًا وغربًا.

علماء اللغة والأجناس من العرب وغيرهم يحسمون هوية العرب قبل الإسلام ويقسمونهم قسمين: عرب عاربة "بائدة" وهم الأقوام التي سكنت جزيرة العرب من عاد وثمود وجديس وطسم وأميم والعمالقة وجرهم وحضرموت، والقسم الآخر هم العرب المستعربة "الباقية" وهم فريقان، عرب قحطانية جنوبية من حمير ونحوها من أهل اليمن والفريق الآخرعرب عدنانية في الحجاز وما يليها شرقًا وشمالًا، وكل تلك التقسيمات للعرب تقع في الفترة التي سبقت الإسلام، ولم يهتم أحد بالشعوب التي تعربت أو اعتربت بواسطة الإسلام خلال القرون من السابع وحتى العاشر الميلادي بسبب غزو العرب بالإسلام للشعوب في مصر وشمال إفريقيا وبلاد الشام والرافدين وحتى اليمن.

وهذه شعوب لها ثقافاتها وحضاراتها ودياناتها وقد أثر فيهم العرب من خلال النزوح الكثيف لقبائلهم من شبه الجزيرة العربية صوب الشام وشمال إفريقيا.

وعلى الرغم من انهيار حكم العرب تماما في البلدان الإسلامية ابتداءً من القرن الحادي عشر الميلادي ووصول غير العرب إلى سدة الحكم

والرياسة في كل العواصم من حدود الرومان والخليج الفارسي وحتى الأطلس غربا وإمساكهم بزمام الأمور؛ على الرغم من كل ذلك إلا أن أحدا لم يهتم ببحث هوية تلك الأقاليم التي ساد فيها العرب المسلمون فترة من الوقت ثم استؤصلت شأفتهم وحل مكانهم سادة آخرون ليسوا عربا أحدثوا الكثير من التغييرات في الشعائر والشرائع لدرجة أن بعضهم هدم كعبة العرب في مكه ونقل حجرها الأسود إلى البحرين في القرن الرابع الهجري وعطل شريعة الحج الأكبر لأكثر من عشرين عاما ثم أضاف بعضهم أصنافًا إلى قائمة المحرمات من المأكولات والمشروبات على المسلمين الذين ظل يقتل بعضهم بعضا منذ مصرع الخليفة الراشدي عثمان بن عفان وحتى الآن على حدود الكويت والعراق والسعودية واليمن.

والواقع أن تاريخ المسلمين الذي دوّنه مؤرخوهم أنفسهم لم يتحدث إطلاقا عن دول عربية أو حكومات عربية في المشرق أو في المغرب وأن الأقاليم التي غزاها العرب استمر تاريخها يكتب باعتبارها دولا اسلامية، فهناك من يؤرخ لليمن وأرض السواد - جزء من سورية والعراق - وبلاد الشام ومصر والبربر وشمال إفريقيا، ولم يقل أحد من مؤرخي الحقب الإسلامية فى تلك البلدان أنهاعربية، وظلت تلك البلدان كذلك فى كتب التاريخ حتى انحلت سيادة الدول العثمانية التركية - أحفاد السلاجقة غير العرب طبعا - مع نهاية الحرب العالمية الأولى فى العقد الثانى من القرن العشرين للميلاد وبداية الاستعمار الأوروبى لتلك البلدان والذى أعاد تسميتها وإطلاق حدودها الثقافية الجغرافية الجديدة محددا هويتها وملامحها وفق ما تقتضيه مصالحه، ومن هنا برز مصطلح العروبة والعربية والدول العربية، هذا العنوان الجامع الذى لم يكن أبدًا ذا فعالية فى سير الأحداث وتطور الحضارة والثقافة فى تلك البلدان عبر أكثر من اثنى عشر قرنا منذ نشب الإسلام فيها وحتى نهاية العثمانيين.

هذه البلدان المنخرطة الآن فى حزمة تسمى جامعة الدول العربية ليس فيها من العرب سوى بلدان الخليج واليمن، ولايوجد فى المراجع التاريخية منذ نشأة بلدان الجامعة وحتى بداية القرن العشرين ما يشير إلى أنها دول عربية؛ إنما العرب ودولهم كانوا فى شبه الجزيرةمن اليمن وحتى حدود الشام على البحر الأحمر، وما زالوا حتى الآن هم العرب بالمعنى العرقى والثقافى، وإذا أردت أن تتعرف على ملامح هويتهم فما عليك إلا الذهاب إليهم والانخراط فى حياتهم - إذا استطعت - حتى تعرف ماذا يعنى العرب والعروبة؟وستعرف أن الإسلام كأسلوب حياة يمارسه الناس ليس إسلامًا واحدًا؛ إنما أكثر من إسلام، وستعرف أن ديانة كل إقليم من أقاليم المسلمين ما هى إلا امتداد وتطور لجذره القديم الذى يضرب فى عمق هوية هذه الأقاليم عبر آلاف السنين، فالإسلام فى الشام فيه كثير من ملامح ديانة الآراميين وفى العراق ستجد رائحة بابل وآشور وسومر بقوة فى معتقدات الناس ومذاهبهم ومسلك حياتهم، وفى وادى النيل هناك ديانة مصر القديمة وكذلك هناك الأمازيغ فى غالبية الشمال الإفريقى.

وستعرف لماذا لا يتوحد هؤلاء الناس على الرغم مما يقال ليل نهار عن اتحادهم فى اللغة والدين؛ وستعرف لماذا تنشب الحروب بينهم طوال فترات التاريخ، ستعرف المواريث الحقة لتلك الشعوب والقبائل؛نعم شعوب وقبائل هذا جذرها الحضارى، وأنها لم تعثر حتى الآن على خيط يوحد مصالحها ونزوعاتها ويحترم حياة الانسان على الرغم من عثور الشعوب والقبائل فى غرب المتوسط على ذلك الخيط منذ أكثر من خمسة قرون مضت عندما أخذوا فى جمع المقدس السماوى وحبسه داخل جدران الكنائس وفتحوا الشوارع والمدن والحقول والتاريخ لصوت العقل والحرية واحترام وجود الإنسان.

القسم الأول

# نظرة في تاريخ التدين السماوي

# عقائد البدو الإسرائيليين

جاء في القرآن ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ سورة يوسف.

فلولا أن دخلوا عليه مصر ولو لم يخرج هو بعناية ربه من البدو إلى مصر، ولولا أن ذاق هذا النسل الإبراهيمي كرم الفيوضات في ملكوت النيل، لولا مصر ما خرج بهم موسى نبيا ومشرعا يؤسس في دفء المعمور الغيبي ديانات ورسلا سوف تترى بعده من شعاب بيت أيل وجبل صهيون وبيت لحم في أرض فلسطين إلى شعاب مكة وسهول يثرب في جزيرة العرب.

تقول المعاجم: إن البادية هي الأرض السهلة الممتدة الصالحة للرعي والإقامة، وإن من يسكنها متنقلا فيها يسمون البدو، ويقابلهم أهل الحضر في أرض الحل والبيوت الدائمة وما يتبع ذلك من نظم تتمحور كلها حول الإقامة والقرار.

دخل إسرائيل – يعقوب – إذا وزوجاته الثلاث بعد أن ماتت الرابعة أم يوسف – راحيل – وهي تلد بنيامين شقيق يوسف، دخل ومعه كل ذريته – سبعون نفرا – على ابنه الثاني عشر يوسف بعد أن تخلص منه الأسباط

أخوته، دخلوا عليه مصر وقد أصبح مكينا ذا قرار وعرش، دخلوا مصر وصاروا هم أيضا أنبياء يوحى إليهم حسبما تشير الآية ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ النساء

إذن فنحن أمام نبي هو إسرائيل ابن نبي هو إسحاق حفيد نبي هو إبراهيم وقد أنجب إسرائيل ذرية كلها أنبياء يوحى إليهم وهؤلاء هم يوسف والأسباط أخوته بنيامين ورأوبين ويهوذا وجاد وأشير ونفتالي وزبولون ويساكر ودان وشمعون ولاوي، هذا النسل الذي ظل يتكاثر في أرض مصر حتى أنجب أنبياء آخرين أشهرهم موسى وهارون اللذان أخذا قومهما من بني إسرائيل وعادا بهم إلى كنعان أرض غربة آبائهم إبراهيم إسحاق ويعقوب والتي كتبها الله لهم في سجل الملكوت الرحماني الواسع، كل هؤلاء الأنبياء عاشوا في مصر ما عدا إسحاق ومنهم من صاهر المصريين كإبراهيم وإسماعيل وغيرهما من نسل الأحفاد فيما بعد حتى آخرهم محمد بن عبد الله في جزيرة العرب، الذي اتخذ من مارية سُرّية له.

والنص القرآني كما يبدو قد أقر الإسرائيليين على مقولاتهم ولم يختلف معهم إلا بعد أن صاروا يهودا خلال رحلة هروبهم من مصر يقودوهم موسى باتجاه كنعان أرض الميعاد حسب ما سطروا في مقدسهم الديني السماوي.

وهؤلاء الإسرائيليون لم يسأل أحد لماذا تركوا أرض غربة أجدادهم في فلسطين وانتقلوا إلى مصر ليخرجوا بعد حين في صحبة نبي آخر لهم هو موسى بعد أن تناسلوا وتكاثروا وأقاموا قرابة أربع مئة سنة في مصر؟ لماذا أتوا ولماذا خرجوا؟ وهل كانت لهم رسالة نحو المصريين؟

ولماذا تصارعوا مع ملك مصر "الفرعون" الذي ورد ذكره في القرآن أربعا وسبعين مرة مقابل ثلاثا وأربعين مرة فقط لإسرائيل؟ بمعنى لماذا احتفل النص القرآني بموضوع يبدو عرضيا وهو فرعون في سياق الكتاب المحكم وذلك إذا ما قورن بموضوع إسرائيل الذي هو عمود ودعامة راسخة في محكم الكتاب الذي لا تستقيم الديانات السماوية إلا به؟

وأيما كانت الأسباب والدوافع وراء ما سبق فإن الحكمة الإلهية تقتضي منا أن نبحث ونفسر ونقلب الأمور على كل مظانها؛ وخصوصا إذا كانت القضايا المثارة ذات شق تاريخي أصيل مزروع في تاريخ البشرية المقدس وأعني به الديانات كما أنه مغروس في أرض الحاضر وعلى نفس جغرافيا الصراع والنزاع بين إسرائيل من ناحية وبين سكان الأرض الفلسطينيين والصيدونيين وغيرهما من الأمم، بل إن عيون الأحفاد من بني إسرائيل وقلوبهم ما زالت تهفو وتحن صوب ماضٍ تهادت فيه خطى الأجداد من الفرات إلى نيل مصر الكبير على صفحات العهد القديم، وخصوصا لو عدنا إلى ما قبل إسرائيل بأبوين هما إسحاق وإبراهيم.

أقول إن النص القرآني لم يصطدم بالإسرائيليين مثلما اصطدم باليهود، بل نجد كل المقولات الأساسية للإسرائيليين الذين جاءوا من البدو تتنفس و"تتمطع" بحرية كاملة في ثنايا النص. ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ المائدة، ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ الجاثية.

وذلك على الرغم من أن المسيرة الإسرائيلية لهؤلاء القوم والتي بدأت من يعقوب – الذي غير اسمه لاحقا إلى اسرائيل – وحتى موسى لم

تكن لهم فيها أرض حتى يصيروا عليها ملوكا، لأن أنبياء بني إسرائيل الذين أوردهم القرآن قبل موسى هم إسرائيل وبنوه الإثناعشر سبطا ثم موسى وهارون وهؤلاء جميعهم كانوا متغربين في مصر كأي أقلية وافدة مستضعفة ولم يكن لأي منهم أرض حتى يقيم عليها مُلكا إلا إذا كانت هذه بشرى مستقبلية جاءتهم على لسان نبيهم موسى وسوف تتحقق فيما بعد على زمان داود – الذي يعد أول ملوكهم بعد خمس مئة عام تقريبا ثم نزلت وحيا بعد ذلك وقرآنا على محمد في جزيرة العرب بعد أكثر من ثمانية عشر قرنا على أحداث خروج موسى بقومه صوب الأرض التي كتب الله لهم. فمقولة الأرض الموعودة يسلم بها النص القرآني وكذلك مقولة الشعب المفضل والمصطفى والمختار من قبل الرب ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ البقرة.

إن قضية إسرائيل خارج النص القرآني - أعني لو نظرنا إليها بمعزل عن السياق القرآني – تبدو سهلة شديدة الوضوح، حيث المصادر الأخرى وأهمها أسفار العهد القديم وعلم التاريخ وخصوصا ما يتعلق منه بالحضارات القديمة في مصر والعراق وبلاد الشام قد حسمت هذه المسألة بجلاء لا غموض فيه من حيث طبيعة الإله المعبود أو طبيعة الشعب العابد وعلاقاته بالأمم الأخرى.

من المعلوم بالبديهة – حسب المفهوم القرآني - أن كل نبي أُرسل بلسان قومه وأن كلا منهم بعثه الله لأمة بعينها - إلا محمد - فهل بُعث موسى أو يوسف من قبله إلى أمة المصريين؟ بمعنى هل كان لنبي من بني إسرائيل أية دعوة كُلف بها من قبل الرب لتبليغها للشعب المصري؟. قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾ إبراهيم.

ومن النص القرآني نعلم أن بني إسرائيل كقوم قد أُرسل إليهم كل من إسرائيل (يعقوب وبنوه الإثنا عشر) وموسى وهارون وداود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى بل إن هناك من لم يذكر القرآن اسمه وإن يكن ورد تفصيله في أسفار العهد القديم كما جاء في سورة البقرة ٢٤٦، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ كما أُرسل شعيب إلى قوم مدين وصالح إلى ثمود ولوط إلى قومه في سدوم وعمورة؛ فكل الأنبياء منذ آدم وحتى عيسى بن مريم قد أرسلوا إلى أقوامهم، وهذه سُنة الله في النبوة حسب منطق الديانات السماوية، كما أن عذاب الله كان يحيق بالأمم التي أساءت إلى الأنبياء ولم تلتزم تعاليم الرسل إلا أمة إسرائيل فقد خالفت هذه السنة الإلهية في النبوة على الرغم من أنها أكثر الأمم رسلا وعصيانا بل إنها أغلظت مع المرسلين لدرجة قتلهم وتحريف رسالاتهم وعلى الرغم من كل ذلك سلمت هذه الأمة من العذاب والإبادة التي عوملت بها كل الأمم التي عصت رسلها وورد ذكرها في القرآن﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ الفجر، ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾﴾ الحاقة.

وهكذا كان مصير كل الأمم والأقوام من نوح وعاد وثمود ولوط ومدين وأصحاب الأيكة والأخدود وفرعون وملئه إلا قبيلة إسرائيل التي صارت بعد ذلك شعبا إثر معايشة المصريين لأكثر من أربعة قرون ما بين أبيهم

إسرائيل وحتى حفيده موسى، أكثر من عشرين نبيا أرسلوا إليهم وكذبوهم ومع ذلك اختلفت معهم السنة الإلهية في الرسالات السماوية وأبقت فيهم النبوة والتكاثر في أقوامهم وهذه انعطافة تقود إلى مدارج أخرى ذات وشائج بالموضوع لكنها ليست المنشود هنا والذي يستهدف البحث في أسباب ودوافع الصراع والنزاع بين موسى وملك مصر. وهل كان موسى مرسلا من الله تجاه المصريين وحال الفرعون دون هذه الرسالة فنشب الصراع بين نبي مدجج بسلطان السماء وتسع آيات بينات على شاكلة الجراد والقمل والضفادع والدم وبين ملك استعلى وتجبر وخرق ناموس الخالق في أرضه؟! وما الذي كان يريده موسى من الفرعون؟ ولماذا لم يستجب له الفرعون؟ يقول القرآن: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ الأعراف، وقال أيضا مخاطبا موسى وهارون: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ ﴾ طه.

وفي موضع آخر خاطبهما قائلا: ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ الشعراء.

فإن كان مطلب موسى من الفرعون - حسب الآيات السابقة - أن يسمح له بالخروج مع بني إسرائيل من مصر صوب الأرض التي كتبها لهم ربهم كما يقرر القرآن: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ

إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ۛ أَرْبَعِينَ سَنَةً ۛ يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ المائدة.

وإذا كان الفرعون قد أخطأ وعصى وطغى هو وملؤه من الجنود والمستشارين فكيف نتصور أن يكون العقاب جماعيًا - على غير سنة الله في العقاب - لمصر وأهلها أجمعين وذلك بالآيات الموسوية المهلكة من جراد وضفادع فالمعلوم من سنة الله في الجزاء أنه ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾، ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، ثم إن موسى لم يكن مرسلا إلى شعب مصر ليبلغهم رسالة ربهم بل إنه باليقين نبي إسرائيلي مختص بقومه، ولكن السؤال الرهيف واللطيف هنا هو هل كان مطلوبا من الفرعون - بما أن موسى وأخوه أُرسلا إليه - أن يؤمن بموسى وأخيه أم يؤمن لهما؟! وقد تقول وما الفرق؟ إنه كبير، فإن كان المطلوب من الفرعون أن يؤمن بموسى أي يؤمن برسالته وبمجمل تصوره عن العالم كما هو عند بني إسرائيل وكأن ملك مصر واحد من بني إسرائيل، وإن كان المقصود أن يؤمن لموسى أي يؤمن بأن هذا الرجل الذي تربى في بيت الملك وليدا والذي قتل رجلا من رعية الملك عندما بلغ شبابه، مطلوب منه أن يصدق ويؤمن بأن هذا الرجل هو نبي لتلك الأمة التي ورثها هذا الفرعون - كأقلية وافدة - من آبائه وأجداده منذ عهد فرعون يوسف الذي استقبلت فيه مصر هذه السلالة اليعقوبية، مطلوب منه أن يؤمن له بنبوته عليهم وبالتالي يترك أمر هذه الجماعة لهذا الرجل (اللقيط - القاتل) من وجهة نظره ليقرر مصيرها.ثم لماذا سكت النص القرآني عن الفرعون الأول الذي استقبل السلالة ومكّن لها أسباب العيش والتكاثر والتناسل في مصر؟ وهل كان ذلك الفرعون كافرًا وعاصيًا وباغيًا وطاغيًا هو الآخر؟ هل كان

ذلك الفرعون الآخر بحاجة إلى نبي ورسول ليذكره بما نسي من أمر الله وحسن إدارة المملكة والشعب؟ لماذا سكت عنه على الرغم من أنه أيضا كان فرعونا لا يدين بدين يعقوب وسلالته الإسرائيلية؟!

إن هذه الوقفة اللطيفة بخصوص " آمن بـ " و" آمن لـ " وردت بموضعين في القرآن، الأول بالأعراف الآية ١٤٣: " فلما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسل معك بني إسرائيل "، (نؤمن لك) وليس نؤمن بك، هذا مع العلم بأن النص القرآني عندما يتحدث في مواضع الجدل والإقناع بين الرسل وأقوامهم في قضية الإيمان يستخدم حرف الجر " الباء " مع الفعل " آمن " وتصريفاته المتعددة فمثلا ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ آل عمران. كما وردت في الموضوع الآخر في سياق القصة بين موسى وملك مصر على النحو التالي: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ المؤمنون " نؤمن لبشرين " وليس " نؤمن ببشرين "، إذن خلاصة الدوافع في ذلك الصراع المحصور بين موسى وأخوه من جهة وبين فرعون وملئه - وليس المصريين - من جهة أخرى كان بسبب رغبة موسى المكلف من قبل ربه بالخروج ببني إسرائيل من مصر ورفض الفرعون الاستجابة نظرا لأنه لا يصدق بأن هذا " الموسى " الذي منحه القصر الملكي اسمه وأسباب حياته والذي تورط فيما بعد في جريمة قتل خطأ لأحد المصريين هرب على إثرها ملتجئا إلى البدو " الشاسو " في أهل مدين ثم عودته إلى مصر بعد ظهور الإله

له وتكليفه بالرسالة كأحد أنبياء بني إسرائيل الموكل إليه الخروج بهم من مصر نحو الأرض الموعودة لهم منذ زمان الجد الأكبر إبراهيم وقد آن الأوان لتحقيق هذا الوعد الإلهي لهؤلاء الذين اصطفاهم ربهم على كل العالمين.

يقول تعالى على لسان ملك مصر – الفرعون -: ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ الشعراء، فيرد عليه موسى ﴿ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ الشعراء.

وهذا كله من السياق القرآني الذي وردت فيه مصر كعلم على بلد وشعب خمس مرات، اثنتين في سياق نزوح بني إسرائيل إليها في زمن يوسف وثلاثا في خروجهم منها على يد موسى مع العلم بأن الغالبية الكاسحة من أنبياء بني إسرائيل الذين ورد ذكرهم في القرآن أقاموا في مصر أو ارتبطوا بعلاقات مصاهرة منها مع المصريين منذ جدهم الأكبر إبراهيم وحتى نبيهم العالم لغة الطير سليمان بن داود مرورا بإسماعيل وذريته التي تنتهي بالنبي الخاتم في جزيرة العرب - بالرغم من كل هذه الأهمية والدعم من المصريين لم يرد ذكر بلدهم سوى خمس مرات في القرآن مرتبطة بيوسف وموسى في الدخول والخروج مع بني إسرائيل.

المؤكد أن المصريين كشعب وأمة عرفوا التدين بمعناه الواسع والحقيقي منذ مدة سابقة على ظهور أبي الأنبياء إبراهيم في منطقة الشرق الأدنى على التخوم المصرية وحتى وصيته لأبنائه وأحفاده بالمجيء إلى مصر التي خبرها لاجئا من جوع كالذي أصاب يعقوب وبنيه من بعدُ: " وحدث جوع في الأرض. فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديدا "١٠ سفر التكوين الإصحاح ١٢ وبعد أن خبر مصر

وعرفها جيدا أعلمه الرب قائلا: " اعلم أن نسلك سيكون غريبا في أرض ليسألهم ويُستعبدون لهم فيذلونهم أربع مئة سنة ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة... وفي ذلك اليوم قطع الرب مع إبرام ميثاقا قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلي النهر الكبير نهر الفرات " ١٣- ١٨ تكوين ١٥، وهذا الرب الذي سلطهم على كثير من الأمم يوصيهم قائلا " لا تكره مصريا لأنك كنت نزيلا في أرضه " ٧ التثنية ٢٣، ولا أريد الاستطراد في السياقات غير القرآنية في هذه القضية وخصوصا أن مصر ذكرت ١١٠ مرة في أسفار العهد القديم، ناهيك عن كتب المؤرخين قديما وحديثا بينما لم ترد إسرائيل سوى مرة واحدة في كتابات المصريين القديمة وهذا أمر طبيعي باعتبارهم أقلية وافدة ليس لها شأن وليسوا من المصريين.

ومن المؤكد أيضا أن المصريين شعب اهتدى إلى عقائده عبر مئات الأجيال قبل وأثناء النسل الإبراهيمي، العقائد التي قال عنها المؤرخ وعالم الآثار الأمريكي جيمس برستيد: " لم يكن في الشرق القديم إلا عقيدة دينية واحدة تقول بأن الإله يزن القلب الإنساني وهي الديانة المصرية القديمة بما تشتمل عليه من المحاكمة الأوزيرية ". ٣٨٢ فجر الضمير- الهيئة المصرية للكتاب.

وتلك كانت آخر لبنة في عمارة العقيدة الأخلاقية بعد التوحيد الذي توصل إليه المصريون أيضا في بداية الدولة الحديثة مع إخناتون منذ ما يقرب من أربعة عشر قرنا قبل الميلاد وقبل الخروج الإسرائيل على يد موسى من مصر وقبل دعوة محمد بما يزيد على عشرين قرنا.

إن عقائد الذين جاءوا من البدو والتي تصطبغ بالعنف والأحادية وضيق الأفق في النظر إلى مسائل الوجود، تلك العقائد التي كرس لها الإسرائيليون

في الشرق الأدنى قد تسللت إلى كثير من وعي الفقهاء ومفاهيمهم للدين فحاولوا إخضاع ذائقة الأمم الحضرية المتدنية بالضرورة للمزاج البدوي القاحل والمتقلب تحت دعاوى التوحيد وتنقية العقيدة من الشوائب لدى الأمم المستعربة وبادية الشام على الرغم مما يقرره القرآن من أن هناك الكثير من الأنبياء الذين لم يأت الوحي على ذكرهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ غافر. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ النساء، وأليس ذلك هو القرآن الكريم الذي يقرر بأنه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ الإسراء. وكذلك ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ النحل، وكذلك ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ فاطر، ألا يدل كل ذلك على ضرورة وجود أنبياء في أمة المصريين وغيرهم من الأمم لم يحفل بهم النص الإسرائيلي نظرا لخصوصية العلاقة التي صاغها بين إسرائيل والإله والأرض كما لم يأت الوحي على ذكرهم للنبي محمد الذي ابتدأت رسالته مع مرور العقد الأول من القرن السابع الميلادي؟

وألا يدفعنا ذلك إلى النظر بعناية إلى جيمس بريستيد عندما يقول مع نهاية الربع الأول من القرن العشرين: " لا شك أن موسى كان ملما بأقوال

أولئك الأنبياء الاجتماعيين - من الذين لم نقصص عليك - والذين كانت أقدم كتاباتهم متداولة بين المصريين قبل ١٥٠٠ سنة عندما ابتدأ موسى تعليم قومه، ومن البديهي أن رجلا مثله نشأ محاطا بمثل ذلك النوع من الأدب كان لزاما عليه أن يشعر بالحاجة إلى دين يشتمل على تعاليم خلقية يزود بها قومه "؟ ٣٨٠ فجر الضمير - الهيئة المصرية للكتاب.

وبعد ألا يحق لي أن أتعجب من هذا التشابه بين القرآن والشعر المنسوب إلى بعض شعراء العرب مثل زيد بن عمرو بن نفيل وإلى أمية بن أبي الصلت يقولان فيه من قبل مجيء محمد:

وأنت الذي منْ فضل مَنٍ ورحمةٍ بعثت إلى موسى رسولا مناديا فقلت له فاذهب وهارون فادعوا إلى الله فرعون الذي كان باغيا تماما كما جاء من القرآن من بعدهما وكأن رسالة موسى إلى قومه من بدو إسرائيل قد شملت المصريين أيضًا؟!

## ما زلنا في قبضة الاحتكار العبراني للدين

ينبغي عليّ الآن أن أقول: إن التدين ذا الجذر السماوي اختراع توصّل إليه العبرانيون خلال أكثر من سبعمائة عام في الفترة من هجرة إبراهيم إلى كنعان في القرن السابع عشر قبل الميلاد وحتى سراديب بابل في القرن السادس قبل الميلاد، عاشوا خلالها بين حضارات الشرق الأدنى القديم من أور الكلدانيين فيما بين النهرين - دجلة والفرات - حتى طيبة ومنف وهليوبوليس على ضفاف النيل.. اختراع توصلوا إليه ونضج على مهلٍ في كنف كهنة حابي في بلاد المصريين لأكثر من أربعمائة عام ثم واصل صعوده في أرض كنعان وحتى سراديب بابل حيث قرروا احتكار العلاقة بين السماء والأرض إلى الأبد في نسل إسرائيل بن اسحاق بن إبراهيم وامتلاك الوعي البشري بهذا الاحتكار والتشويش على روح البشر في التواصل الفطري الحر مع خالقها وبديع الحياة من حولها، ومن هنا كانت كل هذه الخصومة العارمة والعداء الرهيب الذي سيبقى مع نبي يقول لهم:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ الجمعة.

كما سيظل عداؤهم وخصومتهم مع نبي آخر قال لهم "لو كان الله

أباكم لكنتم تحبونني... أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوها... " من٣٧ إلى ٤٤ يوحنا ٨

وينبغي عليّ أن أقول أن النبي محمد أضر به وبرسالته فقهاء أمته من بعده حينما حوّلوا دعوته إلى كهانة أغرقت الناس في طقوس زعموا بها تربيةً وتهذيبًا وتطهيرًا لنفوس وأبدان وأرواح لا ينظرون إليها إلا على أنها مدنّسة قذرة وحقيرة نجسة يجب السموّ بها عن طريق كهانة الشعائر والطقوس والإغراق فيها حتى لا يتبقى مكان للنظر والتأمل واستبيان ما فوق الرؤوس أو ما تحت الأقدام.. حتى لا يبقى متسع لإدراك الذي أمام البشر من تواريخ والذي خلفهم من مواريث.

إن رسالة محمد لو كان لها - وهذا هو الجديد فيها - أن تقف عند حدود نقض الاحتكار اليهودي لعلاقة السماء بالأرض وانحرافهم بميراث الإنسان في البحث عن الإله وإنهاء سطوتهم على روح البشرية – لو كان لها ذلك لكفاها، لأنها ببساطة مهمة تعود بالبشرية إلى الدين الحق.. إلى فطرية العلاقة بين الإنسان وخالقه، وما أخطرها وأجلها وأقدسها من مهمة قصرت دونها كل الهمم والدعوات:

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾٧٠، المائدة

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ ٨٧، البقرة

وهكذا كانت دعوة محمد – على الرغم من إقرارها باصطفاء الله لبني إسرائيل وتفضيلهم على العالمين - بمثابة الكاشف والمشير في غاية الفصاحة والوضوح على انحراف بني إسرائيل واحتكارهم واستبدادهم

بعلاقة الخالق – جل وعلا – ببني الإنسان.

وينبغي عليّ أن أقول: إن اتهام أي إنسان ينقض المقولة التوراتية بشأن تاريخ البشرية وصيرورتها ومآلها ومحاكمته بدعوى معاداة السامية وكراهية اليهود واحتقارهم.. إن اتهامًا كهذا والسكوت عليه يُعدّ وصمة تضرب مصداقية عصرٍ بكامله، تضربه في كل ما توصّل إليه وأنجزه في ميادين الفكر والتكنولوجيا والفنون، بل وتدعو إلى مراجعة كل تلك الإنجازات والتشكك في جدواها فيما يتعلق برقيّ البشرية وتطورها في عصورها الأخيرة

## محنة العقيدة التوراتية

"وقال الرب هوذا شعبٌ واحدٌ ولسانٌ واحدٌ لجميعهم وهذا ابتداؤهم بالعمل. والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه. هلـمّ ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه كل الأرض. فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعي اسمها بابل. لأن الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ومن هناك بددهم الرب على وجه الأرض. " ١١، سفر التكوين، ٦ ـ ٩

هذا ما حدث مع قبائل نوح بعد نجاتهم وتأسيس الحياة من جديد عقب الطوفان وفق ما جاء في السياق التوراتي.. والمقصود بهم أولاد حام وسام ويافث الأبناء الثلاثة لنوح.

والأمر يحتاج إلى وقفة بسيطة لإلقاء إيضاح على مفهوم الإله لدى العبرانيين الذين تحيزوا في نهاية الأمر داخل نطاق يعقوب "إسرائيل" بن إسحاق بن إبراهيم بن تارح بن ناحور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن ارفكشاد بن سام بن نوح بن لامك بن متوشالح بن أخنوخ بن يارد بن مهللئيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبو البشر على وجه الأرض حسب التصوير التوراتي أيضا.

فهذا الإله الذي يقدسه العبرانيون والذي انتخبهم دون بقية أبناء آدم ليكونوا حملة رسالته ومخلب قوته على مدار التاريخ يمكن الإحاطة بقدر معقول عن ماهيته باقتباس فقرة أخرى من سفر التكوين أيضًا: "وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر والآن لعله

يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرقيّ جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة. " ٣، سفر التكوين، ٢٢ – ٢٣

فمن الواضح حسب الاقتباس الأول بشأن لغة أبناء آدم وفي الاقتباس الثاني الخاص بطرد آدم من الجنة بعد أن أكل من إحدى الشجرتين (المعرفة – الحياة ) من الواضح أن الإله يخشى أن يصير ابنه " آدم ونسله " من القوة بحيث لا يستطيع السيطرة عليهم ولذا وضع شجرة الحياة " شجرة الخلد " تحت حراسة مشددة بعد طرد آدم من الجنة فطريقها مكدس بالعقبات والحواجز المعدنية الصلبة " الكروبيم " وكذلك السيوف الملتهبة.

واتحاد لغة البشر كما في الاقتباس الأول من عناصر القوة التي يخشاها الإله في حال اجتماع البشر عليها ولذا نزل الإله وفرق بين آباء بني الإنسان في التأسيس الثاني – في زمن نوح عقب الطوفان – للحياة وذلك كله حسب التصوير التوراتي للتاريخ والحياة.

ولفتة أخرى من السياق المعاصر "على فكرة السياق التوراتي معاصر على الدوام في وعي أبناء إسرائيل" في حكومة باراك السابقة قال رئيس حركة شاس الدينية في إسرائيل أن وزير التربية يوسي ساريد رجل شرير ويجب محو ذاكرته وذلك لأنه سمح بتدريس قصيدة للشاعر محمود درويش في مقررات التربية الإسرائيلية. وقد كان!!، حيث التفّ الإسرائيليون حول شارون وانتزعوا ذاكرة الجميع ووضعوهم ثانية أمام الخيار التوراتي المقدس وهو أن الحرب يجب ألا تتوقف، وعلى شعب الله المختار أن يساعد إلهَهُ في توطيد مملكته عن طريق بلبلة البشر وزرع

الفتن والشرور بين جميع بني البشر حتى لا يتحدوا أمام مشيئة الإله.

والترجمة كما هو معروف من أفضل السبل لتواصل المعارف والثقافات وتلمس عناصر الوحدة والاشتراك بين جميع بني البشر وهذا لا يجوز في العقيدة التوراتية لأنه يصب في النهاية ضد مشيئة الإله.. والمنطق التاريخي للأمور يقول أن أفضل طريقة للتعامل مع هذا الوعي التوراتي هو تركه للعزلة حتى يتآكل فليس صحيحا أن ترجمة الأعمال العربية إلى لغة شعب الله العبرانيين سوف تجعل صورتنا واضحة أمامهم وسوف تمد جسور التواصل والمعرفة معهم، هذا خطأ لأن المعتقد " قدس أقداس الإسرائيليين " أنهم شعب الله الذين اختارهم وهو وحده يمدهم بكل ما يطلبون وليس لدى الآخرين " الأمميين " شيء نافع أو مفيد لهم والمبرر الوحيد لدى الإسرائيلي لمعرفة لغة الآخرين هو الوصول إلى مكامن ضعفهم وعوراتهم والنيل منهم لتحقيق مشيئة الرب.

# مواريث اليقين ومنابع العنف

يخطر لي أن أقر بضع إقرارات أراها لازمة لتوضيح مسلكي أمام بصيرة قارئي ومنها: أن الله العظيم الخالق القيوم أكبر وأعظم من أي إحاطات تتكئ على لغة الكلام.. وأعتقده أعظم من كل نص وأكبر من إمكانيات الكلام وهذا في مبتدأ الوعي الإنساني وحتى نهايتة وعلى الدوام.

حياة البشر في التاريخ حسب ما أتيح للوعي الإنساني أن يصل إليها مرت حتى الآن بأربع مراحل أولها الاعتماد على اليقين الأسطوري لفهم واستيعاب طبيعة المخلوقات والحكمة من خلقها ثم كانت المرحلة التالية والتي قامت على اليقين الديني المعتمد على خطاب السماء لأهل الأرض ثم نهضة العقل ومحاولة الإحاطة بالكليات وأصول الخلق وغايته عبر التأمل والتبصر والحكمة فيما عرف بالفلسفة ثم أخيرا قيام العلم التجريبي بمهمة فهم العالم وطبيعة الخلائق والتعامل معها، هذا وإن بقيت بعض التأثيرات غير المركزية في سيرورة الوعي تستمد مقوماتها من المرحلة السابقة والمرحلة الأسبق بدرجة أقل على خريطة الوعي البشري بامتداد الأرض الإنسانية.

أحفاد إسرائيل هم أبناؤه الإثناعشر والذين تناسلوا في أرض مصر وأنجبوا أمة عُرفت فيما بعد ببني إسرائيل خرج بهم نبيهم موسى من مصر بعد أربعمائة سنة صوب أرض تواترت النصوص المقدسة في العهدين القديم والجديد والقرآن على أن الله وعدهم بها وكتبها لهم وظلت تلك الأمة تتواتر حتى الآن.

حفدة إسماعيل من الخطأ اعتبارهم والنظر إليهم على أنهم هم العرب فقط وذلك لاعتبارين: الأول إن إسماعيل نفسه لم يكن عربيًا فأبوه إبراهيم نزح من أرض العراق " أور الكلدانيين " صوب أرض الكنعانيين فلسطين) وأمه سيدة مصرية تكرم عليه بها ملك مصر ضمن مكرمة كبيرة، وشيعه بها بعد ما اكتشف أمره وأن إسماعيل عليه السلام وإنْ يكن اتخذ من قبيلة جرهم نسبًا له إلا إن أمه اتخذت له من قبل زوجة مصرية أيضًا وأنجب إسماعيل حسب روايات التوراة ( العهد القديم ) اثناعشر ولدًا كما جاء في سفر التكوين " وهذه أسماء بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم: نبايوت بكر إسماعيل وقيدار وأربئيل ومبسام ومشماع ودومة ومسا وقيدار وتيما ويطور ونافيش وقدمه. هؤلاء بنو إسماعيل وهذه أسماؤهم بديارهم وحصونهم اثنا عشر رئيسًا حسب قبائلهم. وهذه سنو حياة إسماعيل مائة وسبع وثلاثون سنة وأسلم روحه ومات وانضم إلى قومه وسكنوا من حويلة إلى أشور التي أمام مصر حينما تجيء نحو أشور أمام جميع أخوته نزل ". وهذا الاعتبار الأول. أما الاعتبار الآخر والذي أراه أكثر وجاهة أن إسماعيل وإن كان ابن إبراهيم إلا إن اليهود لا يعدونه عبرانيًا لأن أمه ليستْ عبرانية ولا يعدونه من أنبيائهم ولم يأخذوا عنه شيئًا من التعاليم وفي المقابل نجده جد الرسول محمد عليه السلام رفع مع أبيه قواعد أول بيت لله وضع للناس في الأرض.. وأن الأمة في الإسلام لا تقوم على عِرق كما اليهود بل تقوم على الرسالة ولذا يكون من المناسب والأوفق والحال كذلك أن نعتبر كل المسلمين من عهد محمد عليه السلام وحتى الآن هم حفدة إسماعيل.

وفيما يتعلق بدور أحفاد إسرائيل في تاريخ البشرية تختلف الرؤى وتتعارض في أحيان كثيرة مصطبغة بالموروث والرؤى التاريخية والتي لم تكن محل اتفاق أبدًا.

إذا كان هناك صراع بين أحفاد إسرائيل وبين أمة أخرى فالأكيد حسب معتقدات الإسرائيليين وحسب الحصاد التاريخي أن الأمة المرشحة لهذا الصراع هي أمة المسلمين وليست أمة العرب والفرق بينهما كبير.. فالعرب وحسب التاريخ كانوا يتعايشون سلميًا كأروع ما يكون مع الإسرائيليين في بلاد العرب وخصوصًا يثرب كما أن العرب وزعيمهم أبي سفيان تحالفوا مع الإسرائيليين في حصار المسلمين في يثرب ومن الوجهة الحضارية لا أجد أمة مرشحة للتوافق مع بني إسرائيل أكثر من العرب وخصوصًا إذا نظرنا للمواريث الحضارية للأمم المجاورة على تلك البقعة من شرق المتوسط فبين العرب وبني إسرائيل وخصوصًا قبل الإسلام قواسم حضارية مشتركة أهمها إن كليهما لا يمتلك من صيغ الحضارة سوى النص القائم على اللغة كما أنهم يتخذون من التجارة والرعي سببًا للعيش بينما تمتلك الأمم المجاورة شرقًا وغربًا صيغًا وأسبابًا أخرى.. وقد جاء الإسلام طارحًا نصًا جديدًا ينسف احتكار الإسرائيليين للوعي الديني وينال من مكانة الشعر والشعراء لدى العرب.. ولذا يمكننا فهم واستيعاب هذا النفي المتواصل والحاسم بأن يكون القرآن شعرًا أو أن يكون الرسول شاعرًا ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ يس.

أعنف مواريث اليقين ذلك الذي يقوم على الدين وخصوصًا الجانب الغيبي منه إذ لابد أن تكون كل قناعة مطلقة ويبدو البشر أمامه صنفين لا غير إما مصدق أو مكذب مؤمن أو كافر ولا قناعة نسبية أمام ما يطرحه.

ندخل إلى تفصيل مواريث العنف بين الإسرائيليين والمسلمين ( حفدة إسماعيل ) وأول ما يقع عليه الوعي في هذا السياق التصور الخاص للإله، فصورة الإله في أسفار العهد القديم تنتناقض كلية مع صورته في القرآن

الكريم كتاب حفدة إسماعيل.. ولعل الحوار المدهش بين أبي بكر الصديق وبين فينحاص ( أحد اليهود بيثرب بعد الهجرة إليها بوقت قصير )؛ لعله يلخص التصور الإسرائيلي عن الإله كأبلغ ما يكون يقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد " وبلغ الجدال بين اليهود والمسلمين حدًا كان يصل أحيانًا مع ما كان بينهم من عهد إلى اعتداء بالأيدي وحسبك لتقدر هذا أن تعلم أن أبا بكر على ما كان عليه من دماثة الخلق وطول الأناة ولين الطبع تحدث إلى يهودي يدعى فينحاص يدعوه إلى الإسلام؛ فرد فينحاص بقوله: " والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا. وإنا عنه أغنياء وما هو عنا بغني ولو كان غنيًا عنا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم. ينهاكم عن الربا ويعطيناه ولو كان عنا غنيًا ما أعطانا " وفنحاص يشير هنا إلى قول القرآن ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ ٢٤٥ البقرة، فالإله لدى العبرانيين وخصوصًا بني إسرائيل هو إله خاص بهم وليست له وصاية أو قيومية على أمم أخرى وقد انتخب هذا الشعب ليكون إلهًا عليهم وبذا فالإسرائيليون هم شعب الله الذي اختاره. وإله بهذه المواصفات انسحبت ملامح صورته على العهود السابقة على نبيه إسرائيل منذ بدء الخلق حيث خلق الكون المعروف وغير المعروف في أيام ستة وتعطل عن العمل في اليوم السابع فأتخذه بنوه عيدًا لهم وحرموا العمل فيه. والإنسان في هذا التصور هو ابن الله على صورته خلقه بينما المرأة ليست من الإنسان بل هي بنت الناس وبعد ما خلق إله العبرانيين الإنسان ( آدم ) وزوجته خشي منه وخصوصًا بعدما أكل من شجرة المعرفة فانكشف عنه غطاؤه وصار عارفًا بما حوله فبادر الرب بطرده من الجنة حتى لا يأكل من الشجرة الأخرى والتي هي أصل الخلود ومن أكل منها صار سرمديًا لا يموت ولذا يجيء النص في سفر التكوين

كالآتي " وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفًا الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضًا ويأكل ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التي أخذ منها. فطرد الإنسان وأقام شرق جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة. " فمن الواضح أن إلهًا بهذه الصورة يخشى من قدرة الإنسان على منافسته والنيل منه من الواضح إنه يتعارض كليًا مع صورة الإله لدى المسلمين ويكفيك تذكر سورة الإخلاص في القرآن الكريم "... ولم يكن له كفوًا أحد " أو آية الكرسي في سورة البقرة ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾ ﴾ . وضع ذلك في مقابل تلك " وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وُولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا. فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مائة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضًا إذا دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادًا. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. من ١ إلى ٧ الإصحاح ٦ التكوين. وكان ذلك مبررًا لتدمير البشرية بالطوفان أيام نبيه نوح وقبل قدوم الإسرائيليين. ولك أن تلاحظ أن الإله يندم ويتأسف ويحزن على أنه عمل الإنسان. وبعد أن اختارهم شعبًا له منذ النبي إبراهيم وخصص لهم

أرضًا سيمكنهم منها بعد حوالي ٦٠٠ عام على يد نبيهم يوشع بن نون فتى النبي موسى الذي خرج بهم من مصر عقب ٤٠٠ سنة من الحياة في أرض المصريين.. يقول لهم إلههم في زمن نبيهم يوشع بن نون " وأعطيتكم أرضًا لم تتعبوا عليها ومدنًا لم تبنوها وتسكنون بها ومن كروم وزيتون لم تغرسوها تأكلون " ١٣ سفر يوشع ٢٣.

فمن المفهوم في سياق كهذا أن للعالم آلهة عديدة إلا إن إله إسرائيل يغار ويغضب عندما يتركه شعبه ويعبدون آلهة الشعوب الأخرى فيتخلى عنهم ويتركهم نهبًا لتلك الشعوب " وعادوا بنو إسرائيل يعملون الشر في عين الرب وعبدوا البعليم والعشتاروت وآلهة آرام وآلهة صيدون وآلهة مؤاب وآلهة بني عمون وآلهة الفلسطينيين" ٦ قضاة ١٠.

وهذا نفسه ما يشير إليه القرآن حيث هناك عهد بينهم وبين الله الذي يظل وفاؤه للعهد معهم بالتزامهم هم بالعهد فعلام عاهدهم الله؟ وعلام عاهدوه؟ ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ البقرة، ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ البقرة، وإذا تتبعنا السياق سنجد أن بني إسرائيل ورد ثلاثا وأربعين مرة في القرآن كلها في مقام التذكير بالعهد والتوبيخ على الإخلال به هذا بالإضافة إلى المواضع التي ورد فيها ذكر اليهود عن طريق نبيهم موسى أو يا أيها الذين هادوا أو اليهود: ﴿ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَعَلَ فِيكُمۡ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكٗا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمۡ يُؤۡتِ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَارِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ المائدة.

فإذا كان لنا أن نجتهد في مسألة فالأولى أن ننصرف نحو تحديد طبيعة ذلك العهد بين الإسرائيليين وربهم والذي أراه بعد تقصي الكثير

من آيات القرآن وما ورد في أسفار العهد القديم أراه لا يخرج عن إلزامهم بعبادته والإخلاص لتعاليمه في مقابل رعايته لهم وجعلهم فوق الأمم المجاورة يسودون عليهم ويرثون أرضهم.. ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾ البقرة ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ ﴾ المائدة.

بل إن إله الإسرائيليين وضع لهم حدًا كعلامة فاصلة تبين الالتزام بالعهد والقيام عليه وهي " يختتن منكم كل ذكر. فتختتنون في لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بيني وبينكم ". ١٠، ١١ تكوين ١٧ وأما العهد فهو " أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبًا لجمهور من الأمم. فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم. لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم. وأثمرك كثيرًا جدًا وأجعلك أممًا. وملوك منك يخرجون وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدًا أبديًا. " من ٤ إلى ٧ تكوين ١٦

وفي هذا السياق وبخصوص علامة العهد التي هي الختان حيث يقوم الإسرائيلي الملتزم بالعهد باقتطاع جزء من جسده " لحم غرلته " حشفة العضو الذكري كدليل على الوفاء بالعهد بخصوص ذلك يذكر علماء الآثار والحضارة ومنهم جيمس بريستد إن عادة الختان كانت موجودة عند قدماء

المصريين قبل الميلاد بأكثر من خمسة وعشرين قرنًا ومن المعروف أن إبراهيم نزل إلى مصر وعاش فيها مدة في القرن السابع عشر قبل الميلاد تقريبًا كما أن نسل إسرائيل بأكمله تغرب في أرض المصريين أربعة قرون قبل خروجهم صوب أرضهم الموعودة.

إن البحث عن طبيعة الدور الإسرائيلي في حياة البشرية يتطلب إلمامًا بسياقات كثيرة منها الأدب العبراني وكتب الإسرائيليين المقدسة وكذلك القرآن ونتاجات أبحاث علماء الآثار والحضارة ومن المدهش أن تطالعك تلك اللغة المثيرة في القرآن ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ البقرة

فمن المعروف من خلال القرآن وأسفار اليهود وحتى زمن النبي موسى لم يكن الإسرائيليون أو العبرانيون قد قتلوا أحدًا من الأنبياء فالأنبياء ومنذ إبراهيم وحتى موسى متواترون لم يقتل منهم أحد إنما القتل قد حدث بعد ذلك في أزمنة لاحقة بعد استقرارهم في أرض الفلسطينيين بعد الخروج من مصر والأنبياء المتواترون في القرآن والعهد القديم لتلك الفترة هم إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف ثم موسى ولم يقتل منهم أحد فكيف يذكر السياق القرآني في الآيات السابقة " ويقتلون الأنبياء "!؟ ربما يحتاج الأمر فهما آخر ومن المنظور الإيماني الحق إلى فهم حقائق الرسالات المنوطة بكل ما خلق الله من كائنات وأجناس وخصوصًا إذا تذكرنا أن بني إسرائيل من أكثر الأمم التي تجاوزت التشريعات السماوية

وأن الخالق حسب النص القرآني قد حرفهم في إحدى عقوباته لهم عن طبيعتهم الإنسية فجعل منهم القردة والخنازير وذلك عندما اصطادوا السمك في عطلة السبت!!

ومن أكثر المفاهيم إثارة للعنف بين أحفاد إسرائيل وحفدة إسماعيل في الموروث المقدس إضافة إلى فهم طبيعة الإله وحقيقته هناك قصة الخلق قصة بيوت الله في الأرض ما بين أرض الفلسطينيين في الشام وأرض العرب في الجزيرة.

وربما يكون من الملائم أن أختم هذه اللفتة بقول جيمس هنري بريستد في كتابه فجر الضمير والذي انتهى من وضعه عام ١٩٣٣ قبل أن يكون للإسرائيليين دولة معاصرة على أرض الفلسطينيين مرة أخرى!! يقول بريستد " كان ظهور العبرانيين لأول مرة في ميدان التاريخ في خطابات تل العمارنة التي يرجع تاريخ أقدمها إلى ما بعد سنة ١٤٠٠ " ألف وأربعمائة " قبل الميلاد بقليل أي في عهد يسبق بكثير أي أدب عبراني وصل إلينا وهذه الخطابات المسمارية تكشف لنا عن وجود جماعات من العبرانيين الرحل كانوا ينزحون إلى فلسطين التي كانت وقتئذ تحت سيطرة مصر حيث كانوا يدخلون هناك في سلك الجنود المرتزقة ولا نعرف من شأنهم بعد ذلك شيئًا مدة قرنين من الزمان إلى أن كان وقت ذلك الأثر المصري الذي أقامه في طيبة " الأقصر " مر نبتاح بن رعمسيس الثاني قبل ١٢٠٠ سنة قبل الميلاد بنحو عشر أو عشرين سنة فقد حفظت لنا فيه أنشودة نصر نجد فيها ذلك الملك يفتخر بقوله " وإسرائيل قد دمرت وبذرتها محيت " وقد كان ذلك الحادث في عهد القضاة حسب التصور التوراتي .

وهذا الاقتباس السابق يلقى بإضاءات في غاية الخطورة حول مصداقية

الأحداث والوقائع التي فصَّلها العهد القديم " التوراة " حيث يتطلب الأمر إعادة فتح قضايا الإيمان وبحث الإنسان عن خالقه وإقرار مبادئ في هذا الشأن بدأت قوية ومتماسكة منذ ثلاثين قرنًا قبل الميلاد وكذلك إذا تصورنا وجود هذه الأمة – العبرانيين – الإسرائيليين – داخل نطاق حضاري خصب يمتد من بلاد الرافدين شمالًا وحتى جنوب مصر.

ويعود بريستد ليقرر في موضع آ خر من كتابه " ومن الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث العظيم قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيًا منزوٍ في الركن الجنوبي الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط فإن الشعب " شعب إسرائيل " لم يقم له نظام قومي خاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ قبل الميلاد ولم يبق أمة موحدة إلا نحو قرن واحد على أكبر تقدير، وعلى أثر انحلال تلك الدولة الصغيرة نجد أن الجزأين اللذين قاما على تراثها ظلا يكافحان البقاء، فاستمر أحدهما مدة قرنين تقريبا وأما الجزء الآخر فإنه مكث مدة قرن وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها في حياة قلقة شبه مستقلة تداولته فيها أيدي ممالك الشرق العظيمة قديمًا وقد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ٦٠٠ قبل الميلاد بزمن قليل. بذلك تكون حياة العبرانيين القدامى القومية المستقلة – أو حياة جزء منهم – والتي بدأت لأقل من ثلاثين عاما قبل عام ١٠٠٠ قبل الميلاد قد مكثت حوالي أربعة قرون وربع القرن وختمت في باكورة القرن السادس قبل الميلاد أي أن هذا العهد من الحياة العبرانية القومية قد وقع بأكمله تقريبًا في النصف الأول من ألف السنة الأخيرة قبل الميلاد المسيحي. وفي تلك الفترة كان تقدم الثقافة في مصر وفي بابل قد نضب معينه وصار من أخبار التاريخ القديم.

# ضد البداوة
# يحيى / يسوع
# أنتي شاسو

قال يوحنا بن زكريا وهو يبارك أبناء الشعب على بحيرة طبريا على مقربة من الجليل والناصرة: "يا أولاد الأفاعي مَنْ أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. فاصنعوا أثمارًا تليق بالتوبة. ولا تبتدئوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبًا. لأني أقول لكم إن الله قادرٌ أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم. والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجرة. فكل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا تقطع وتلقى في النار" (٧-٩ لوقا ٣)

- وقال يسوع المسيح – عيسى بن مريم – مخاطبًا نفس الأبناء من شعب اليهود: " أنا عالم أنكم ذرية إبراهيم. لكنكم تطلبون أن تقتلوني لأن كلامي لا موضع له فيكم. أنا أتكلم بما رأيت عند أبي. وأنتم تعلمون ما رأيتم عند أبيكم. أجابوا وقالوا له أبونا هو إبراهيم. قال لهم يسوع لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم. ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. هذا لم يعمله إبراهيم. أنتم تعملون أعمال أبيكم. فقالوا له إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحد هو الله. فقال لهم يسوع لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني لأني خرجت من قِبَل الله وأتيت، لأني لم آت من نفسي؛ بل ذاك أرسلني. لماذا لا تفهمون كلامي. لأنكم لا تقدرون أن تسمعوا قولي. أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتـّالًا للناس من البدء

ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق. متى تكلم بالكذب فإنما يتكلم مما له لأنه كذاب وأبو الكذاب." (٣٧-٤٤ يوحنا ٨)

- ومن بعد ذلك قال محمد بن عبد الله مبلـّغًا عن ربه في قرآنه: ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) ﴾ المائدة.

- وكـان من قبل وفي نفـس هذه السـورة قد خاطبه ربه قائلا: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) ﴾ المائدة.

- وقبل كل هذا الجذر السماوي المقدس في ديانات البشر وعقائدهم المقدسة وقبل زمان داود مباشرة كلـّم الرب نبيه صموئيل قائلًا: "ندمت على أن جعلت شاول ملكا لأنه رجع من ورائي ولم يُقم كلامي فاغتاظ صموئيل وصرخ إلى الرب الليل كله" (١٠ صموئيل الأول ١٥ العهد القديم)

- وكان صموئيل قد قال للشعب في إصحاح سابق: "لا تخافوا إنكم قد فعلتم كل هذا الشر ولكن لا تحيدوا عن الرب بل اعبدوا الرب بكل قلوبكم ولا تحيدوا لأن ذلك وراء الأباطيل التي لا تفيد ولا تنقذ لأنها باطلة. لأنه لا يترك الرب شعبه من أجل اسمه العظيم لأنه قد شاء الرب أن يجعلكم له شعبًا" (٢١-٢٢ صموئيل الأول ١٢).

- وكان ذلك الرب قد أمر النبي صموئيل في نفس السفر قائلًا: "اسمع لصوت الشعب في كل ما يقولون ذلك لأنهم لم يرفضوك أنت بل إياي رفضوا حتى لا أملك عليهم. حسب كل أعمالهم التي عملوا من يوم أصعدتهم من مصر إلى هذا اليوم وتركوني وعبدوا آلهة أخرى هكذا هم عاملون بك أيضًا" (٧-٨ صموئيل الأول ٨)

- وسبق لهذا الرب نفسه أن كلـّم موسى من قبل آمرًا: "ادخل قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بني إسرائيل من أرضه فتكلم موسى أمام الرب قائلا هو ذا بنو إسرائيل لم يسمعوا إليّ فكيف يسمعني فرعون وأنا أغلف الشفتين فكلم الرب موسى وهارون وأوصى معهما إلى بني إسرائيل وإلى فرعون ملك مصر في إخراج بني إسرائيل من أرض مصر" (١٠-١٣ خروج٦ العهد القديم)

- وقبل كل ذلك لما كان أبو هذا الجذر السماوي المقدس إبراهيم وأيام كان اسمه إبرام قبل أن يأخذه النعاس فيرى في المنام أنه يصير أبًا لجمهور كبير من الأمم وعليه أن يغير اسمه إلى إبراهيم – وأنا أجزم بأن عادة تغيير الأسماء لدى أنبياء بني إسرائيل وربطها بالمعنى هي تأثر إسرائيليّ بطريقة المصريين في إطلاق الأسماء على أبنائهم بحسب الأعمال المنذورين لها وذلك بعد أن اتصل إبراهيم بالمصريين وعاش بينهم قرابة سبع سنوات – قبل ذلك كان أبو هذا الجذر قد "اجتاز في الأرض إلى مكان شكيم إلى بلوطة مورة. وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض وظهر الرب لإبرام وقال لنسلك أعطي هذه الأرض فبنى هناك مذبحًا للرب الذي ظهر له" (٦-٨ تكوين١٢ العهد القديم)

من كل ما سبق واستطال من نصوص أوردناها يمكننا القول بأن إسرائيل الذي هو بالأساس حفيد لإبراهيم أصبح شعبا مباركا اصطفاه

الله ليحمل رسالته إلى بقية أجناس الأرض من الذين لا يرقون إلى تلك المنزلة – منزلة حمل الرسالة – وهذا ما عرف في التاريخ بشعب الله المختار من نسل سام بن نوح وأن كل من يرى غير ذلك فهو عدو لهذا الشعب ومن هنا صارت معاداة السامية جريمة تعاقب عليها حكومات الغرب – هذا الغرب الذي تلقف هذا الجذر المقدس على أيدي تلاميذ عيسى بن مريم منذ القرن الأول لميلاده من أمثال بطرس وفيليبوس واستمر هذا الجذر في النمو والتكريس والتكريز في تلك البلاد حتى الآن مما دفع مفكرًا من طراز جيمس بريستد أن يقرر منذ قرن مضى بأن: "من الحقائق المدهشة أن يكون ذلك الإرث الخلقي العظيم قد وصل إلى المدنية الغربية من شعب خامل الذكر سياسيًا منزوٍ في الركن الجنوبي الشرقي من حوض البحر الأبيض المتوسط". ولك أن تعلم أن الإرث الخلقي العظيم في كلام بريستد يقصد به ديانات الشرق – غير السماوية طبعًا – وأن الشعب الخامل سياسيا هو إسرائيل وأن الحقيقة التاريخية لهذا الشعب بعيدًا عن تهاويل النصوص المقدسة يلخصها بريستد في قوله: "إن هذا الشعب لم يقم له نظام قومي خاص به إلا منذ العشر أو العشرين سنة السابقة لعام ١٠٠٠ قبل الميلاد ولم يبق أمة موحدة إلا نحو قرن واحد على أكبر تقدير وعلى إثر انحلال تلك الدولة الصغيرة نجد أن الجزأين اللذين قاما على تراثها – يهوذا والسامرة – ظلا يكافحان البقاء، فاستمر أحدهما – السامرة – مدة قرنين تقريبًا وأما الجزء الآخر – يهوذا – فإنه مكث قرن وربع قرن من سقوط الجزء الأول قضاها في حياة قلقة شبه مستقلة تداولته فيها أيدي ممالك الشرق العظيمة قديما وقد حاق به كذلك الفناء التام بعد سنة ٦٠٠ قبل الميلاد بزمن قليل، وبذلك تكون حياة هذا الشعب المستقلة قد مكثت حوالي أربعة قرون على أكثر تقدير.

وما يعنينا في المقام الأول أن نقرر بأن زعمًا كهذا – شعب الله المختار

– لا يعدو كونه رؤية صادرة عن وعي قبيلة معينة من بني البشر؛ هذا الوعي صاغته علاقة هذه القبيلة التي هي إسرائيل بالتاريخ وأحداث الزمان من حولها، وهذا المفهوم عن الذات والوجود هو حزمة من الأساطير والأحاديث تصوِّر علاقة الإنسان بالغيب وتقدم تصوره عن نفسه وعن الوجود والحيوات السابقة واللاحقة لوجود الفرد في الحياة الدنيا – هذا التصور الذي يسميه "بريستد" إرثًا خلقيًا عظيمًا بعد أن اتصل بكل الرؤى والتصورات التي سادت في المنطقة من بلاد ما بين الرافدين وحتى أرض مصر فهو يقول: " لا شك في أن مثل نظام عطلة يوم السبت قد دب إلى الحياة الفلسطينية – قبل أن يدب في حياة شعب الله المختار – عن طريق مثل هذه الاتصالات العملية التي كانت تستند عليها المعاملات التجارية حسب التقويم المتبع فيما يختص بالأيام المقدسة التي لا يجري فيها بيع ولا شراء ولا بد أن مثل هذه الحال هي ما كان يسير عليه التجار الفلسطينيون حينما كانوا يتعاملون مع التجار البابليين.

ولا شك كذلك فيما أرى أن مفاهيم إسرائيل عن الإنسان والوجود كان يقابلها الكثير من المفاهيم والتصورات لقبائل وشعوب أخرى سابقة على هذا الشعب؛ لكن ما تميز به التصور الإسرائيلي أنه ابتلع كثيرا من تصورات المنطقة وأعاد إنتاجها على مر سنوات طويلة زادت على سبعة قرون بعضها في أرض الرافدين وبعضها في أرض الكنعانيين ومعظمها في أرض مصر؛ أعاد إنتاج تراث هذه الشعوب واضعا لنفسه مكانة مركزية تعلو فوق مكانة الإله ذاته لأنه "لا يترك الرب شعبه من أجل اسمه العظيم» ولأنه "قد شاء الرب أن يجعلهم له شعبًا".

ولا شك لدي في أن قتل يوحنا بن زكريا ويسوع ابن الرب وغيرهما من الأنبياء والرائين من الرجال الصالحين والملهمين بنفاذ البصيرة وسلامة الحس؛ لا شك أن قتلهم كان بسبب تطاولهم وجرأتهم في سحب هذا

التميز والاصطفاء من بني إسرائيل، قـُتل يوحنا بسبب قوله: إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادًا لإبراهيم، وقـُتل عيسى أو "شـُبِّه لهم" بسبب قوله: لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم – الذي هو إبليس – تريدون أن تعملوا. وهكذا بدأت معاقبة المعادين للسامية والمحاربين للبداوة واحتكار الجذر الإبراهيمي المقدس.

وللحق أعترف بأنني لم أجد أسطع ولا أجرأ أو أحكم مما قاله يوحنا وعيسى في نقض فكر الاصطفاء المستند على الجذر المقدس الذي هو إبراهيم والذي شاء التجلي المقدس الأخير وفي إطلالته الأحدث والمثيرة بجزيرة العرب مع بداية القرن السابع من ميلاد عيسى – شاء هذا التجلي أن يمدّ النسل المقدس الجديد بالجذر المقدس الذي طوّح خطواته في جزيرة العرب صوب مكة ليقيم فيها بيتًا آخر لله غير الذي أقامه من قبل عندما أفاق من نعاسه في شكيم عند بلـّوطة مورة، أقام بيتًا آخر في قلب صحراء العرب وترك أحد أبنائه يرعى الامتداد الجديد للمقدس السماوي وسط قبائل البدو – الشاسو – ليثمر بعد ذلك فيما امتد من نسل سبأ بن عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان أو في نسل قصي بن كلاب بن مرة من ولد عدنان، ليثمر دينًا جديدًا هو امتداد وإكمال لما سبق من رسالات سماوية تعود إلى الجذر الأساس الذي هو إبراهيم.

ولنا أن نتصوّر مدى العنف والاضطراب الناشئ عن شعب يقدس أفكارًا ومزاعم لا وجود لها في حقيقة الواقع، فالأوطان تنشأ عن التوطن في أرضٍ ما وإقامة علاقة بها في شكل آثار إنسانية على مدار الزمن تتبعها تصوّرات وأفكار ونظم أخلاقية واجتماعية وضوابط تحكم السلوك الجماعي وغيرها من أشكال النظم الاجتماعية والسياسية؛ هذا إذا كان هناك شعب تواصلت أجياله على رقعة ما من الأرض، أما إذا كان الوطن

مجرد وعد يزعم الموعودون به أنه من ربهم وأبيهم الذي تألّـه عليهم واختارهم شعبًا له وخلق لهم أرضًا وكتبها وأشهرها في سجل عقارات الوجود على مرأى ومسمع من كل البشر وعلى طول الأزمان في الجذر المقدس من ديانات البشر السماوية، فعندما تكون الأرض ملكٌ لإله السماء والأرض – في التصور الإسلامي – فهو حرٌ في توريثها لمن يشاء ولا عجب أن يكون إبراهيم – الذي هو جزء من قبيلة على ضفاف الرافدين ثم نزح صوب فلسطين – لا عجب أن يكون هو المصطفى الذي أورثه أبوه وإله شعبه القادم من صلبه هذه الأرض وعلى هذا الشعب من نسل إبراهيم أن يتغربوا أربعمائة سنة في أرض المصريين قبل أن يباشروا حقوق التوريث والملكية في الأرض الجديدة عندما يخرجون من مصر وقد صار عددهم ستمائة ألف مقاتل عدا النساء والشيوخ والأطفال، أليس هذا هو الرب الإله الذي ظهر لأبرام قائلًا: "اعلم أن نسلك سيكون غريبًا في أرض ويستعبدون لهم فيذلونهم أربع مئة سنة ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة... في ذلك اليوم قطع الربّ مع إبرام ميثاقًا قائلًا: لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات. القينيين القنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين»

أليس هذا الربّ هو نفسه الذي أوحى لمحمد بن عبد الله في قرآنه بعد خمسة وعشرين قرنًا تقريبًا من ذلك الوعد، أليس هو نفس الرب الذي أوحى إلى نبيه الجديد في جزيرة العرب قائلًا: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

. وأليس هذا هو الشعب الذي خرج وراء نبي هو موسى ومعه ست مئة ألف مقاتل، أليس هو الشعب الذي ردّ على موسى قائلًا: "إنا لن ندخلها أبدًا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون"، ألم يكن صموئيل النبي محقًا بعد ذلك عندما صارح شعبه بأن الرب لا يحتمل الوجود دونهم؟!!

ومسألة توريث الأرض للناس من قِبل الرب وردت في القرآن الذي هو خاتمة الجذر الإبراهيمي المقدس في ديانات السماء للبشر، هذه المسألة وردت في القرآن في ثمانية مواضع منها أربعة صريحة في توريث الأرض لبني إسرائيل من مثل ﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ ﴾ الشعراء

ومن مثل ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ الأعراف
هذا ناهيك عن توريث الكتاب والحكمة والجنة مع العلم بأن الكتابة والتسجيل والإشهار كانت في دفتر الوجود الإلهي بصيغة "كتب" التي تستخدم في الفروض من العبادات مثل الصوم والصلاة.

إن الإيمان بجذر ديني كهذا كفيل بجعل العالم ينضح بالحروب ويضج بالفتن والخراب أبد الدهر؛ ليس بين الشعوب والأمم والقبائل المختلفة فحسب بل داخل القبيلة والشعب الواحد وعليك أن تنظر في أمر القتال والدم المهراق بعد موت داود وانقسام مملكته أو حتى في آخر أيامه داخل عشيرة إسرائيل ذاتها، وكذلك الحروب الطويلة التي أكلت قبائل العرب وعشائرهم وغيرهم من أمم العجم عقب وفاة رسول الإسلام ومؤسس دولته في عمق الجزيرة وما جاورها في الشام وفارس؛ حتى أن المؤسسين

أنفسهم لم يسلموا من القتل والاغتيال والمكيدة بعضهم لبعض طوال حقب متواصلة ما زال صداها يهب حتى الآن من لحظة إلى أخرى بين أتباع المذاهب المختلفة داخل الديانة الواحدة.

إن الاعتقاد بهذا الجذر المقدس كفيل بأن ينتزع من العالم أمنه وسلامه وتآخيه المأمول، ولم لا وهو لم يرحم عشرة شعوب كاملة عددهم في أول أسفاره في العهد القديم، عشرة شعوب كاملة من بينهم الكنعانيون لم يرحمهم و"كتب" عليهم الإبادة والتشريد ليقوم مقامهم أبناء الرب وحاملو مجده وذكره بين الأمم على مر العصور. هذا في حين أن صورة الواقع وحقائقه المتجلية على مرّ الزمن تنبئ بغير ذلك على طول الخط حيث لم يحفظ التاريخ لنسل هذا الشعب والمؤمنين بالجذر الإبراهيمي المقدس، لم يحفظ لهم شيئًا من أرصدة الحضارة في الفكر أو في العمران ناهيك عن صورتهم في الواقع المعاش بامتداد اللحظة الراهنة.

ولك أن تعلم أنه ومنذ طرأت على الوجود رحى الحروب المقدسة في سبيل هذا الرب، منذ طرأت هذه النوعية من الحروب بمبادرة من نسل الجذر الإبراهيمي المقدس عقب نما وترعرع وتكاثر على مدار أربعة قرون في أرض مصر ثم زحف ناحية الغرب صوب فلسطين وبقية الشعوب المجاورة ودخل معها في حروب دينية مقدسة باسم الأب والرب، منذ عرف التاريخ هذه النوعية من الحروب تضاعف عدد الضحايا والفتك وأساليب الغدر والدمار وعُرفت الإبادة الجماعية والتدمير الشامل الذي لا يترك حيًا أو جمادًا إلا حطمه وعليك أن تتأمل بنية المعتقد في الحرب الدينية فالمقتول الذي سُلبت أمواله وانتهكت حرماته وسُبيت نساؤه كافرٌ ومصيره نار جهنم وجحيم خالد بينما القاتل والسالب والناهب والسابي له ما يشاء من المُتع وإن قـُتل فهو شهيد له أضعاف مضاعفة من نعيم الجنة في معيّة أبيه وربه له ما يشتهي من متع الخلود ومرح الغرائز.

وبهذا الجذر المقدس استمدت الحروب طاقة جديدة ودوافع أكثر إغراءً وضمنت حطبًا لا ينتهي من ذوات بشرية على مدار الأبد ومَدَدًا خصبًا من الحمية والدوافع التي تستلهم مغرياتها من عالم الشهادة بما فيه من مغانم وأسلاب ومتع حسيّة ظاهرة وكذلك من عالم الغيب حيث معية الشهداء والقدّيسين مع خالقهم وأبيهم في خلود ونعيم وملك لا يبلى حيث ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

## هل العرب شعب أم قبائل؟

عرف الناس أشكالًا عدة للحضور الجماعي لبني الإنسان وصل ذروته وقمة نضجه مع بداية الثورة الصناعية وانتهاء العصور الوسطى في أوروبا.. تلك العصور التي تميزت بتغلغل سلطان الكنيسة ورجال الدين في كل أمور الحياة حتى أنهم قتلوا أحد علمائهم – جاليليو جاليلي – الذي ذهب إلى أن الأرض تدور حول الشمس لأن ذلك يناقض المعتقد الديني حسب ما يفهمون..

وبانتهاء تلك الحقبة من تاريخ البشرية بزغت فكرة الدولة وظهر مفهوم جديد للحضور الجماعي لبني البشر على رقعة التاريخ.. هذا المفهوم الذي يحقق التضامن والتكافل والخضوع لنظم اجتماعية وسياسية واحدة دونما الاشتراك في ملة واحدة أو عرف واحد أو حتى لغة واحدة يتحدثون بها.. هذا الانخراط الذي يتم طواعية وفق العهد المدني بين الحاكم والمحكومين.

و قبل الوصول إلى مرحلة الدولة هذه والتي لم تتحقق أبعادها بعد في نطاق الناطقين بالعربية نظرًا لاستمرار نفوذ نظم سابقة بعضها قبلي وبعضها شعوبي والآخر منها أممي.. نعم فما زالت التجمعات الناطقة بالعربية تعيش وفق مفاهيم القبيلة أو الشعب أو الأمة على الرغم من أن كل النظم الرسمية يصدح إعلامها صباح مساء مكرسًا في مناهج التعليم والإعلام والهياكل المؤسسية التي تصدح صباح مساء معلنة أننا نعيش عصر الدولة وعصر المؤسسات ولكن للأسف دونما عهد اجتماعي.. نعم

هناك دولة وليس هناك مواطنون.. هناك دولة وليس هناك دساتير.. هناك دولة تأبدت في ركاب حاكمها وعلى الجميع الطاعة طواعية أو كراهة.. هناك دولة ولا رأي للخاضعين لسلطانها في أي من أمورها.. في الحقيقة هذه تركيبة معكوسة ومغلوطة ومزيفة.. فليست هناك دول ولا يحزنون. إنما المتاح هو خليط من الشعوبية والأمية والقبائلية، لكن المسيطرون على مقادير العالم حضاريًا مصممون على مفهوم الدولة وضرورة تدشينه في كل أرجاء المعمورة.. أو أن المغلوب والمقهور دائما ما يقلد غالبه وقاهره حتى وإن في الخفاء، ولذا فنحن لدينا دول كثيرة. بل كلنا دول بلا مسؤوليات، بلا مواقف، بلا عهد.

جاء في القرآن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ (١٣- الحجرات)

وتلك هي الآية الوحيدة في القرآن التي ورد فيها ذكر الشعوب والقبائل بوصفهما مفهومين للحضور البشري مختلفين، والمثير في الأمر أن تقرير الوجود البشري في شكل قبائل أو شعوب جاء تحت صيغة " الجعل " التي تعني الرسالة والتي يتوقف على الالتزام بها من عدمه يتوقف عليه مآل الخاضعين له.. وردت تحت صيغة " جعل " وليس " خلق " التي تعني الحتمية والجبر ولا دخل لها برسالة المخلوق وطبيعة مآله.. إذًا قسم الله خلقه من البشر في صورتين إحداهما القبيلة والأخرى الشعب وذلك ليؤدي كل حضور منهما رسالة خاصة يستفيد ويثري منها الآخر ويتحقق التنوع التاريخي لبني البشر لما فيه تحقيق الرغبات واستيعاب الطموحات داخل منظومة الاختلاف والتنوع التي صاغ من خلالها الخالق كل الخلائق أجناسًا ورسالات، وعليك أن تتأمل " إني جاعل في الأرض خليفة " إذ ما جدوى الخلق إذا كان بلا مشيئة أو

إرادة مستقلة، ما جدوى جعل الخلافة خلقا إذا صارت أمرًا حتميا مقدرًا لا فكاك منه مع الفعل " خلق ".. مثل: " خلق الله الليل والنهار " ولم " يجعل الله الليل والنهار " بل جعل النهار معاشًا وجعل الليل سكنًا، هنا تحدد الوظائف والأدوار والرسالات لمنظومة الخلق.. وعلينا أن نفهم مسألة القبائل والشعوب وفق هذا المعنى.. " جعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا... " إذًا ستظل الشعوب شعوبًا وستبقى القبائل قبائلا حتى نهاية العالم لأن لكل منهما دورا ورسالة وهي اتساع محيط التعارف والانفساح على الآخرين وتنوع نظم تلقي الوجود وبالتالي تنوع الصدور والأثر لتحقيق حكمة الاختلاف التي أقرها الخالق في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ هود.

وتقول المعاجم إن الشعب هو الجماعة من الناس تخضع لنظام اجتماعي واحد بينما تقول نفس المعاجم إن القبيلة هي إحدى عظام الرأس المتصل بعضها ببعض وهي الجماعة من الناس تنسب إلى أب أو جدّ واحد.. فأساس القبيلة هو الانتساب بالأصل واحد – ولاحظ مدى استلهام مقومات الهوية في القبيلة من مدى تعمقها صوب الماضي – بينما أساس الشعب هو معيار الالتزام والخضوع لمعايير اجتماعية هي أصلا من نتاج علاقة الإنسان بالمكان، فالإنسان داخل نطاق الشعب لديه روح الانخراط في عمل جماعي والانصياع لمعايير اخلاقية واجتماعية وسياسية ليست من إبداعه وتمس موقفه في الوجود من حيث تحقيق العدل والحرية والمكانة الاجتماعية والاقتصادية بينما جوهر القبيلة هو الاحتكام لجوهر أصلٍ – مزعوم – والانخراط في الحياة وفق معايير الجد أو الأب الذي هو دائما الأصل والغاية.

وقبل مجيئ الإسلام وانبثاقه من موطن العرب لم يعرف العرب مفهوم الأمة ولم يتداوله أحد منهم مطلقًا وفق المتاح لنا من نتاجهم اللغوي.. مع

الإشارة إلى أن ما نعنيه بالأمة هنا هو الجماعة من الناس الذين يكوّنون وحدة سياسية وتجمع بينهم وحدة الوطن واللغة والتراث والمشاعر.. في حين عرفوا الأمة بمفاهيم أخرى وردت في القرآن: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ يوسف . فمن الواضح هنا أن كلمة " أمة " تعني فترة زمنية محددة. كما وردت كذلك بمعنى الجماعة من الناس يجمعهم مقصد واحد مثل: ﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ ...﴿٢٣﴾﴾ القصص . كما وردت بمعانٍ أخرى تفهم في سياقاتها بحيث يمكن فهم الأمة على أنها مجموعة من البشر لهم هدف أو غاية توحد بينهم في لحظة ز منية معينة ولذا فيمكن القول على أسرة معينة بأنها أمة، بل يمكن القول على شخص واحد بأنه أمة وذلك إذا تشعبت المقاصد وعظمت وانخضع لها جمع غفير كقوله: " إن إبراهيم كان أمة قانتًا لله حنيفًا " ١٢٠ – النحل . والرجل الأمة كما تقول معاجم اللغة هو الجامع لخصال الخير ويمكن أن تكون القبيلة أمة من هذا المنظور إلا أن طموحها لا ينشط إلا باتجاه الماضي وتقديسه رغبة في مكانة معاصرة بينما الأمة لا تكون كذلك ولا يطلق عليها هذا الوصف إلا إذا كانت هناك غاية أو هدف يُخضع مجموع أفرادها له ويسعون لإنجازه. فهل تمتلك القبيلة مثل هذا الهدف؟ وخصوصا إذا استثنينا مسألة تقديس الأصل والحفاظ عليه بمعنى أنه هدف لا يتجاوز نطاق أفرادها بينما الأمة في أدق حضورها تحققًا نجدها في قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ...﴿١١٠﴾﴾ آل عمران . بل إن نطاق الأمم يخرج عن مجال البشر ليشمل كائنات أخرى كما ذكر القرآن: "﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ الأنعام " .

ولك أن تتأمل العربي في انتاجه اللغوي قبل الإسلام فعندما يبحث

عن شيء يضعه في منزلة الشرف والسمو لا يجد سوى قبيلته، فيقول عمرو بن كلثوم:

وقد علم القبائل من معـد　　إذا قبب بأبطحـــها بُنينا

بأنا المطعمـون إذا قدرنا　　وأنا المهلكون إذا ابتلينا

ولا يهم إن كانت تلك الصفات متحققه أم لا، المهم أن تعلم القبائل الأخرى والتي هي الجمهور والحكم والسلطة التي تقر مفاهيم السيادة والشرف أو الضعة والمذلة.. ويقول زهير بن أبي سلمى وهو كسابقه من شعراء قبل الإسلام إلا إنه يتصف بالحكمة والرزانة ويقال أنه كان حنيفا من الأحناف ممن كانوا على ملة إبراهيم في جزيرة العرب قبل البعثة النبوية وأثناءها.. يقول:

ألا أبلغ الأحلاف عني رسالة وذبيان هل أقسـمتـم كل مقسـم

تداركتما عبسًا وذبيان بعـدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

ويقول لبيد بن ربيعة مفتخرًا:

مـن معشـر سنّـت لهـم آباؤهـم　ولـكل قـــوم سنّـة وإمامهـا

فها هنا منزلة الشرف ومدار الفخر أن يكون للإنسان آباء وأجداد اختطوا له مكانة ومجرى بين الأقوام الأخرى – ولاحظ أنه لم يقل أمة مع أنها هنا لها نفس المعنى – ويقول عمرو بن كلثوم التغلبي في موضع آخر من معلقته:

ألا يجهلــن أحــد علينـا　فنجهـل فوق جهــل الجاهلينـا

ورثنـا مجـد علقمـة بـن سيـف　أبـاح لنـا حصـون المجـد دينـا

وعليك أن تتمعن في حجة ومبررات سادات العرب من القبائل في رفضهم دين الإسلام ورسالة الرسول الجديدة في قولهم: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ...(٧٠)﴾ الأعراف، ﴿أَتَنْهَىٰنَآ

أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ... ﴿٦٢﴾ هود . بل لا أجانب الصواب إن قلت بأن الذي صدّ أهل القبائل من العرب وهم من أهل الرسول ومن قبيلته ومن جزيرته، أقول أن ما صدّهم عن دعوته لم يكن سوى الإخلاص لدين الآباء والأجداد الذي هو أحد مرتكزات الشرف والسيادة في نطاق الفهم القبلي والحضارة القبلية، فكيف يأتي رسول وينال من أهم وأعمق مرتكزات السيادة والشرف والأرومة لديهم. إنه يعبد ما كان يعبد أبوه، إن شرفه وأرومته في مدى أن يكون له أب أو جد له تراث يقوم هو بتجديده وإحيائه في كل يوم، فماذا تبقى إذا نُسفت تلك الركيزة؟!

وبعد تغلغل الإسلام في الجزيرة وما حولها من شعوب وقبائل وأمم شرقا وغربا وبعد كل هذه السنوات من نشر تعاليم الرسالة الجديدة التي حملها أقوام لا يوحّد بينهم سوى لغة وتعاليم جديدة تشمل كل مناشط البشر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.. أقول، وماذا بعد.. إن المؤمنين المخلصين للدين الجديد من أبناء القبائل ذابت قبيلتهم ودخلوا في نطاق الأمة، النطاق الأوسع الذي يتخذ له سقفا وغاية في غاية التحديد والوضوح بينما ظل الآخرون مسلمين في نطاقهم القبلي، وأكاد أقول إن أعراف القبيلة ابتلعت التعاليم الجديدة وطوعتها، أكاد أقول إن الصراع بين القبيلة التي هي وحدة الوجود العربي وبين الأمة التي أرست مبادئها الرسالة الجديدة، أكاد أقول أن الصراع حُسم لصالح القبيلة داخل نطاق المكان العربي في الجزيرة العربية بينما تفاوت الأمر في النطاقات الأخرى شرقا وغربا، ولك أن تلاحظ أن هناك أمما قبلت الإسلام دينا ولغة مع بعض التأثيرات كمصر، وأمم أخرى قبلته دينا مع تأويلات منبعها التراث الديني لهذه الأمم ورفضت لغته بمعنى أنها أبقت على الإسلام مطوعا لمعتقداتها السابقة واجتهدت فيه فخرجت بمذهب جديد وتأويل مختلف وردّت اللغة العربية وعادت إلى لغاتها القديمة كالفرس، كما أن هناك أمما ارتضت

لغة العرب ورفضت رسالة نبيهم وتلك هي الأمم المستضعفة من اليهود والمسيحيين وغيرها من الديانات المنقرضة داخل النطاقات الإسلامية الغالبة، والصنف الأخير من الأمم تلك التي رفضت الإسلام دينا ولغة وناصبت أهله العداء ودارت بينهما معارك دموية طاحنة كما حدث في جنوب أوروبا في بلاد الوندال.

وغير عسير علينا أن نلاحظ مدى فعالية النظام الحضاري ( أمة – قبيلة ) ونختبر جدواه وذلك باستذكار المخاطر التاريخية والمراحل الحاسمة التي مرت بها أمة المسلمين.. فهم لم يواجهوا أعداءهم من المغول والصليبيين وحتى المستعمرين الجدد من فرنسا وإنجلترا وإسبانيا وغيرهم من أمم الغرب في العصر الحديث سوى بالإسلام، وذلك لأن الإسلام منظومة حضارية متكاملة مع ذاتها فيها ما يغني ويفيد في مسألة الصراع ورؤية العالم والآخرين بينما العرب كنظام حضاري ليس له سوى موروث القبيلة الذي هو متقوقع ومحتضن للماضي وتراث الأجداد، ومن هنا لا أعتبرها مصادفة أن نرى كل هذا السطوع والتكريس الصاخب لمفهوم الأمة العربية وخصوصا بعد غروب زمن الاستعمار القديم وإحلال زمن جديد من الاستعمار يقوم على أكتاف العسكر من أبناء أمة المسلمين أنفسهم والتمركز حول مفهوم كاذب ومخادع مزيف اسمه القومية العربية أو الأمة العربية. إن هذه الفكرة استعمارية ولا شك، اجتهد في غرسها المستعمرون وأقاموا لها مؤسسات تستنزف جهد ووعي واقتصاد الأمة الإسلامية، ولك أن تلاحظ ما حققته جامعة الدول العربية من انجازات منذ قيامها وحتى الآن على أن تلاحظ ما تقوم به الجامعة من تكريس للتنازع والعزلة والفرقة بين شعوب الأمة الإسلامية،

وعليك أن تلاحظ مدى الاتصال والتلاحم والتزاوج والاختلاط والتشابه بين أقطار أمة المسلمين قبل الجامعة العربية وبعدها. عندها ستلاحظ وستتأكد أن الجامعة العربية مجرد أداة استعمارية شيّدها المستعمرون ووضعوها كأداة في أيدي العسكر المستبدين الذين تولوا خدمة الأهداف الاستعمارية سواء بقصد أو غفلة.. حتى أصبحتُ الآن لا أسمع أحدًا يقول أين العرب وأين الجامعة العربية وذلك كلما عرض عارض واستبدت إسرائيل والغرب بأقدار المسلمين من أبناء المنطقة، لا أسمع أحدًا ينادي بالعروبة وبالجامعة العربية إلا وتيقنت أنه أحد اثنين إما مغفل أو متآمر وعميل فصراع كالذي يخوضه المسلمون الآن لا يُواجه إلا بأمرين، الأول هو منظومة الأمة الإسلامية وهذا هو الأجدى والأكثر نجاعة أو منظومة الشعوب. إذا لم تتيسر الأولى، فشعوب المسلمين لديهم من مفاهيم الحضارة وصيغ الوجود الجماعي وصناعة المدينة ما يكفي لمواجهة المخاطر الاستعمارية، لكن لا يُراد لهم أن يخوضوا الصراع على أسس عملية ناجعة وسليمة، أسس تتفق وطبيعة سياقها الحضاري والتاريخي.. فالشعب السوري والشعب الفلسطيني والشعب المصري والشعب العراقي وشعوب المغرب العربي وكل الشعوب الناطقة بالعربية لديها من مواريث الحضارة ما يمكنها من خوض صراع متكافئ مع إسرائيل والغرب، هذا إذا حيل بينها وبين الانخراط في مفهوم الأمة الإسلامية وتفعيله.

ومما أضعف فرص الاحتكام إلى مفهوم الأمة الإسلامية في خوض الصراع ذلك الاختلاف والانشقاق بين اتجاهات الشعوب في تفاعلاتها مع معطيات الدين الإسلامي والذي أنتج بالحتمية هذا الغنى والثراء المذهبي من سنة وشيعة، بل من اختلافات داخل أبناء المذهب الواحد.. هذا الثراء

والغنى الذي هو مشيئة الخالق من جعل الناس مختلفين استخدم للتصفية الداخلية والقضاء على أسباب القوة ذاتيًا وإجهاض أي محاولة حقيقية للنهوض وتكريس المجادلات الوهمية والمضللة والمخادعة من قبيل القومية العربية والأمة العربية والجامعة العربية.

والمدقق لأسباب التناحر الذاتي والإجهاض الداخلي في نطاق الأمة الإسلامية يجده حول قضايا فرعية ليست من صميم الإسلام، والذي أعنيه بصميم الإسلام هنا ما جاء به الإسلام جديدًا غير مسبوق لدى الشعوب والأمم الأخرى التي سبقت الإسلام أو جاورته، والمدقق في هذا الأمر سيجد أن الإسلام لم يأتِ بجديد في نطاق التشريعات على مستوى الأفراد والجماعات، فلم يحرم الإسلام شيئا أو يحل شيئا لم يكن معروفا من قبل، فالتحريم في نطاق المأكل والمشرب وكذلك في أمور الزواج والطلاق وغيرها من الأمور كان معروفا بدرجة أو أخرى، وكذلك في تنظيم الأمور المالية عن طريق الزكاة والعمل والخراج وما شابه، كل ذلك كان معروفا بدرجة ما تتفق أو تختلف في قليل أو كثير مما أقره الإسلام لأتباعه. إنما الجديد الذي جاء به الإسلام ولم يكن معروفا منْ قبل وقامت به دولته وازدهرت على مدى قرون طويلة وما كان لها أن تقوم لولاه، أقول الجديد أمران: أولهما توحيد القبائل العربية تحت أهداف محددة والآخر أن هذه الأرض هي ملك لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين. بهذين المبدأين ساد الإسلام وانتشر وحقق دولة صارت أمة كبيرة وعظيمة.

وقد اجتهد المعادون لأمة المسلمين على تفريغ الإسلام من هذين المبدأين وإشغال المسلمين في أمور فرعية هي في نطاق التسامح ونطاق " وأنتم أعلم بأمور دنياكم "، وطالما انشغل المسلمون بذلك، فلا أمل

منهم ولا خوف من أمتهم، ففي الحقيقة هم الآن ليسوا أمة واحدة إنما أمم شتى تمتلك إمكانية التوحد وعلى الأعداء أن يحولوا بينها وبين هذه الإمكانية، ولذا أنت لا تجد من يعاديك على أسس التوحد العربي والأمة العربية لأنها فكرة وهمية وحائط في الفراغ لا أساس له وغير مفهوم، ولكن إذا كان الخطاب والتوجه صوب التوحد على أسس أمة الإسلام، فهذا أخطر المخاطر، والغرب نفسه قد جرّب ذلك في علاقته مع الشرق منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا.

## صورة الله في خطاب الدعاة الجدد

لم تهتد البشرية بأجمعها على مدار تاريخها إلى مفهوم أكثر إطلاقا وتحررا من مفهوم "الله"، فبينما تبدو كل المفاهيم نسبية وقابلة للإزاحة والتشكل عبر الزمن يوغل مفهوم "الله" في المطلق والأبدية، فهو القديم الذي صدرت عنه جميع الخلائق وإليه تعود، وهو الأبدي الأزلي المطلق في الإحاطة والقدرة، وهو كل شيء وفي الوقت ذاته هو ليس بشيء مما يقبل الإحاطة والتعبير عنه بأية طريقة من طرق الوعي البشري في التعبير، إذ كيف يحيط الحادث النسبي وهو الوعي البشري بالقديم الأزلي المطلق وهو الله؟!

وقد تبنى الترويج لهذا المفهوم والتكريس له عبر الزمن أناس أخذوا صفات مميزة وعُرفوا بألقاب كثيرة مثل الكهنة والرائيين والأنبياء والرسل والقديسين والقساوسة والأئمة والدعاة. وما إلى ذلك من ألقاب تنبع من طبيعة المهمة التي يقومون بأدائها والتي تتمحور حول الترويج والتكريس لمفهوم "الله" وعرض مقاصده وشرائعه وتعاليمه إلى أبناء الجنس البشري عبر العصور.

ومنذ أن طرأ الجذر السماوي في الاعتقاد الديني مع حضور النسل الإبراهيمي في التاريخ الإنساني منذ ما يقرب من أربعين قرنا مضت؛ منذ ذلك الحين بدأ مفهوم "الله" يأخذ أبعادا جديدة، وحمل تعاليم جديدة من أخطرها أنه لا بأس من إراقة دماء البشر في سبيل تكريس هذا المفهوم.. وظل هذا المفهوم سائدا قرابة خمسة عشر قرنا حتى أتى أحد

أبناء النسل الإبراهيمي - يوحنا المعمدان - قبيل ميلاد المسيح وحاول تحرير هذا المفهوم من الاحتكار الإبراهيمي فما كان إلا أن قتل، وكذلك قتلت بشارته المتمثلة بمجيء السيد المسيح الذي اضطهد وحورب حتى أزهقت صورته الإنسانية عندما صارحهم بكسر هذا الاحتكار "لا تبتدءوا تقولوا نحن أبناء إبراهيم... إن خالق هذه الحجارة يستطيع أن يجعل منها أبناء لإبراهيم...".

ومع ظهور آخر حلقة في سلسلة الجذر الإبراهيمي في طرح مفهوم "الله" مع نبي الإسلام محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن مرة بن... إسماعيل بن إبراهيم... بن سام بن نوح... بن آدم؛ مع هذا الظهور تميز طرح مفهوم "الله" بأربع مراحل أولها الدعوة السلمية "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..." النحل ١٢٥، ثم الأمر بالصبر على الأذى "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير" الحج ٣٩، ثم الأمر بالحرب الدفاعية ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ البقرة ، ثم أخيرا الأمر بقتال كل الناس من غير المسلمين في سبيل تكريس المفهوم الجديد الأخير لله ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩ ﴾ التوبة.

وقد عرفت الدعوة إلى الله رجالا، ومنذ بداية الرسالة المحمدية، يمثلون منطلقات كل مرحلة من المراحل الأربع السابقة وفي حدود العصر الواحد، فالمرحلتان الأولى والثانية اتفقتا مع نزوع المتصوفة وأصحاب الفكر الفلسفي وكذلك المستضعفين حكاما كانوا أم محكومين، والمرحلة الثالثة هي تحصيل حاصل فكل إنسان يدافع عن نفسه وقت الخطر ولكن ربما

اختلفت وسائل الدفاع، والمرحلة الرابعة والأخيرة جسّدها المسلمون قولا وفعلا في عصر الخلافة الراشدة - عصر الرسول وصحابته - ثم عصر التابعين وحتى القرن الثالث الهجري من خلال دولتي بني أمية وبني العباس، وكلاهما فرعان من قصي بن كلاب بن مرة... بن إسماعيل بن إبراهيم... بن سام بن نوح... بن آدم عليهم جميعا السلام.

ومع ضعف دولة المسلمين وانحلال قبضتها عن التاريخ الإنساني صارت المرحلة الرابعة مجرد دعوة نظرية يصفها أعداؤها بالعنف والاستبداد ووجدت دائما على مر التاريخ وحتى الآن من يروج لها ويحاول تكريسها؛ بل إن الأعداء في مرحلة ضعف المسلمين ربما ساهموا في تغذية تلك الدعوة وتنظيمها من قبيل "إن أفضل طريقة للسيطرة على التاريخ وتصريف أموره هي اصطناع الأعداء واختيارهم وإمدادهم بالخطط وأسباب القوة" لأن ذلك من شأنه أن يقطع الطريق على الأعداء الأصلاء، فالأعداء المصطنعون هم دائما في مجال السيطرة والتحكم وخطرهم مأمون في كل الأحوال وعموما فهم لن يتمكنوا من الخروج عن النص.

والدعاة في عصر ما قبل "ماركوني" وقبل اكتشاف طريقة البث والاتصال عبر وسائط صناعية، الدعاة إلى "الله" في عصر ما قبل ماركوني لم يكن أمامهم من وسيلة لبث دعوتهم إلا عبر الأشكال الاجتماعية في الأسواق والمساجد والكتاتيب والمدارس وما إلى ذلك، ولم يكن من وسيلة لتجميع غالبية الناس على مفهوم واحد لـ "الله" ولذا تجاورت وتعايشت المراحل الأربع جنبا إلى جنب، ومن بلد إلى آخر ومن ثقافة إلى ثقافة، أما مع تطور وسائل الاتصال أصبحت السيطرة ممكنة وصار بالإمكان بث الدعوة على نطاق كوني؛ بل أصبح في مقدور الحكومة العالمية للتاريخ البشري أن تصيغ الدعوات وتنشرها بالكيفية التي تلائم مصالحها، ومن هنا غابت صورة الداعية القديم الذي يغشى المجتمعات وحلت محلها

صورة الداعية النجم، فالدعاة صاروا صناعة تماما كما يصنع نجوم الفن والثقافة والرياضة والسياسة وأصبحوا في قبضة المؤسسة الإعلامية تمامًا كنجوم "هوليوود والفيفا".

والدعوة إلى قتال غير المسلمين المتمثلة في المرحلة الرابعة تبناها القائلون بالناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم فقتال غير المسلمين حسب فهمهم فرض وقد نسخت هذه المرحلة الأخيرة ما قبلها من المراحل وأوقفت العمل بما قبلها تماما مثل تحريم الخمر الذي جاء هو الآخر في النص القرآني على أربع مراحل، بينما لا يقر ذلك من لا يأخذ بالناسخ والمنسوخ، وتلك قضية في الفقه فيها أقوال كثيرة متشعبة ليس السياق هنا بسياقها.

وحتى نقترب أكثر من المشهد المعاصر في مجال الدعوة إلى الله والقائمين بها لا غضاضة من ضرب أمثلة من سياق الدعوة والدعاة، فطائفة من الدعاة الذين يوصفون بالعصرية ويمثلهم داعية كعمرو خالد ينطلق خطابه من ضرورة معايشة غير المسلمين والتحاور معهم ودعوتهم إلى "الله" بالمفهوم الإسلامي وإن كان ذلك مستحيلا في المنظور العملي الواقعي لأنه - إن كان يعلم أو يجهل - يضع نفسه إزاء ثقافة تكرست عبر عشرات الحقب ولها مؤسسات راسخة تم بناؤها عبر عشرين قرنا منذ انطلقت تعاليم المسيح من شرق المتوسط إلى غربه وأسست هناك الكنيسة التي صارت فيما بعد محورا وقطبا لصياغة الوعي والسياسات والمناهج في كافة مناشط الحياة، فـ "الله" عندهم مفهوم تأبدت ملامحه ولا إمكانية لزحزحته على بساط ثقافات دينية أخرى، وخطاب السيد عمرو خالد في النهاية هو لنا نحن - أبناء شرق المتوسط - ولكنه يأتينا من مائدة غربية عبر وسائط غربية، ولن يجد مثل هذا الخطاب مسلكا أيا كان في الوعي الغربي المعاصر، ولما كان مآل خطابه لنا فلذا نجده لا يتطرق

مطلقا إلى صورة الحكم والحكام "الذين تؤيدهم الحكومات الغربية على مصير القرار في شرق المتوسط"، وهو أي السيد عمرو صديق العائلات الحاكمة في شرق المتوسط، وإن انفسحت عبقريته وآفاق دعوته، فهو يدخل بمريديه مباشرة إلى يوم الحشر.. يوم القيامة حيث الشمس فوق الرؤوس وعرق الناس قد سال وارتفع حتى بلغ الرقاب وأمنيات الجميع في هذا المشهد ليس سوى الانصراف من هذا المجمع ولو كان المنصرف إلى الجحيم، ويذوب السيد عمرو في الحشرجة والبكاء ويتبعه المريدون، وهكذا فليس عجيبا أن يصبح السيد عمرو بما يحمله من خطاب في الدعوة صديقا للكثيرين من شخصيات الحكومة العالمية في الأمم المتحدة في جنيف وأوسلو وكوبنهاجن وواشنطن وحتى الكويت وبيروت.

هذا بينما دعاة على شاكلة السيد أحمد القطان والسيد محمد حسان ممن يتبنون حتمية الصراع والاصطدام بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب لا مكان لهم على مائدة الحكومة العالمية وإن كانوا ليسوا ببعيد عن نطاق السيطرة والاستفادة بدعوتهم في نطاقات تكتيكية محلية من قبيل خلق الذرائع، ومن أراد أن يستزيد فعليه أن يستمع إلى تسجيلات السيد محمد حسان عن نهاية العالم والمعركة الفاصلة في سهل مجيدو "هرمجدون".

فتعاليم الله ومقاصده وغاياته ليست متشابهة في خطاب الدعاة الجدد فهناك من يكرس خطابه لتعليم المسلمين كيفية معاشرة النساء وتزويجهم وتطليقهم بل وكيفية تنظيف أجسادهم إن بالاستحمام أو بمجرد الشطف أو حتى بالتراب إن تعذر وجود الماء، وهناك من يكرس للتمرد على الحكام الظلمة والخروج عليهم وإعادة دولة الرسول وأصحابه، وهناك من يكرس لضرورة التعايش مع غير المسلمين والاستفادة من منجزاتهم في العلوم والعمران، وهناك من يكرس لحضور النظريات

الكونية والإعجاز العلمي في الرسالة المحمدية، وهناك من يكرس للسيطرة على الفنون والثقافات وصبغها بصبغة إسلامية كضرورة من ضرورات الاستمرار والتطور الحتمي حتى تتناسب الدعوة إلى "الله" مع تطور وسائط الاتصال وثورة المعلومات، وهناك من يدعو إلى طاعة الحاكم - ظل الله في أرضه - درءا للفتنة والفرقة والاختلاف بين طوائف الشعب متعدد الأعراق والمذاهب، وهناك غيرهم الكثيرون ممن يتبنون مفاهيم ويكرسون لأفكار تبتعد أو تقترب من روح العصر بدرجات متفاوتة، وكل أولاء وهؤلاء ينطلقون من مفهوم "الله"، وكل هذا وجماعة المؤمنين بالمفاهيم المحمدية عن "الله" وخلقه يعيشون في بلادهم بلا صناعة أو سيادة أو تطور، يتقاتلون فيما بينهم على الأولويات النظرية بشأن السؤال التالي: هل التخلف والرضا بالاحتلال من الأمور التي تساعد على إقامة الدين وحفظ النفس والمال والنسل أم لا؟ وهل أخطأ أبو بكر وعمر ومن شايعهما في حق علي أم لا؟ وعلى هذا تقوم الصراعات والأحزاب والفتن في بلادنا وتستمر.

وعموما فإنه يمكن القول بأن المراحل الأربع للدعوة إلى "الله" في خطاب الدعاة لها وجهان أحدهما يكرس للتعايش وتبادل المنافع مع الآخر، والوجه الآخر يكرس للاستئصال وحتمية الصراع، وعلى هذا الأساس يمكننا فهم لماذا يجلس دعاة من أمثال الشعراوي وسيد طنطاوي وخالد الجندي وعمرو خالد وحتى الحبيب الجفري وطارق سويدان؛ لماذا يجلس هؤلاء في الكرسي المجاور تماما لكرسي السلطان إن في الحكومات المحلية أو في الحكومة العالمية؛ بينما يجلس أمثال بن لادن والظواهري وأبو حفص المصري وعمر عبد الرحمن ومن قبلهم عبد الحميد كشك وسيد قطب في زنازين الحكومات المحلية أو زنازين الحكومة العالمية في غوانتانامو أو السجون السرية للحكومة العالمية لدى أتباعها في أوروبا

الشرقية وشرق المتوسط، وكل فريق منهما لن يعدم الأسانيد والشواهد والحجج في البرهنة والتدليل على صدق وجهته وصحتها، فتراثنا وواقعنا يذخران بالأحداث والشواهد المؤيدة والداعمة لكل فريق.

ولما كان مفهوم "الله" بهذا الاتساع والغنى والتنوع والإطلاق أمكن توظيفه في خطط السياسيين والقادة والزعماء عبر التاريخ لحشد المزيد من الأنصار وشحن الصراع بدوافع جديدة وخلق أسباب السيطرة والتمكين والحكم، وهذه أصبحت من السنن الثابتة في تطور التاريخ الإنساني منذ أكثر من ثلاثة وثلاثين قرنا مع هروب بني إسرائيل مع نبيهم موسى من مصر وحتى الآن، وأظنها ظاهرة ستستمر في مصاحبة التطور التاريخي لبني البشر حتى أمد ليس بقصير طالما هناك من يتجرأ على استغلال أطهر النوازع الإنسانية في الشوق والتطلع إلى فهم العالم والاطمئنان على مآله ومصيره، أطهر النوازع الإنسانية في المعرفة والبحث عن أسباب الوجود ومآله على المستوى الفردي والجماعي والتوق إلى الخلاص والتحرر من قبضة التاريخ الذي صنعه البشر أنفسهم على امتداد العصور، وعلينا ألا ننسى أبدا بأن "الله" وفق مفاهيم الجذر السماوي في العقيدة قد كتب أرضا لبعض الناس "... ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم... " وكذلك لا ننسى بأن الأرض هي لـ "الله" يثبت فيها من يشاء من عباده الصالحين، وهؤلاء الصالحون تتم صياغتهم وفق مفهوم "الله" ذاته في أذهان المؤمنين به على اختلاف ثقافاتهم.

فهل بالإمكان بعد كل هذا التاريخ أن تحلم البشرية بتخليص "الله" من مفاهيم الدعاة وتركه لفطرة الناس يهتدون إليه بحسب تجليه في حياتهم من الميلاد إلى الموت!؟

# سيرة البداوة

الشاسو كلمة مصرية قديمة أطلقها المصريون قريبًا من القرن الثامن عشر قبل الميلاد على البدو الغرباء القادمين من جهة الشرق لغزو بلادهم، كما أطلقوا تسمية الهكسوس على أمرائهم ورؤساء قبائلهم، وقد تمكن هؤلاء الشاسو في فترة ازدهارهم من اقتطاع جزء من البلاد ما بين دمياط والشرقية في أفاريس وأقاموا فيه قرابة ثلاثمائة سنة حتى أجلاهم الملك أحمس مع بداية حكم الرعامسة من الأسرة الثامنة عشرة في القرن السادس عشر قبل الميلاد.

وهكذا صار الشاسو مرادفًا للبداوة وحياة الرعي والتنقل التي تميز حياة القبائل الرحل المتاخمين لحدود مصر الشرقية والتي كانت قبيلة إسرائيل "يعقوب" واحدة منها منذ اكتشف جده "إبرام" إبراهيم حياة المصريين واختلط بهم سبع سنوات ثم عاد ليوصيهم بأنْ ينتقلوا إلى مصر ويقيموا بها أربعمائة سنة حتى يخرجوا بأملاك وفيرة، وهكذا صار وانقضت السنوات الأربعمائة بمجيء موسى هذا الطفل "اللقيط" الذي التقطه المصريون من اليم وأعطوه اسمه وثقافته.

وما كان لهذه القبيلة من قبائل الشاسو أن تزدهر وتتمركز في التاريخ إلا بفضل ما حافظوا على تداوله من قصص وأحداث ظلت تروى شفاهة قرابة ألف عام منذ ظهر إبراهيم إلى حيز التاريخ قريبا من القرن السابع عشر قبل الميلاد وحتى القرن الخامس قبل الميلاد في السبي البابلي حيث خاف كهنة الشاسو وأنبياؤهم من ضياع المخزون الشفاهي بالهلاك لدى

الملك البابلي فعمدوا إلى تدوينه وكتابته ليصبح فيما بعد العهد القديم (التوراة) أسوة بـ (تحوت) الذي هو كتاب المصريين الجامع للحكمة ومواريث الكهنة والرائين في المعابد المصرية على مدار أكثر من ألفي عام سبقت الهروب الإسرائيلي من مصر والذي عُرف لاحقًا بالخروج.

وبهذا الجذر من التعاليم والحكمة تمكن الشاسو من أبناء يعقوب من صياغة وعي العالم – البشر – نحو الوجود – ظاهره والمخفي منه – وأصبح هذا الجذر من الحكمة ومنذ ذلك التوقيت حكرا على هذه القبيلة من الشاسو وامتد في نسلهم من إبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى ويوشع وداود وسليمان وأبنائهم وأحفادهم حتى يحيى وعيسى – وإن تم قتلهما بسبب عدائهما لمنطق الشاسو – وانتهاءً بالإلحاق الأخير للنسل الإبراهيمي في جزيرة العرب من أحد أبناء بني هاشم.

الآن وبعد الهروب من مصر في أعقاب أربعمائة وثلاثين عامًا من الإقامة بها نحن أمام قبيلة تعدت كثرتها نصف المليون من المحاربين – بحسب رواية سفر الخروج – لهم أرض خلقها الله من أجلهم وكتبها لهم أبد الدهر على تخوم مصر الشرقية ولا بد من القتال والحرب لتنفيذ هذا الوعد والتمترس في الأرض وهذا ليس شيئا جديدا في تاريخ البشر فمن قبل عرفت البشرية أطماعا وحروبا للاستيلاء على ثروات الآخرين من الشعوب والقبائل ولكن الفارق الوحيدهذه المرة أن الحرب صارت قدرا ومصيرا ومقدسا إلهيا من خالق العباد والبلاد وأي اعتراض عليها هو اعتراض على مشيئة الرب الخالق المسيطر وبذا قد ظهر ما يعرف بالحرب الدينية لأول مرة في تاريخ بني البشر.

هنا ولأنها المرة الأولى التي يُدعى فيها شعب يعقوب "إسرائيل" إلى القتال؛ هنا سيعترضون ويتملصون أربعين سنة حتى يموت مخلصهم

موسى في سيناء ثم يقودهم تلميذه وخادمه يوشع ومن بعد تتسع رقعة الحروب الدينية حتى تبلغ أوجها في عهد حفيده داود وتصل ذروتها في عهد الحفيد العربي للنسل الإبراهيمي والمبعوث والمستنفر من "بكة" في قلب الصحراء العربية وتتواصل حلقاتها في عهد الصليبيين ثم تندلع ثانية في عهد بلفور وحروب بوش في موطن الجد الأكبر على مقربة من أور الكلدانيين في بلاد الرافدين من حيث ارتحل الجد الأكبر "إبراهيم" صوب أرض كنعان أول مرة منذ ما يزيد على سبعة وثلاثين قرنا مضت.

وتاريخ المنطقة لدينا يحتفظ بسيرة نوعين من الحروب، الأول قاده أبناء المدن المنحدرون من حضارة ميراثها الاستقرار والصناعة ونموذجه الفصيح حروب الإسكندر الأكبر قائد الإغريق الذين وفدوا إلى المنطقة من غرب المتوسط في القرن الرابع قبل الميلاد فاستوطنوا وأقاموا المدن ومهدوا للعمران الجديد، والآخر قاده الشاسو المنحدرون من التخوم الشرقية ونموذجه الفذ حروب القبائل العربية واستنفارها من جزيرة العرب صوب الممالك المتاخمة شرقا وغربا خلال القرن السابع الميلادي وما تلاه وكذلك الغزو المغولي التتري في القرن الثالث عشر للميلاد.

وحصيلة لكل هذه المواريث من الغزو والحروب وعلى مدار أكثر من ثلاثة آلاف عام مضت استقر ما يمكن تسميته بخط الحضارة الإنساني أو الجذر الحضاري للإنسانية امتدادا من نينوى وآشور وبابل مرورا بالساحل الآرامي والفينيقي حتى كنعان ووصولا إلى منف وطيبة وهليوبوليس وتل العمارنة في مصر، هذا الخط الحضاري الذي صار هدفا لأي حركة استعمارية ناشئة أغرقته في بحيرة من العنف والدماء والأساطير كان أخطرها حلقات حروب البدو (الشاسو) ابتداءً من دعوة موسى وحتى جيوش الأطلسي التي يقودها مركز الحرب الأمريكي في البنتاغون وقد سُخرت لها كل إمكانيات الحضارة البشرية في الوعي والصناعة من

أساطيل ومخابرات وصياغات إعلامية تهيء الوعي البشري للتعامل مع الوضع الجديد بقيادة الحفيد بوش.

ولك أن تحصي نتائج حروب الشاسو التي تأبدت في مرمى الوعي التاريخي، حرق الإسكندرية وتدميرها في القرن السابع الميلادي، تدمير بغداد بأجناد الشاسو المغول ثم التدمير الأخير بأجناد الشاسو الأمريكان، هل لأن نينوى وبغداد ومنف وطيبة مراكز إشعاع إنسانية ألهمت السعي البشري آفاقا جديدة في صناعة الحضارة والعلوم والفكر تراها مؤبدة في النص المركزيّ المقدس الذي اعتمده الغرب منهلا للتربية والفكر والأخلاق على مدار أكثر من سبعة عشر قرنًا منذ الاعتراف بالمسيحية كأحد الأديان الرسمية في الإمبراطورية الرومانية الوارثة للمجد الإغريقي وحتى الآن، هل لأن ذلك كذلك انهمرت قنابل الشاسو الجدد ومدافعهم لإزاحة هذا الخط الحضاري عن تمترسه في قلب التاريخ الإنساني وذلك بامتلاكه وإلحاق الإهانة بشعوبه التي تبدو في سبيلها للانقراض.

فالواحد من أبناء الشاسو وطالما لا يؤمن إلا بالخيمة ونقاء النسل العرقي والعيش به وله على مدار التاريخ؛ الواحد من الشاسو وطالما لا يؤمن إلا بحياة الترحال والتنقل فلن يحفل كثيرا بصناعة المدنية وتطوير حياة الإنسان، وإلا بماذا تفسر هذا الإصرار الأسطوري على الاحتفاظ والانتماء للجد الأول مؤسس القبيلة على امتداد صحراء العرب أو في مفترق إسرائيل على مدار الأمم والجغرافيا والحضارات طول التاريخ؛ هذا الشاسو الذي لا يدّعي من مواريث الحضارة سوى نصٍ تتناقله الأجيال وقد أفاض عليه من الجلال والقداسة متخذًا إياه يقينا لفهم العالم والتعايش فيه؛ نصًا يتواصل به مع الوجود والموجود ظاهرًا وميتافيزيقيًا، هذا الشاسو كم هو خطرٌ ودمارٌ وإعاقة في سبيل التطور الإنساني وعقبة في رقي الوجود؟!

وقد يقول قائل إذا كانت هذه صيرورة الشاسو فأين إرادة أصحاب الخط الحضاري من نينوى وحتى طيبة؟ يبدو أن تلك الشعوب وقد بلغت في تطورها شأنًا رفيعا قد اقتنعت بأن لا جديد يستحق الدفع وقد استنفذت كل طاقاتها في التحضر والعمران، أو ربما لأن طول الاختلاط والامتزاج بثقافات الشاسو وقناعاتهم قد أحدث شرخا وانقساما في الذات الحضارية لهذه الأمم والشعوب ولم تتمكن من الالتئام والاتحاد على ذاتها مرة أخرى أمام الضربات القاسية المتلاحقة لغشم الشاسو وجلافتهم على مر العصور حتى إن قائدهم في مصر وخلال القرنين التاسع والعاشر للميلاد قد هدّم المعابد والكنائس بامتداد مناطق نفوذه من الموصل شرقا وحتى طنجة في أقصى المغرب بل وقطع أيدي غير طائفته وألزمهم بلبس السواد ووضع الأجراس في رقابهم وحرّم خروج النساء من المنازل قرابة سبع سنوات ناهيك عن تحريم العديد من المأكولات والمشروبات وحشد في عاصمة الشاسو الجديدة (القاهرة) كل أبناء القبائل من الشرق والغرب من عقيل وحمدان ولواتة وزناتة وكتامة وهلمجرا من عجيج الصحارى في حين حرم شعوب البلاد من مباشرة حريتهم في المعتقد والفكر والعمران حتى إنه لم يعهد لأي منهم بمنصب في القيادة سلمًا أو حربًا واكتفى بتقريب الدخلاء والغرباء وأفاض عليهم من خيرات البلاد وثرواتها، اكتفى بحظوة الغرباء والدخلاء في الفكر والمعتقد حتى راجت الطوائف والمذاهب والهرطقات وخلفت حصادا من قصور الرأي والرؤية وضيق الأفق في المسعى والمعنى.

والشاسو الجدد في الغرب الأطلسي ولولا بقية من آثار الفكر والرقي الذي امتد إليهم من النبع الروماني والإغريقي لما افترقوا عن جذر الشاسو الأصلي في شيء فالادعاءات هي نفس الادعاءات وروح النهب والتدمير والإعاقة هي نفسها وإلا بماذا يعد الشاسو الجدد أبناء المنطقة

من الرفاهية والعمران، إنهم يعدونهم بالديموقراطية والتحرر من قبضة جلاديهم ونشر قيم الحداثة والليبرالية، وأنى لعاقل أن يقنع بذلك؟! أليس هؤلاء الجلادون هم صنيعة نزعة الشاسو والبداوة في غرب المتوسط ومنذ الاحتكاك الدموي العنيف في القرن الحادي عشر للميلاد مع اندلاع حروب الصليب الدينية وحتى الآن مرورا بمحاولات الفرنسيين والإنجليز وأخيرا الأمريكان؟! وكيف تقوم حضارة أو دعوة لعمران جديد بالحديد والنار والمكر والعنف والإكراه وسلب الثروات وانتزاعها من أصحابها؟ ومن هم الجلادون الجدد؟ أليسوا هم صنائع الشاسو من كتيبة الأمريكان؟ وهل هم إلا رموز لضبط الإيقاع الطائفي والمذهبي والعرقي في سياق العمالة والصنائع؟! ألا يتصور العقل في مرحلة ما بأن هذا قدر المنطقة وسيرورتها ولذا فلا أمل في المقاومة ولا مفر من التسليم بمنطق المقدس السماوي والاحتكام للقدر المحتوم المؤيد على مآل منطقة بكاملها تمتد من تخوم أوروبا الشرقية وحتى منابع نهر النيل؟!

في العالم ثارت اعتراضات واحتجاجات في أعقاب الغزو الأمريكي للعراق وقامت حكومات وذهبت أخرى تحت ضغط الوعي المناهض لمنطق الشاسو؛ لكن طالما أن الثروة والسلطة – التجارة والمخابرات – تحت سيطرة الشاسو الجدد فلا مناص من تمهيد الإرادة والوعي الإنساني وإخضاعهما لقوة الأسطورة والمدفع وقد بلغ الرقيّ الغربيّ حدًا في النظام وتوزيع المهام والمسؤولية في منظومات مؤسسية في التجارة والحروب بلغت حدًا كاسحًا كاد أن يقتل صوت العقل ورحمة الاختلاف واستنارة التعدد وعبقريته.

في العالم ثارت ومازالت تثور احتجاجات تعلو وتخفت أمام ضراوة الأكاذيب والمدافع التي تتحكم في مصائر شعوب بكاملها وخصوصًا في نطاق الخط الحضاري القديم بينما تخف الوطأة في مناطق أخرى من

الشرق الأقصى وشرق آسيا وأمريكا الجنوبية، عصابات على منهج الشاسو تستبيح العالم وقناعاته في قرن العولمة والقرية الكونية، عصابات من الشاسو الجدد حرمت البشرية من حصاد التقدم والرقي وزرعت التاريخ في أتون المحن والفتن والمنازعات متوهمة بأن احتكار السلطة والثروة سوف يدوم إلى الأبد.

## ما كل هذه الدماء أيها العرب المحمديون!؟

وقع عقبة بن أبي معيط بن أبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية بن عبدشمس بن عبد مناف بن قصي القرشي؛ وقع في الأسر يوم بدر في السنة الثانية من هجرة الرسول الى يثرب، فلما صار في مواجهة الرسول وأدرك أنه هالك، قال مستعطفا: من لصغاري - من بعدي - يا محمد؟ فرد عليه الرسول: لهم النار يا عقبة. وأمر بقطع رأسه فنهض على الفور عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح الأنصاري واحتز رأسه، وفي هذا السياق يعقب إمام المؤرخين وكتاب السيرة ابن هشام قائلًا: ويقال قتله علي بن أبي طالب فيما ذكر لي بن شهاب الزهري وغيره من أهل العلم – وابن أبي طالب قتله فيما بعد عبدالرحمن بن ملجم - هذا بينما يعفو الرسول في مشهد لاحق من مشاهد بدر عن أقربائه مثل ابن عمه عقيل بن أبي طالب وعمهُ العباس بن عبد المطلب وابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب وكذلك أبي العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، وكانوا قد وقعوا في الأسر أيضًا بعدما جاؤوا جميعًا مع عقبة من مكة لقتال الرسول وصحبه الذين تعرضوا لقافلتهم التجارية بقيادة أبي سفيان بن حرب وأرادوا نهبها، فاحتال أبوسفيان حتى أنقذ القافلة ووقعت الحرب.

هلك عقبة إذا وليذهب صغاره الى الجحيم حسب مشيئة رسول العرب والمسلمين في هذا المشهد الذي ربما يراه كثيرون مجرد حزم ممزوج بالقسوة اللازمة في مثل هذه المواقف وخصوصا مع خصوم من أمثال عقبة ممن تعمدوا إيذاء الرسول في مكة خلال السنوات السابقة على

الهجرة، وأين ذلك من لينه ورفقه ورحمته في مشهد يرويه الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة قائلًا: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ العشاء فإذا سجد وثب الحسن والحسين على ظهره فإذا رفع رأسه أخذهما أخذا رقيقا فيضعهما على الأرض فإذا عاد عادا حتى إذا قضى صلاته أقعدهما على فخذيه، ويردف الإمام أحمد في موضع آخر وكذلك الترمزي راويا عن بريدة عن أبيه أنه قال: كان رسول الله ﷺ يخطبنا إذ جاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر فحملهما فوضعهما بين يديه ثم قال: صدق الله " إنما أموالكم وأولادكم فتنة " نظرت الى هذين الصبيين يمشيان ويعثران فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما. هكذا تكون الرحمة وتكون الغريزة مع الأبناء والأحفاد بينما يذهب أطفال عقبة إلى قعر جهنم.

ولم يكد يمضي ستون عاما من واقعة بدر ومقتل عقبة حتى يسقط حفيد النبي – الذي ترك المنبر والخطابة رأفة بخطواته المتعثرة – قتيلًا بأيدي العرب المسلمين في الكوفة بقيادة عبيد الله بن زياد بن معاوية بن أبي سفيان ويتكالب عليه عمر بن سعد بن أبي وقاص والصحابي الجليل – كما يصفه بن عساكر– شرحبيل بن نوفل بن أوس العامري الضبابي الكلبي الملقب بأبي السابغة شمر بن ذي الجوشن ومعهم حولي بن يزيد الأصبحي الذي فصل رأس الحسين عن جسده. وكان الحفيد الثاني الحسن بن علي قد قتل من قبل مسموما كما قال محمد بن سعد راويا عن أم موسى أن جعدة بنت الأشعث بن قيس وبتحريض من الأمويين قد سقت الحسن سما فكان يوضع تحته طشت ويرفع آخر نحوا من أربعين يوما، فلما حضرته الوفاة قال الطبيب وهو يختلف إليه: هذا رجل قطع السم أمعاءه، إذن فلنذكر أن الرسول استباح دم عقبة في السنة الثانية للهجرة، فاستباح معاوية بن سفيان دم حفيده الحسن في السنة التاسعة

والأربعين ثم استباح ابن معاوية يزيد دم حفيده الآخر الحسين في السنة الحادية والستين ومعه ثلاثة وعشرون رجلًا من ولده وإخوته وأهل بيته وهم جعفر والعباس ومحمد وعثمان وأبو بكر من إخوته، وعلي الأكبر وعبد الله من أبنائه، وعبد الله والقاسم وأبو بكر من أبناء أخيه الحسن وعون ومحمد من أبناء عبد الله بن جعفر وعبد الله وعبد الرحمن وجعفر من أبناء عقيل بن أبي طالب بالإضافة الى أخيهم الرابع مسلم بن عقيل الذي قتله عبيد الله بن زياد قبل قدوم الحسين الى كربلاء وكذلك عبد الله ابن مسلم بن عقيل ومحمد بن أبي سعيد بن عقيل. وكان الحكام والقادة المنفذون لهذه المقتلة العظيمة إما صحابة أجلاء أو أبناء صحابة أجلاء - رضوان الله عليهم أجمعين -!!

وبعد الانتهاء من هذه المجزرة - كما يصف المؤرخ ابن جرير الطبري - أمر بن زياد فنودى الصلاة جامعة، فاجتمع الناس فصعد المنبر فذكر ما فتح الله عليه من قتل الحسين الذي أراد أن يسلبهم ملكهم ويفرق الكلمة عليهم فقام إليه عبد الله بن عفيف الأزدي قائلًا: ويحك يا بن زياد أتقتلون أولاد النبيين وتتكلمون بكلام الصديقين! فأمر به ابن زياد فقتل وصلب ثم أمر برأس الحسين فنصب بالكوفة وطيف به في أزقتها ثم سيره مع زحر بن قيس ومعه رؤوس أصحابه الى يزيد بن معاوية بالشام وكان مع زحر جماعة من الفرسان منهم أبو بردة بن عوف وطارق بن أبي ظبيان الأزديان فخرجوا حتى قدموا بالرؤوس كلها على يزيد بن معاوية.

والعجيب في الأمر أن السيوف التي تحركت لحز كل هذه الرؤوس منذ رأس عقبة بن أبي معيط ورأس النضر بن الحارث في بدر وحتى الآن، هذه السيوف كان يحركها شرع الله وسنة نبيه وكل قاتل من هؤلاء - وقبل أن يسقط صريعا مقتولا في ضربات لاحقة - كل قاتل لديه مسوغ وحجة ومتكأ في شرع الله وسنة نبيه يبيح له فصل الرؤوس وقتل الناس والتمثيل

بجثث المقتولين في كثير من الأحيان.

وها هو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية يتأمل رأس الحسين المفصول عن جسده ويقول لمن حوله: أتدرون من أين أتى ابن فاطمة وما الحامل له على ما فعل وما الذي أوقعه فيما وقع فيه؟

قالوا: لا، قال: يزعم أن أباه خير من أبي وأمه فاطمة بنت رسول الله خير من أمي وجده رسول الله خير من جدي، ثم يضيف أبو جعفر ابن جرير الطبري في تاريخه أن يزيد وضع رأس الحسين وعنده أبو برزة الأسلمي فجعل يزيد ينكت بالقضيب على فم الحسين فقال أبوبرزة ارفع قضيبك فوالله لربما رأيت رسول الله واضعا فمه على فم الحسين يلثمه.

ويستمر القتل فاشيا في رؤوس الصحابة وأبنائهم والتابعين لهم بإحسان من بعدهم، وهاهم أهل يثرب - مدينة رسول الله - وبعد أن نقضوا بيعة يزيد فيرسل لهم يزيد جيشا شآميا يقوده مسلم بن عقبة المزني وذلك بعد مقتل الحسين بعامين، فأعمل فيهم مسلم القتل في واقعة الحرة أو كما يقول المدائني أباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثة أيام يقتلون من وجدوا من الناس ويأخذون الأموال ووقعوا على النساء حتى قيل أنه حبلت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زواج أو كما يقول المدائني في سياق آخر عن أبي قرة عن هشام بن حسان: ولدت ألف امرأة من أهل المدينة بعد وقعة الحرة من غير زواج.

وكان ممن فصلت رؤوسهم عن أجسادهم في تلك المجزرة معقل بن سنان بعد أن مات صبرا، والموت صبرا يعني أن يترك المأسور بلا طعام أو شراب حتى يموت، وكذلك عبد الله بن مطيع وأبناؤه السبعة وعبد الله بن حنظلة الغسيل وأخوه لأمه محمد بن ثابت بن شماس ومحمد بن عمرو

بن حزم، وأمر الفاتحون ليثرب بضرب عنق سعيد بن المسيب فما أنقذه إلا شهادة أحد الرجال بأنه مجنون فأخلوا سبيله، وكذلك محمد بن أبيّ بن كعب وعبد الرحمن بن أبي قتادة ومصعب بن عبد الرحمن بن عوف وأبو حكيم معاذ بن الحارث الأنصاري الذي أقامه عمرو يصلي بالناس وولدان لزينب بنت أم سلمة وزيد بن محمد بن سلمة وسبعة من أخوته.

ويمضي مشهد القتل المؤبد، وبعد ذلك بعامين يتولى المختار بن أبي عبيد الثقفي حز رؤوس قتلة الحسين وهم: شمر بن ذي الجوشن وخولي بن يزيد وعمر بن سعد وفي العام الذي يليه يقتل مصعب بن الزبير بن العوام المختار بن أبي عبيد وجماعة من أصحابه ويحتز رؤوسهم ثم يأمر بقطع كف المختار ويسمرها الى جانب المسجد فتظل معلقة حتى يجئ الحجاج بن يوسف الثقفي ويأمر برفعها.

ويستمر القتل ويستحر بين أبناء الصحابة الذين عاصروا المشاهد الأولى لإقامة دعوة الإسلام، يستمر القتل وحز الرؤوس فما إن تأتي السنة الحادية والسبعون للهجرة النبوية حتى تقطع رأس مصعب بن الزبير بن العوام وتوضع بينْ يدي عبد الملك بن مروان في دمشق كما تقطع رأس أخيه عبدالله بن الزبير بن العوام بعد سنتين ويصلب بجوار الكعبة في مكة المكرمة المحرمة لعدة أشهر، أو كما يصف المؤرخون " بعث الحجاج بن يوسف الثقفي الى عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أمية بما وقع ويعث برأس الزبير مع رأس عبد الله بن صفوان وعمارة بن حزم إلى عبدالملك ثم أمرهم إذا مروا بالمدينة أن ينصبوا الرؤوس بها ثم يسيروا الى الشام ففعلوا ما أمرهم وأرسل بالرؤوس مع رجل من الأزد فأعطاه عبد الملك خمس مائة دينار ثم أمر الحجاج بجثة ابن الزبير فصلبت على ثنية كدا عند الحجون بمكة المكرمة – المحرمة – التي لا يجوز الصيد فيها!!

ويعلق عبد الملك بن عمير قائلا: دخلت على عبيد الله بن زياد وإذا برأس الحسين بن علي على ترس فوالله ما لبثت إلا قليلًا حتى دخلت على المختار بن أبي عبيد وإذا برأس عبيد الله بن زياد بين يدي المختار على ترس ووالله ما لبثت إلا قليلًا حتى دخلت على عبدالملك بن مروان وإذا برأس مصعب بن الزبير على ترس بين يديه.

و إذا تأملنا كل هذه الدماء والاندفاع الجارف للقتل وحز الرؤوس وفق منطق التاريخ ومقتضيات السياق الثقافي والاجتماعي لهذه البيئة من جزيرة العرب فإن الأمر تفسيره مقبول وطبيعي، فمن عادة العرب أن تهاجم القبائل بعضها بعضًا ويأخذون في القتل والسلب والنهب وسبي النساء واسترقاق الأطفال وربما يكون القتل بين بعض البطون أو الأفخاذ في القبيلة الواحدة، والقارئ لأيام العرب في الجاهلية يجد ذلك متاحًا وميسورًا، فمثلًا هذا يوم السلان وكان لبني عامر على النعمان بن المنذر ، فقد كان للنعمان بن المنذر في كل عام عير "قافلة" تحمل المسك لتباع في سوق عكاظ فتعرض لها بنو عامر فغضب لذلك النعمان، وبدأت الاستعدادات للمعركة وبدأ الأسر والقتل، وكل أيام العرب تقريبًا تبدأ هكذا كيومي أوارة الأول والثاني ويوم اليحاميم ويوم حليمة ويوم بزاخة وغيرها الكثير من الأيام، ويمكن قياس أيام العرب في الإسلام على أيامهم في الجاهلية وفق سياقهم التاريخي والثقافي كيوم بدر والذي أعلن عن ابتدائه زعيمهم الجديد محمد بن عبدالله نبي الله ورسوله – صلى الله عليه وسلم – ابتدأ النبي هذا اليوم وكما جاء في سيرة ابن هشام بقوله: هذه عير " قافلة " قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها. ومعنى ينفلكموها أي يجعلها الله لكم وتستولون عليها، تماما كما حدث في يوم السلان الذي كان لبني عامر على النعمان بن منذر.

إلا أن يوم بدر وغيره من أيام العرب في الإسلام لا تقرأ ولا تدرس

ولا تفهم كسياق تاريخي وأحداث وقعت لها أسباب ومقدمات وحوافز وأعقبتها نتائج مفهومة وواضحة أدت إلى تغييرات ومسارات جديدة يحياها الناس في أزمان جديدة ومتغيرة؛ ولكن تقرأ وتدرس وفق السياق المقدس والذي شارك النص القرآني المقدس في الإشارة إليه ودخل في صميم العبادة والعقيدة والإيمان بالله.. بالمطلق..بالغيب. فأيام العرب في الإسلام لم تعد تقرأ أو تفهم وفقًا لسياق التاريخ ومجريات الأحداث وكل ما هو نسبي ومتغير مع العلم أن حروب العرب بعد الإسلام ليست إلا امتدادا لحروبهم قبل الإسلام إلا أن وحي السماء ومشيئة رب السماء والأرض تدخلت في القتال وأصبح المقتول والمسلوب والمسبي والمغدور في النار يعاني من سخط الله ولعنته بينما يتمتع القاتل والسالب والناهب من الذين أباح لهم الرسول دماء أعدائهم وأموالهم بقوله " من قتل قتيلًا فله سلبه " أصبح القتلة من جيش الإسلام في رضا الله وعنايته ومن مات منهم يتمتع في جنانه بأنهار الخمر والعسل ويستمتع بما شاء من النساء الحور العين والولدان المخلدين القائمين بالأباريق على خدمة أهل الجنة المتكئين على الأرائك وفوقهم تتدلى عناقيد الفاكهة من العنب والرمان والسدر ولحم الطير سعداء في معية الخالق.

و ها نحن نعثر على صدى هذه المعتقدات وبعد أكثر من اثني عشر قرنًا من غزوة بدر في رسالة عبدالله بن سعود قبل القبض عليه وإرساله إلى الأستانة لتحز رأسه هناك، ها نحن نقرأ هذا الصدى في رسالته إلى المقيم البريطاني في منطقة الخليج سنة ١٨١٧ ميلادية – ١٢٣٢ هجرية عندما أغار أعوان عبدالله بن سعود من قواسم رأس الخيمة على السفن التي تبحر في مياه الخليج تحت الأعلام البريطانية وقد أمره المعتمد البريطاني بإعادة الغنائم والمسروقات التي أخذوها من السفن، نقرأ قوله " كيف تطلب منا أن نرد ما غنمناه من أعدائنا من أهل مصر وجدة

واليمن وشحر والمكلا ومسقط والبصرة وأهل فارس التابعين لسعيد بن سلطان، إنهم كلهم أعداؤنا فسنقتلهم حيث ثقفناهم تنفيذًا لأوامر الله فيهم. الله أكبر " هذا بينما يبدي الأمير ابن سعود للمقيم البريطاني بروس استعداده للعمل سويًا لتجديد الاتفاق المبرم في ١٨١٤م وأن تقام معاهدة بين الطرفين ينص فيها صراحة على عدم مساندة البريطانيين لأعداء الوهابيين معبرًا عن أمله بأن لا يعكر حادث نهب السفن التابعة للحماية البريطانية علاقات الصداقة بينهما.

ألا يذكرنا ذلك بسهم المؤلفة قلوبهم من أمثال سهيل بن عمر وأبو سفيان بن حرب من كفار قريش الذين كان يخطب الرسول مودتهم ويسترضيهم بأموال الغنائم المسلوبة من ضعفاء القبائل في محيط مكة والطائف ويثرب ويعطيها لصناديد الكفار ليأمن شرهم ويضمن حيادهم على الأقل في حروبه مع قبائل العرب الأخرى، فبريطانيا ومندوبها في الجزيرة العربية من المشركين وكذلك سهيل وأبو سفيان من الكفار، وكل هؤلاء وأمثالهم وادعتهم شريعة الإسلام وثقافته واسترضتهم وقدمت لهم التنازلات فهوت سيوف المسلمين على المستضعفين والتعساء من أبناء القبائل الصغيرة قتلا وسبيًابدعوى قتال الكفر وتطهير جزيرة العرب التي قال رسولها أنه لا يجتمع على أرضها دينان!!

و من الغريب أن جزيرة العرب هذه والتي جاهد الرسول وصحابته من بعده في تطهيرها من الشرك والكفر – حسب سياق الدعوة الإسلامية من الغريب أنها رجعت إلى عاداتها وشرائعها ومعتقداتها التي كانت عليها قبل الإسلام، هذا مع ملاحظة أن سلطة القبيلة وسيادتها داخل نجد والحجاز ظلت كما هي طوال الوقت إن قبل الإسلام وإن بعده على حد سواء.

فهذا مسعود الندوي في كتابه عن محمد بن عبدالوهاب، يصف الجانب

الديني في جزيرة العرب بعد أكثر من أحد عشر قرنًا من دعوة الإسلام قائلًا: أما الدين فقد غشيته سوداء، فألبست الوحدانية التي علمها صاحب الرسالة ستارًا من الخرافات وقشورًا من الصوفية وخلت المساجد من أرباب الصلوات، وكثر عدد الأدعياء الجهلاء، وطوائف الفقراء والمساكين يخرجون من مكان إلى مكان يحملون في أعناقهم التمائم والتعاويذ والمسابح ويوهمون الناس بالباطل والشبهات ويرغبونهم في الحج إلى قبور الأولياء ويزينون لهم الشفاعة من دفناء القبور، وصار يشرب الخمر والأفيون في كل مكان وانتشرت الرذائل وهتك ستر المحرمات على غير خشية أو استحياء، ونال مكة المكرمة والمدينة المنورة ما نال غيرهما من سائر مدن الإسلام فصار الحج المقدس الذي فرض على من استطاعه ضربا من المستهزءات.

و عن الحالة الدينية في مناطق نجد داخل جزيرة العرب يقول الندوي: في وادي حنيفة كان يعبد قبر زيد بن الخطاب وفي الدرعية كانت توجد بعض القبور والقباب التي تنسب إلى بعض الصحابة وكانت مراكز للتعبد الجاهلي، وفي وادي غبيرة كانت قبة ضرار بن الأزور سوقًا للبدع والأوهام وفي بليدة الفداء كانت النساء العاقرات يباشرن مع شجرة قديمة لطلب الأولاد، وعلى مقربة من الدرعية وعند غار هناك كانت ترتكب الفواحش المخزية ومن أراد الاستزادة يمكنه الرجوع إلى كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر النجدي.

ويصف الندوي الحالة السياسية لجزيرة العرب في منتصف القرن الثاني عشر الهجري بالقول: كانت نار الحرب الأهلية متأججة في جميع أنحاء نجد، كان بنو الخالد مسيطرين على جبل شمر في الشمال في قبيلة طئ والإحساء، وفي الدرعية كانت قبيلة عنزة ترسخ أقدامها، وفي منفوحة قامت إمارة دواس، ونجد مع صغره وضيق أطرافه كان موزعا

بين دويلات وإمارات عديدة، يقول عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم في كتابه صراع الأمراء " لم يشهد التاريخ قبل عهد الدولة السعودية الأولى ومنذ عصر الفتوحات الإسلامية أي غزوة أتت الخليج العربي من نجد أو من اتجاهها وكانت نجد طوال هذه الفترات إمارات مدن ومشيخات وقبائل لا رابط بينها إلا ما جرى به العرف.

هكذا عادت جزيرة العرب بعد صدر الإسلام إلى سابق عهدها وظلت هكذا حتى قامت الحركة الوهابية بتحالفها مع الدولة السعودية وقام اتفاق بين محمد بن عبدالوهاب ومحمد بن سعود حاكم الدرعية أصبحت الدرعية به منارة للدعوة ودخلت بموجبه حلبة الجهاد لنصرة الدين وذلك في سنة ١٧٧٥ ميلادي، وسيطر هذا التحالف الجديد على معظم أرجاء الجزيرة العربية وتم بمقتضاه إعادة فتح مكة والمدينة والطائف وضم مناطق الإحساء وغيرها إلى أن اصطدم هذا التحالف مع الدولة العثمانية الذي استنجد سلطانها بحاكم مصر محمد علي فأرسل ابنه طوسون ثم إبراهيم للقضاء على هذا التحالف وتم له ذلك في سنة ١٨١٨م بهدم عاصمة الدولة السعودية الأولى في الدرعية، وفي وصف هذه المواجهة يقول الندوي: جعل محمد علي قيمة كل رأس من الوهابيين ستة دولارات وعندما وقعت أكوام الجثث المرسلة من ينبع إلى السويس أمام محمد علي طلب بالاكتفاء بآذان القتلى دون جثثهم، وأما عن مصير ابن سعود فإنه أرسل إلى الإسكندرية ومن هناك إلى الأستانة فصلب هناك هو وأصحابه في ١٧ ديسمبر سنة ١٨١٨م – ١٨ صفر ١٢٣٤هـ في فناء أيا صوفيا وعلقوا على المشانق بعدما طيف بهم بكل إهانة في عاصمة دار الخلافة.

ويستمر القتل والنهب ساريا تحت مبررات الدين والعقيدة، وما حز رأس صدام حسين ليلة العيد والمقتلة العظيمة القائمة بالعراق والصومال وأفغانستان عن ذلك ببعيد وكذلك ما وقع من حروب مع الفرس في إيران

أو في العراق وعلى أطراف نجد في الكويت وحفر الباطن، بل إن معارك فتح مع حماس وابن لادن وحزب الله وكل ما أبَّ منها من تنظيمات وتشكيلات لا تفتأ تتكئ على الدين ومنطلقات الجهاد المقدس سبيلًا وسقفًا لإتمام رسالتها.

... وبعد.. ألم يُقتل سعد بن عبادة مغدورًا بسبب رفضه البيعة لأبي بكر في السقيفة بعد موت الرسول؟ ولم يخجل العرب من اتهام الجن والعفاريت بقتله في زمن عمر؛ بل نسبوا إلى الجن شعرًا في قتل سعد بن عبادة!؟ وألم يشارك محمد بن أبي بكر في قتل عثمان بن عفان مع ثلاثة عشر رجلًا من أتباعه وأخذ بلحية عثمان حتى سمعت وقع أضراسه قائلًا له: على أي دين أنت يا نعثل، وذلك حسب رواية بن عساكر!؟ وكذلك ألم يقتل مروان بن الحكم طلحة بن عبيد الله في موقعة الجمل!؟ وكذلك ألم يقتل عمر بن جرموز الزبير بن العوام ويحتز رأسه في الجمل أيضًا!؟ وألم يقتل زياد بن حفصة التميمي عبيد الله بن عمر!؟ ألم يقتل أبو غادية وابن جوى عمار بن ياسر!؟ وألم يقتل معاوية بن خديج محمد بن أبي بكر ويحرقه في بطن حمار!؟ وألم يُقتل الأشتر النخعي مسمومًا وهو في طريقه لولاية مصر، قتله أعوان معاوية بشربة عسل مسمومة حتى صارت مضربًا للمثل لدى العراقيين والشوام عندما قالوا: إن لله جنودًا من عسل.. حقًا إن لله جنودًا من عسل!!

وبعد كل هذا وقبله، ألم يمت رسول الإسلام نفسه بسبب أكلة من شاة مسمومة وذلك حسب قوله قبيل وفاته عندما جاءت أم بشر بنت البراء بن معرور إلى الرسول تزوره في مرضه الأخير وهي التي مات أخوها فورًا عندما أكل مع الرسول من الشاة المسمومة التي قدمتها زينب بنت الحارث امرأة سلام بن مشكم بعد مقتل زوجها وأخيها في خيبر، فقد جاء في سيرة ابن هشام أن ابن اسحاق قال: حدثني مروان بن عثمان بن أبي

سعيد بن المعلى قال:كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد قال في مرضه الذي توفي فيه، ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده: " يا أم بشر إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك في خيبر " والأبهر كما جاء في المعجم الوسيط هو الوريد الذي يحمل الدم من الجسم إلى الأذين الأيمن من القلب.

انقطع أبهر الرسول ومات من أثر السم الذي دسته امرأة ثاكلة فجعت في زوجها وأخيها أمام عينيها فأقدمت على قتل الرسول فمات صاحبه بشر بن البراء في الحال وظل السم ينخر في جسد الرسول حتى مات بسببه بعد عامين.

و الغريب أن كل هذه الدماء والقتلى والرؤوس المحزوزة تملأ جنبات التاريخ الإسلامي إلا أن أحدًا لم يتوقف لتفسير ذلك وخصوصًا أن القتل والغدر والغيلة نشبت بين أتباع رسالة دينية سماوية طرأت على تاريخ وجغرافية الشرق الأدنى في القرن السابع الميلادي وانتشرت في مستعمرات الإمبراطوريات القديمة المنهارة وخصوصًا الرومان والفرس.

و قد تكون عقيدة المؤرخين أجبرتهم على مثل هذا التناول للأحداث، فعندما يقتتل الرسول وصحابته مع أهل الطائف أو مكة وما حولهما من القبائل يكون الحق المطلق في مواجهة الباطل المطلق وتجد تعليقات وافرة وتعقيبات فياضة بشأن جيش المؤمنين أو جيش الكفار والمشركين؛ ولكن عندما يقتتل الصحابة وأبناؤهم مع بعضهم البعض فرادى أو جماعات، وعندما تدور الفتن والمؤامرات والغدر فيما بينهم لا تجد وصفًا صريحًا أو تعليقًا واضحًا وربما تعمدوا إخفاء بعض الجوانب بالسكوت التام دونما تعليق، فلم يحدثنا ولا واحد منهم عن السبب وراء قرار كبار الصحابة بدفن الرسول في غرفة نومه ببيت السيدة عائشة، ولم يقل أحد

منهم كذلك لماذا قرروا دفن صاحبيه أبي بكر وعمر معه في نفس الغرفة بينما أوصت صاحبة الغرفة ابن أختها عبدالله بن الزبير قبل موتها بألا تدفن في هذه الغرفة؛ بل في مقابر البقيع!!

لماذا هذا الاتفاق التام على الصمت!؟ فهل كان من طبيعة العرب وعاداتهم أن يدفنوا موتاهم في مكان نومهم وإقامتهم ومعيشتهم أم أن في الأمر شيئًا لا يريدون البوح به تصريحًا أو حتى تلميحًا!؟ وإن كانت لدى العرب سابقة في دفن الموتى بهذه الطريقة فما هي وما ظروفها وملابساتها!؟

و أمثال ذلك كثير في كتب مؤرخي تلك العصور، ومنه لماذا دائمًا كانت ترسل الرؤوس المقطوعة مع رجال من قبائل الأزد غالبًا!! هل تم ذلك بالصدفة أم أن في الأمر شيئًا!؟ ولماذا كل هذه الرغبة العارمة في التدمير والقتل لدى المختار بن أبي عبيد والحجاج بن يوسف الثقفيين!؟ والكثير الكثير من مثل هذه التساؤلات التي تستلتزم للإجابة عليها الدراسة الدقيقة لحياة العرب ومجتمعهم وعاداتهم وشرائعهم وقبائلهم وأسباب تناحرهم وأسباب فخرهم وعزهم وذلهم وما إلى ذلك من دقائق حياتهم ثقافيًا ودينيًا واجتماعيًا وعسكريًا، نعم ينبغي كل ذلك حتى نفهم تاريخهم ونقف على دوافعهم وبواعثهم قديمًا وحديثًا.

كل ذلك ينبغي القيام به حتى نفهم السر وراء كل هذه الدماء المراقة وتلك الرؤوس المحزوزة التي تجوب عواصم البلاد الإسلامية ويتفجر صداها في جنبات التاريخ عبر العصور.

## الحاجة إلى الدين
## سلطة التقديس والنص

ثمة كائن "معني" اسمه الإنسان يقبع في العميق تحت تراكمات الزمن.. هناك مجردا من السلطة التي تأبدت به على مر التاريخ.. ناهيك عن السلطة الأشد فتكا كونه كائنا يصخب دمه بالغرائز والنزعات التي لا تنهد طالما هو يمشي في الحياة سعيا وراء رغبة " ما " تتجسد في تبديات شتى لا تكف عن التغير والتلون.

والتقديس سلطة تهيمن على الذات الإنسانية، تنفذ في كلية فعالياتها " روح، إحساس، فكر " وماهية هذه السلطة تعتريها إشكالية مربكة يجسدها السؤال التالي.. هل للقداسة بوصفها سلطة كيان وحقيقة خارج متناول الذات الإنسانية؟ سواء تجلت في ذات فرد أو جماعة، بطريقة أخرى هل شرط تحقق القدأسة هو النشاط والخبرة الإنسانية داخل حدود الزمن أم بالإمكان تصورها منزهة سرمدية في ذاتها؟

من الواضح أن حصاد التجارب البشرية هو الذي يجسد المفاهيم ويعطيها معانيها، وهذا الأمر يشمل القداسة ذاتها ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ الآيتان ١١٨، ١١٩ من سورة هود.

لأن القداسة لو كانت سلطة فكيف تتحقق بمنأى عن مجسديها؟"...

ولذلك خلقهم... " بعيدا عن متناول الوعي الإنساني ويصبح المفهوم كأن لم يكن وندخل في رحابة تساؤل آخر.. كيف نؤمن بما لا نعي؟!

فالإنسان لم يتوقف عن محاولته إنشاء الأساطير وتشييدها وهذا يحكم مسيرته في العالم فيما فات وفيما سيأتي، والأسطورة في أبسط تعريفاتها – وأعمقها – هي محاولة لفهم العالم واستيضاح ما غمض من ظواهره، وأصحاب منطق الأسطورة في تفسير التاريخ يرون الكتب السماوية محاولة في هذا السياق وربما تكون أكثر كلية واستجابة لأسئلة الإنسان بشأن وجوده ومآله. ويدعمون منطقهم بأن هناك أمما كثيرة مازالت حتى هذه اللحظة تباشر الحياة وفق أساطيرها خارج نطاق الكتب السماوية ( الهند.. الصين، مثلا ) والأمر المؤكد في هذا السياق أن هناك ضرورة مؤيدة في احتياج الإنسان لأسطورة كلية وانخراطه في مقولات تفسر له الأشياء وتهدئ مخاوفه بشأن مسيرته ومآلها، إلا أنه في القرون الأخيرة من التاريخ الإنساني بزغ العلم وخاصة التجريبي ربما ليأخذ مكان الأسطورة للقيام بتلك المهمة في حياة البشرية.. ومن أهم سمات الأسطورة التي تقدسها الجماعة ( الأمة ) أن تستبد تلك الأسطورة بحياة معتنقيها ويباشرون الحياة وفق مقولاتها ومن شذ منهم يعاني النبذ ويتلقى لعناتهم.. ومهما يكن فإننا لا يمكن أن نتحاشى الفرق الأساسي بين جوهر الأسطورة والعلم إذإن الأسطورة لا تقف عند حدود المادي والمتعين من حياة معتنقيها بل تضرب بالغيب و( ما بعد الحياة ) بينما يتوقف العلم في نطاق الظاهرة المادية، يفك عناصرها ويبنى عليها إنجازاته بشأن تحقيق المسرة وإجابة طموحات الجماعة، ولذا لن يستطيع العلم أن يشغل مكان الأسطورة إلا إذا تدارك هذه المسألة وتجاوب مع كل طاقات الإنسان وخاصة الوجدانية والروحية وربما يكون قد شرع في ارتياد هذا الأفق من خلال الحدس والافتراضات كأفق ما خارج نطاق

المادي والمتعين.

الاختلاف إذًا حتمية والقداسة تنسف الاختلاف ولا تقر به والإنسان وفق معتقداته أيًا كانت مدفوع للاختلاف والقداسة معا وهذا جوهر محنته، أن يحمل هذا التناقض ويحيا به!!

لكن أليس بالإمكان تقديس الاختلاف؟! محاولة ما لاستئناس التناقض والتغلب على شراسته.. ربما تكون محصلة السعي الإنساني في كليتها تسير وتطمح في تشييد قناعة كهذه، ولكن الأمر يتطلب خبرة أعمق وأطول وتواريخ أخرى للسير الإنساني وربما كان لطبيعة الفعل في الجملة القرآنية دور في طموح كهذا، أعني كشف أفق أمل في استئناس هذا التناقض، أقصد الفعلين ( خلق، جعل ) في الاستخدام القرآني للإحاطة بهذا الأمر " ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا.. وجعل بينكم مودة ورحمة "، " يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا... "، " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة... "، " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة... "

المحنة الإنسانية لا تتجلى إذًا في الخلق ولا تكمن فيما هو حتمي ولا قرار للتجربة بشأنه " خلق لكم من أنفسكم أزواجا ".. " فلينظر الإنسان مما خلق... " لكن المحنة الحقة والتجربة القاسية المورّثة للشقاء أو عكسه تكمن في نطاق الفعل ( جعل ) وهو ما يستطيع الإنسان أن يتصرف بشأنه ويشكل جوهر تجربته الذاتية " جعل بينكم مودة ورحمة ".. من الملاحظ أن الإنسان لا ينخرط تحت مشيئة المودة والرحمة بل قد ينخرط في النقيض، وكذلك مسألة جعل الناس أممًا أو أمة واحدة، إنه طموح تبدو مشروعيته وإمكانية حدوثه وهذا ما يدفع التجربة الإنسانية في التفاعل والحركة مخلفة غبار المحنة أو السلم.. وكذلك قبول رسالة الخلافة في

الأرض أو رفضها.

وفي غياب اليقين وأقصد به حالة انعدام الإجابات على التساؤلات الإنسانية بشأن الاحتمالات المسكوت عنها في مسألة الخلق والمصير. في هذه الحالة تنهض مؤسسات عديدة تشمل كافة الأنشطة الإنسانية في التاريخ والسياسة والمجتمع وحتى الدين نفسه لتقدم الأجوبة التي تراها وتدافع عنها بل وتفرضها بشكل قاهر يمثل سلطة يصطدم بها كل فكر لا يقرّ قناعاتها.. وأسوق المثال التالي لتبيان الأمر.. بشأن مسألة الاستخلاف في الحياة إما أن يقوم بها الإنسان أو يرفضها.. [ هل بالإمكان رفضها؟!!] بمعنى أن يأخذ موقف السماوات والأرض والجبال " إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ". فكيف يكون المصير إذًا في هذه الحالة؟! وإذا كانت للتساؤلات في مسألة الخلق بعض الشراسة فالحال أشد وطأة بشأن مسألة المصير إذ إن اليقين الديني في الإسلام حاسم ولا يستمد مفرداته من واقع حياة البشر حيث الجنة أو النار إذ من الواضح أن الحديث يتناول منطقة خارج نطاق الوعي البشري القائم على الخبرة التاريخية، وبالتالي جاء تشكيل هذا المصير وفق هذا المنطق.. ففي كل الاحتمالات من المستحيل استحضار هذا المآل وفق خبراتنا التاريخية.

إن النصوص المقدسة ( العهد القديم والجديد والقرآن الكريم ) قد حظيت بالاهتمام والحفاوة من جانب معتنقيها كما لم تحظ بها نصوص أخرى على مدار التاريخ الإنساني وخاصة القرآن الكريم حيث قرر النص نفسه أن الاهتمام به وتداوله من صميم العبادة.. وهذا التواتر في الحفاوة والتداول يجعل من الصعب مقارنته بأية نصوص أخرى إلا أننا يمكن أن نجري مقاربة لتمثل معنى القداسة ومنبعها وبواعثها إذا تصورنا الأثر الذي يحدثه مثلا النشيد القومي لأمة ما وحالة الشجن الذي يثيرها في

نفوس المنتمين إليه واضعين في الاعتبار أن النشيد القومي لا يملك أية آفاق ميتافيزيقية ولا أية روافد للمآل الفردي الذاتي فهو ليس أكثر من محاولة لخلق حالة توحيد جماعية.. يخيل إليّ أن معظم بواعث القداسة التي يحملها النص الديني والتي تثير غالبية نفوس معتنقيه ليس مبعثها التدبر والتأمل فيما يحمل النص من معاني بشأن الحياة ( الخلق / المآل) بقدر ما تعتمد على مجرد التواتر والتداول الجماعي الكاسح الموحد للجماعة.. في حين أن النص المقدس لا يعتني بهذه الحالة في الدرجة الأولى.. إنه نص للتأمل والدراسة " أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها "... " وقرآنا فرقناهُ لتقرأهُ على الناس على مُكْثٍ ".

من الملاحظ أن نهوض المؤسسة الدينية القائم على اجتهادات الأسلاف وآرائهم وكذلك ممن يتقدمون الأمة المتدينة بصفتهم الواعين والفاهمين للنص.. هذا النهوض المقدس للمؤسسة الدينية أجهض الكثير من المقاصد التي يبتغيها النص وأقصد الاشتباك الذاتي والتأمل الفردي لمحتوى هذه النصوص والبلوغ للمعنى الكلي والحكمة القابضة بكل مسارات النص ومعانيه الجزئية.. مع العلم أن هذه المؤسسة قد صارت سلطة تدعمها وتحرص عليها السلطة السياسية ربما لما يحتويه النص المقدس من إمكانيات هائلة تبعث على التحرر والانعتاق من الخوف هذه الإمكانيات ذاتها يمكن توظيفها في الاتجاه النقيض.

إن حاجة الإنسان للدين تكمن في انقهاره وعجزه أمام الموت كظاهرة مؤبدة لا يملك شيئا حيالها.. وإذا كان العلم التجريبي مازال ينقب ويحاول في مسألة الخلق والتخليق وبلوغ الظواهر الكونية ومحاولة الإحاطة بها وأن إنجازاته في هذا الشأن تبدو مشجعة ومحفزة للآمال، إلا أنه أمام الموت لا يستطيع التقدم إطلاقا.. وهنا تنشأ حتمية الدين.

المفاهيم حصاد الوعي بالتجربة الإنسانية التي تصوغ الوعي وتمنحه معالمه وهي لم تزل تتواصل ( كل يوم هو في شأن ).. ( ويخلق ما لا تعلمون ) ولذا ينبغي الإيمان بحتمية التغير والتطور في المفاهيم ذاتها وهذا المنطق ينسحب على كل الظواهر المادية والروحية بما فيها الدين نفسه! لكن هل من الضروري تحديد مفهوم الدين.. إن الأمر يبدو شديد الإرباك إذ أننا في حال تصدينا لمفهوم الدين نواجه ظاهرة ذات أبعاد كلية تستحوذ على مجمل النشاط الإنساني ماديا ووجدانيا وروحيا.. لكن في البداية يجدر الإقرار بأنه من المستحيل تصور وجود الدين بمعزل عن معتنقيه، بمعنى أن الدين هو ذلك التجلي لحياة معتنقيه.. إذ ما معنى تناول المستعصى والمستحيل عن الخبرة البشرية.

الدين يمكن أن يكون طبائع الناس المتحكمة حيال ما يواجهون في الحياة، وفي هذا السياق الناس على دين ملوكهم، وعلى أية حال لسنا بشأن رصد كل التداعيات المفاهيمية المحتملة للدين بقدر ما يعنينا التبصير بعلاقة السماء بالأرض عن طريق الإنسان، فكل المتدينين على اختلافهم يؤمنون بقوة ما تسيطر وتسيّر هذا العالم ولها تعاليمها المنوط بالجماعة الالتزام بها حتى وإن كانت هذه الديانة آخذة شكل تقديس جمادات أو حيوانات، وهذه الديانات تؤمن في الغالب بوجود حياة أخرى بعد الموت الذي ينظر إليه كبوابة للمرور إلى تلك الحياة.. وفي الحالة الإسلامية يعد الدين هو ذلك الوحي الإلهي متضمناً تعاليم الله للبشر من خلال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك كل ما أقره النبي في حياته من توجيهات وممارسات بشرية ولم يبدله وحي في حياة النبي.. المثير في هذه الحالة أن الزمن يتقدم، والله قد ألقى تعاليمه وانتهى الأمر وعلى معتنقي الدين تدبير أمورهم وفق فهمهم لذلك الوحي ومن هنا تتجسد الأزمة حيث حظيت بعض المفاهيم بقدر هائل من الذيوع والحفاوة ربما

بلغت حد الوحي ذاته أو ربما كانت كأنها الوحي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه. تعيش الأمة المتدينة تاريخها إذًا وفق مفاهيم بشرية لنصوص الوحي، والخطير أن استمرار هذا الأمر وتواتره من شأنه أن يقفل كل طاقات العقل والتفكير والبقاء على حالة جمود وحرمان البشرية من أزكى كنوزها في التفاعل وإقرار خبرات جديدة بلا شك كانت ستؤدي إلى مسارات جديدة أكثر رحابة وعمقا وخصوبة في مسيرة الأمة.. والباعث على تعميق الأزمة أن تلك الأمة المتدينة ليست الوحيدة على رقعة التاريخ الإنساني في اللحظة ذاتها وقد اكتسبت الأمم المجاورة خبرات مدنية أكثر تشعبا بل ربما سقطت عوامل الانعزال وإلى الأبد.. حال كهذه من شأنها أن تحول وضع الأمة ذات التفسير التاريخي والمقدّسة لاجتهادات أسلافها أن تعيش حالة فانتازيا مفجعة، فهي تتمسك بنص لا تعرف كيف تفهمه وكيف تستلهمه، ويتحول الوحي إلى ترانيم وشعائر ونسك مقدسة دونما أية أصداء أو فاعلية لهذا الوحي فيما تباشره من أمور على مستوى ذاتها كأمة لها متطلبات مادية وأيضا كأمة عليها أن يكون لديها ما يبرر حضورها على نفس الرقعة الزمنية للتاريخ الإنساني الآني وتجاور وتتفاعل مع أمم أخرى. بلا شك لا مفر من التبعية والعيش على إنجازات الآخرين دونما أي فهم أو توظيف للخصوصية على مستوى التاريخ أو الجغرافيا التي شكلت أمة بمواصفات هي بالضرورة تفردها عن غيرها.

وللخروج من حالة كهذه ثمة احتمالات ثلاثة.. إما أن يتأبد الوضع الحالي والذي يتخذ من التبعية وانعدام الهوية عنوانا له، وإما فصل مفاهيم السلف عن الوحي تماما وإيقاف استبدادها وسلطتها على انفعال الأمة بالحياة، وإما بالنظر إلى الوحي نفسه والوقوف أمامه نفس الموقف الأول الذي وقفه الأسلاف وهَدْم كل القداسات المفهومية للأسلاف تجاه النص والنظر إلى مفاهيمهم في إطار الخبرة الكلية للأمة والقابلة للتطور وفي

هذا الشأن الأخير ثمة اقتراحات قد نتعرض لها لاحقًا.

وبعد.. فما هو الدين.. إذا كان من المستحيل اعتبار الدين حالة سرمدية صمْدا لا تحتاج لطاقات الخبرة الإنسانية للتفاعل معها ومحاولة فهمها والوعي بها.. يبقى أن الدين - السماوي - لا يخرج عن كونه مفاهيم إنسانية للوحي في إطار حدود العالم وخبرات البشرية وأن هناك قوة تسيطر على العالم وتسيّره وأن الموت بوابة لحياة أخرى، وفي هذا السياق تبقى مفاهيم البشرية عن الوحي هي المعنى الحقيقي والفاعل للدين في إطار حكمة الخلق إذا كان هناك من حكمة!! ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾

" وله الدين واصبا "

" إن الدين لله فلا تدعوا مع الله أحدا "

" لكم دينكم وليَ دين "

فالتصور القرآني للدين إذًا رحب إذ من المحتمل أن لكلٍ دينا، بداية ممن يؤمنون به، وحتى الكافرين به، ولذا فمن الصحيح أن نتصور الدين على أنه مفهوم الإنسان عن العالم وعن نفسه وحتما أن لكل إنسان مفهوما لهذا الأمر.. والفارق هو مكان الإله من هذا الدين وموقعه.. والمشكلة الأكثر إرباكا في مسألة الدين الذي يأخذ الإله الخالق المسيطر موقعا مركزيا فيه هو الوحي.. إذ أن إيمان الأمة المؤمنة بالله تضعه في مكانة لا يدانيها أحد ممن خلق، فهو منزّه ومفارق عن كل ما تصل إليه حواس الإنسان بما فيها الفكر نفسه باعتباره حاسة كلية، فكيف يقدم الإله مفهوما عن ذاته وحقيقته بلغة هي من مقتضيات الوجود الإنساني ويزاولها في التواصل مع من حوله وصياغة مفاهيمه عن مفردات العالم والإحاطة به، إذ أن نفس اللغة سوف يصوغ بها الإله خطابه لبني البشر وهذه حكمة المفارقة

المدهشة، ولذا نحن نجد الإله عليم وحفيظ وسميع وبصير حسب لغة القرآن، بل أكثر من ذلك نجده يغضب بل ويندم كما في لغة العهد القديم.. إن اللغة أكبر العقبات في الإحاطة والإيمان بالخالق الإله، إذ لا يحس الإنسان بتعامله معها حالة تقديمها لحكمة الخالق من الخلق والتعبير عن حقيقته، لا يحس الإنسان بفرق كبير إذ إنه يستخدم نفس اللغة في انشغالاته اليومية للتعبير عن مواقف تعتريه في رحلته الحياتية.

القسم الثاني

# ويل للمحكومين بضمير الماكينة

# أسلمة الثورة المصرية

قال أحد زعماء التيار السلفي في مصر إن الثورة جاءت من عند الله، وهذا الشيخ الذي يملأ الدنيا ضجيجًا عبر القنوات الفضائية الممولة من بلاد النفط قبل رحيل مبارك ومن مصر بعد الثورة، يعلم أنه وأمه جاءا إلى الدنيا من عند الله وأن الشمس تشرق وتغرب من عند الله وأن كل ما يجري في الكون ما نعلم وما لا نعلم يقع بأمر الله، ويعلم أيضا أن كل ذلك يحدث بأسباب ولولا الأسباب ما حصلت النتائج ولكنه هو وزملاؤه وكل الخارجين من تيارات الاسلام السياسي يسكتون عن الأسباب حتى يظل الشعب فقيرًا مقهورًا في كل النظم، بل إن كثيرا منهم يعتبر الثورة على الحاكم والخروج عليه من قبيل الفتنة التي تستوجب استنفار طاقات الأمة لدرئها.

وليس خافيًا إن هذا المسلك في الدين مرجعه جزيرة العرب حيث أنظمة الحكم الوراثية والثروة النفطية الهائلة التي تحالفت مع الغرب ( بريطانيا قبل الحرب العالمية الثانية وأميركا في ما بعد ) هذا المسلك الوهابي في فهم الدين هو الذي ساهم في القضاء علي آمال التحديث والتطور والتمدن التي ظهرت بوادرها في مصر عقب حملة نابليون في مطلع القرن التاسع عشر وكذلك في بلاد الشام والعراق. فما الدين في نظرهم هم وحلفائهم سوى إحدى الوسائل الفعالة في قيادة الشعوب وسياستها سلما وحربا، ففي حين يعتبرون الخطابة والتبشير بحكومات التوريث في الجزيرة العربية من أعمال الشهادة، فإن الموت في سبيل

التخلص من الحاكم الظالم وأعوانه الفاسدين يعد من أعمال الإجرام والخروج علي الدين.

ومرجع ذلك كله لدي الجميع قول القرآن ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ فطاعة الحاكم الظالم في نظر البعض من سبل الله وكذلك طلب المعونة من بلاد الغرب للقضاء علي حكام العراق أو سوريا وليبيا هي من سبل الله الحقة، في حين يصبح الخروج والثورة على مبارك وآل سعود من سبل الشيطان وهذا يفسر لنا اللغط والجدل الذي غرق فيه العوام من جموع الشعب والذي يقف وراءه قادة السلفية ومشايخهم وذلك بشأن ضحايا الثورة المصرية من رجال الشرطة وجموع الشعب بمن فيهم بعض أنصار النظام القديم والمنضمون إليهم من الأشقياء وأرباب السوابق الذين هدهم الجهل والجوع والخوف والمرض!!

وعلى ذلك فالشهادة بالمفهوم الديني ( الإسلامي ) مدخل كبير للفتنة ومعول للهدم والتفريق بين أفراد الشعب الذين توحدوا وما زالوا في أيام الثورة المجيدة وسط ميادين وشوارع الاسكندرية والقاهرة والسويس والمحلة والمنصورة وكل أصقاع مصر المباركة ليذهب هؤلاء الفدائيون الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل وطنهم في المنطقة الرمادية بين الشك واليقين وحتي يكونوا عبرة لمن تسول له نفسه الإقدام على تلك التضحية في مقبل الأيام حيث الثورة ما زالت في الصفحات الاولى من كتابها والمتربصون بها في الداخل والخارج تزداد شراستهم بمرور الأيام وهم يراهنون على صلابة البسطاء من جموع الشعب وقوة احتمالهم في مواجهة اختفاء الأمن والمواد الغذائية وارتفاع تكاليف المعيشة تبعا لذلك، ربما ينصرفون عن جسد المظاهرة وينخرطون في دروب عجلة الانتاج التي يسيطر عليها اللصوص القدامى الجدد ممن يظنون أنهم قد

أفلتوا من المحاسبة.

وزعماء الإسلام السياسي من السلفية والإخوان المسلمين يعتقدون أنهم لو جاءوا بمجلس للنواب تحت سيطرتهم مع دستور يقلص من صلاحيات الرئيس فإن ذلك سيكون في صالحهم بغض النظر عمن يكون الرئيس ولذا تجاسروا على أن يخرجوا بلقاءاتهم ومباحثاتهم مع الأميركان من السر إلى العلانية، أليس هؤلاء الأميركان هم الطاغوت الأكبر حسب تعبيراتهم الكلاسيكية في السبعينات والثمانينات من القرن الماضي!؟ فكيف تحولوا اليوم إلى أصدقاء ومفاوضين في العلن تؤخذ منهم المشورة والنصيحة.

إنها لعبة المصالح السياسية ليس غير، فالأميركان ليس من صالحهم قيام نظام ديمقراطي حقيقي قائم على الحداثة والمدنية فذلك يعرض امتيازاتهم للخطر عندما تكون في مرمى قرار وطني منتخب بإرادة شعبية حرة، والمتأسلمون من صالحهم القفز على السلطة وإخراج مقولاتهم النظرية من كهوف الظلمة والنسيان إلى حيز التطبيق بسلطة البرلمان والديمقراطية التي انتخبتها الظروف الراهنة وهذا ما يفسر هذا التقارب الدافئ الحميم بين التيارات المتأسلمة وبين الإدارة الأميركية عقب نشوب الثورات الشعبية في مصر وتونس واليمن وليبيا وسوريا والتي من المؤكد أنها ستمتد في مستقبل الأيام في مراحلها التالية لتطال جزيرة العرب والجزائر والسودان وكل ذلك النطاق الاسلامي المجاور لها في أفريقيا واسيا، وطبعا لو فشلت الثورة في مصر وتونس وتم إعادة انتاج أنظمة مشابهة لما تم إسقاطه فإن ذلك من شأنه ألا يفتح شهية تلك النطاقات الشعبية التي أرهقها الفساد وتعزف عن الدخول في الثورات، فالجميع الآن يرقبون ما ستسفر عنه الثورات في مصر وتونس ومن بعدهما سوريا واليمن وليبيا حتى يحسموا أمرهم إما الثورة وإما الصبر على الفساد!!

يتحدث العرب والمسلمون كثيرا عن الطرق المستقيمة، ولا يسلكونها، ويملؤون المجالس كلاما كثيرا عن الأمانة والكرم والنبل ولا يلتزمون بشيء من ذلك، وربما يكون ذلك كله بسبب الأصل العشائري للعرب ومنهم قادة المسلمين الأوائل الذين استقرت أعرافهم وعاداتهم كتشريعات مقدسة فى الدين الإسلامى، ولذا صار من يقتل على شرائعهم ودفاعًا عن قناعتهم من الشهداء بينما القتلى من أعدائهم في النار وأموالهم غنائم ونساؤهم سبايا وأطفالهم عبيد، على الرغم من أنهم هم الغزاة والفاتحون المبادرون إلى القتال وسفك الدماء وتبعا لذلك كله يتم النظر إلى الشهادة والشهيد في المفهوم الديني، ومن أراد الاستزادة فعليه الرجوع إلى أيام العرب قبل الإسلام ففيها سجل حافل لأعرافهم التي اعتمد الإسلام كثيرًا منها شريعة في السلم أو في الحرب.

والثورة في مصر الآن يحاول العسكر والمتأسلمون ومن يظن أنهم ناجون من فلول النظام القديم، يحاول كل هؤلاء الصعود على كلكل الثورة وقيادتها وإخضاعها لمصالحهم وهم الآن يبحثون فيما بينهم عن مناطق الاتفاق بالتنسيق مع الأمريكان ليعرف كل منهم غنائمه ومناطق نفوذه في الكعكة المصرية بعد إزاحة حسني مبارك والمقربين منه، هؤلاء الذين أفزعوا قادة العسكر بكابوس التوريث الذي يضع رجال الميادين القتالية تحت سلطة أحد المدنين الفاسدين من رجال المال وعصابات السياسيين في الحزب الوطني الذين تحولت سياسة الشعوب في أيامهم إلى نوع من الدعارة والمقامرة!! وكأن العسكر تنفسوا الصعداء بقيام الثورة التي خلصتهم من هذا الكابوس وبعدها ها هم يحاولون أن يبقوا على أكبر قدر من امتيازاتهم بالضغط على الشعب وقادته الميدانيين في انتزاع دستور وبرلمان ونظام حكم يتيح لهم أكبر قدر من الامتيازات ويجنبهم الخضوع للسلطة المدنية المنتخبة كلما كان ذلك ممكنًا. وها

هم المتأسلمون يبدون استعدادهم للمضي معهم في هذا السبيل إلى أبعد مدى وذلك بانعزالهم عن جسد المظاهرة المطالبة بتحقيق أهداف الثورة وتحريض العوام من جموع الشعب المصري باسم الدين تارة وباسم الشعب وأمنه وقُوْته تارة أخرى.

وإذا استمرت الأمور في هذا الطريق بين أقطاب هذا الحلف القديم الجديد الذي خرج إلي العلن بعد الثورة المصرية ( حلف العسكر – المتاسلمون - أمريكا ) وإذا مضى هذا الحلف إلي مداه الأخير فسوف نسمع ونري في القريب من يلعن هذه الثورة ويدعوها بالابن اللقيط الذي لا يدعيه أحد.. ولكن هل يتخلى الشعب عن مظاهرته ويفسح الطريق أمام مخططات هذا الحلف؟!

# هدم الأضرحة وعقائد البدو

حسب مفهوم بعض جماعات الإسلام تُعتبر الأضرحة التي تضم أو تشير إلى بعض رجال الله الصالحين، تعتبر من رموز الشرك بالله وإضعاف العقيدة الإسلامية.. وأن احترام هؤلاء الأولياء والتقرب من خلالهم إلى الإله الواحد الذي عرشه في السماء من قبيل الشرك الصريح وفساد المعتقد، وعليه قام هؤلاء – عندما سنحت لهم الفرصة - بهدم هذه الأضرحة باعتباره عملًا جهاديًا من أعمال التوحيد وتصحيح العقيدة الفاسدة والعودة بالإسلام إلى منابعه التوحيدية الخالصة.. كل ذلك حسب مزاعمهم ومفاهيمهم الخاصة لرسالة الإسلام.

ولهؤلاء وأمثالهم أقول: إن هذه الأضرحة التي يهدمونها كانت قائمة بمصر قبل بعثة النبي إبراهيم ونسله النبوي المقدس.. وإن إبراهيم نفسه عندما جاء إلى مصر ومن بعده حفيده يعقوب وأبناؤه الأسباط وصولًا إلى موسى ثم عيسى وأمه مريم ومن بعيده تلميذه مرقص في القرن الأول الميلادي، كل هؤلاء عندما أتوا إلى مصر كانت بها أضرحة لأولياء الله الصالحين من أتباع الديانة المصرية القديمة، وعليهم أن يعودوا إلى مصر ومعالمها الأثرية وخصوصًا الجبَّانات ومعابد إيزيس المقدسة بامتداد وادي النيل عبر أكثر من ثلاثة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح الذي أتى من نسل إبراهيم النبي.

وعندما جاءت المسيحية فارضة نفسها بالقوة في النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي وجدت الأضرحة ومعابد إيزيس، وعندما جاءت

جيوش الإسلام بقيادة عمرو بن العاص كانت هناك الأضرحة موجودة، وقد أضيف إليها المزيد لقديسين مسيحيين، وما النزعة المصرية لإقامة الأديرة إلا استجابة لروح التصوف المصري الذي اعترض على نشر المسيحية بقوة السيف الروماني في القرن الثالث الميلادي.

وبعد قرون من استيطان العرب المسلمين لأرض مصر قامت أضرحة جديدة لأولياء الله من المسلمين في كل أنحاء مصر من سيدي براني في أقصى الغرب وحتى سانت كاترين في أقصى الشرق، ومن سيدي أبي الحسن الشاذلي في أقصى الجنوب وحتى سيدي المرسي أبي العباس في أقصى الشمال، وكل ذلك قد تم وفقًا للخضوع الطبيعي لسلطة المكان والشعب الذي يختار دينه ويحترم تعاليمه وأخلاقياته عبر العصور. وما زالت الأضرحة تُشاد عبر الحقب وحتى القرن الحادي والعشرين في أرجاء المعمور المصري وفقًا لمشيئة التدين المصري.

ذلك لأن التدين في مصر هو جوهر الهوية، والشخصية المصرية يقوم أساسها وعمودها الرئيسي على الدين الذي اكتشفه الشعب عبر آلاف الحقب، فكيف لا يصغي مثل هؤلاء النفر المتسرعين والمتسلحين بروح البدو والصحراء ممن يطلقون على أنفسهم لقب " السلف".. كيف يجرؤون على تدنيس المعتقد وفرض روح الله حسب مفهومهم بالقوة والبطش والهدم والصدام؟ والأولى لهم أن يتعلموا ويصغوا إلى روح المكان وأشواقه الحقيقية في التدين ومعرفة الله الحق.

لقد بدأ الإسلام في جزيرة العرب وشاد الكثير من تشريعاته وعباداته على عادات وأعراف كانت للبدو قبل مجيء النبي محمد، ومنها شعيرة الحج ذاتها وما تتضمنه من طواف حول حجر أسود في جدار ضمن غرفة مصمتة اسمها الكعبة.. أليس ذلك من وثنية العرب وقد أقرها الإسلام؟!،

وكلكم يعلم مكانة الحجر الأسود وتقبيله ومقولة عمر بن الخطاب في ذلك، أليس ذلك من الوثنية المحضة؟ فهل عندما جاء الوحي لنبي الإسلام بإقرار الطواف وتقبيل الحجر الأسود على شرائع بدو العرب.. هل كان الوحي تكريسًا لوثنية العرب أم أنه الرمز ومسالك ودروب الوصول إلى رب الأكوان.. وغير ذلك الكثير من تفاصيل ديانة الإسلام وما تحمله من أعراف وتقاليد بدو العرب في الزواج والطلاق والصلاة والصوم والجهاد وحتى تربية الأولاد ورعاية الدواب والمعاملات التجارية والملبس والمأكل والمشرب لكن ليس السياق هنا سياقها.

إن في مصر أضرحةً ومزارات للعارفين والكهنة في عصرها القديم، وفيها كذلك أضرحة ومزارات للعارفين من رجال المسيحية واليهودية والإسلام وكل ذلك في عباءة التدين المصري الذي نرى تجلياته وتجسيداته في تبني اللقطاء وعلاقات النسب والمصاهرة والمساهمة في تجهيز حياة الأزواج الجدد وكثرة الذهاب للحج والعمرة للقادرين من أهل مصر وتعاملهم مع مسألة الزكاة والصدقات والغنائم والخُمس والفيء وانصرافهم عن التثاقف والمعرفة في مثل هذه الأمور بينما نلمس شغفهم وحرصهم على متابعة سير الصالحين من الصحابة والعارفين بالله وأوليائه الصالحين، بل إن جموع الحاضرين والمشاركين في الليالي الكبرى لموالد أقطاب العارفين تفوق في أعدادها من يحتشدون في يوم الحج الأكبر على صعيد عرفات والمشاعر المقدسة في جزيرة العرب!!.

وقد كان الأجدر بمثل هؤلاء الذين يدَّعون السلفية أن يساهموا في علاج جراح الشعب الذي ظل مقموعًا ومهملًا طوال حقبة مبارك وما قبلها قبل ان ينخرطوا في التنفيس عن ذواتهم ودولتهم الخاصة التي تجسدت في قطع أذن أحد المواطنين بعد أن نصَّبوا من أنفسهم دولة وحكامًا، كما تجسدت في هدم الأضرحة ومعاداة روح التسامح والتدين

لدى المصريين.. إنهم بسلوكياتهم هذه ينضمون إلى فلول الحزب الوطني القديم وفلول أمن الدولة في مطاردة الشعب واستغلاله وتضخيم ذواتهم ومكاسبهم الخاصة كأفراد وجماعات على حساب الشعب الذي ألقت به المقادير في قبضة التعاسة والرجال المراوغين والطرق المتعرجة للوصول إلى الدولة المدنية.

ويا أيها السلفيون: أنصتوا إلى روح المكان وصوت التاريخ واطَّلعوا على سنن من كان قبلكم من المتشددين الذين ابتُليت بهم مصر عبر العصور.. فمنهم من حرَّم خروج النساء لسبع سنوات، ومنهم من حرَّم الجرجير والملوخية والترمس وهدَمَ المعابد والكنائس بدعوى التوحيد الخالص، ومنهم من قتل المتصوفة والزهاد... كل هؤلاء بادوا وذهبوا إلى النسيان وبقيت سير الصالحين والعارفين من نقباء الشعب وما زالت كراماتهم وبركاتهم تنمو وسط هذا الشعب المتدين والمخلص في إيمانه العميق بخالق الحياة والموت وراحم العباد من بشر وعجم وحجر.. فافهموا وارحموا أنفسكم وارحموا الشعب من عبثكم وقصور فهمكم وتدينكم السطحي المفتعل!!

## فقهاء النفط وفتاوى الضرورة

المصريون وقبل ظهور أنبياء الجذر السماوي في الديانات الإنسانية شعب متدين له عقيدة إيمانية تحكم نظرته للوجود وما وراءه، وعندما لجأ إليهم أبو أنبياء الجذر السماوي إبراهيم هو وامرأته؛ وجد شعبا له عقيدة ونظام، في الوقت الذي كان يجاهد فيه إبراهيم للإبقاء على حياته التي سوف تخرج منه لاحقا قبيلة يؤسسها حفيده إسرائيل (يعقوب) ويهرب بها إلى مصر ويمكث فيها أكثر من أربعمائة سنة يتعلمون فيها كيف يصيرون شعبا ويخلعون عباءة القبيلة، وجلد القبيلة، وشريعة القبيلة، وينخرطون في عباءة الشعوب وحضارتهم التي ساهمت في بقائهم حتى الآن.

هذا المختصر السابق تتفق عليه السير والقصص الواردة في العهدين القديم والجديد والقرآن الذي جاء به نبي الإسلام كآخر أنبياء النسل الإبراهيمي أصحاب الرسالات السماوية بعد مضي أكثر من ألفي عام على زمن إبراهيم.

المصريون شعب متدين قبل كل هؤلاء ولذا عندما فرضت عليه المسيحية الرومانية في القرن الثالث الميلادي تحت البطش والاستئصال لم يكن أمامه إلا أن يصبغ هذه الديانة الجديدة بمعتقداته الأساسية في الخلق والوجود والبعث والعلاقات الاجتماعية، وصارت للمسيحية في مصر كنيسة خاصة بها لا تتبع كنيسة روما كما كان لآباء الكنيسة المصرية اجتهاداتهم وإسهاماتهم المميزة بشأن المبادئ المؤسسة للإيمان المسيحي في العالم،

واتضح ذلك جليا في المحفل المسكوني الأول الذي انعقد في (نيقية) سنة ٣٢٥ م، ولهذا فإن من يسمون أنفسهم اليوم بالأقباط ما هم إلا مصريون ارتضوا المسيحية وفق معتقداتهم القديمة التي تربوا عليها من عهد أبي المصريين الملك مينا أي قبل أكثر من ٣٠٠٠ سنة على مجيء المسيحية إلى مصر.

كذلك فعل المصريون عندما جاءهم المسلمون العرب وفرضوا عليهم دينهم بسيوف الفتح والجزية بقيادة عمرو بن العاص، ثم بعد ذلك في زمن المأمون العباسي في القرن التاسع الميلادي عندما شطب العرب من ديواني العطاء والجند فاضطروا لمزاحمة المصريين في العمل وكسب العيش وبدأ التعريب في مصر على نطاق واسع، هذا مع العلم أن هوية المصريين تنتمي إلى عناصر أعمق من العرق واللغة، حيث تداخل المصريون مع كل أمم الأرض المعروفة من بدو الشرق والغرب الأفارقة في الجنوب، والفرس والإغريق والرومان في الشمال، كل هذه الأمم اختلط بها المصريون وهذا ما يفسر سمة التسامح والانفتاح وقبول الآخر لديهم عبر التاريخ، ولا أدل على ذلك من التفاتة هيرودوت عندما قال في رحلته إلى مصر في القرن السادس قبل الميلاد (إنك لتدهش عندما ترى أن بإمكان أي إنسان أن يصير مصريا).

وأي متأمل يمكنه أن يرى تميز إسلام المصريين وخصوصا في مسألة الزواج ودفن الموتى والصلاة، فالمصريون يؤمنون بالمساواة بين الرجل والمرأة حسب تعاليمهم القديمة التي توصي الآباء والأمهات بأن يمهدوا الحياة الزوجية لأبنائهم ذكورا وإناثا، ويؤسسوا لكل منهم بيت زوجيته ولذا تراهم في الإسلام يساهمون في زواج البنت والتكفل بنصف تكاليف زواجها أو أكثر، على الرغم من أن ذلك يخالف الفقه الإسلامي الذي يفرض المهر والنفقة على الزوج (الرجل)، كما أنهم يصلون في مساجد

بها أضرحة لأولياء الله الصالحين، ومعظم مساجدهم بل كل مساجدهم القديمة بها أضرحة على الرغم من نهي الإسلام صراحة عن ذلك وحكمه ببطلان الصلاة في أي مسجد ضم ضريحا، كما أن المصريين في الدلتا يدفنون موتاهم في غرف فوق سطح الأرض ولا يحفرون لهم لحودا في باطنها، وذلك له علاقة باعتقادهم العضوي بالبعث والحساب، وها أنت ترى مقابر المصريين القدماء عامرة بأسباب الحياة من حبوب وحلي وأدوات وعطور بل إن الجسد نفسه محفوظ ومهيأ للبعث.

ذلك هو الدين المصري، وعليه؛ فإن ما يدعيه من يسمون أنفسهم بالأقباط لا أساس له من الحقيقة، فما هم إلا مصريون طوعوا الديانة الجديدة لتتماشى مع معتقدات آبائهم وأجدادهم ومن يسمون أنفسهم بالمسلمين ما هم إلا مصريون استوعبوا الديانة الأحدث التي فرضت عليهم من عرب الجزيرة وطوعوها لمعتقداتهم القديمة، ذلك لأن جذر الديانات السماوية الذي أسسه إبراهيم وبنى عليه أنبياء إسرائيل بداية من يعقوب وانتهاء بيسوع الناصري، كل هؤلاء خرجوا من رحم الديانة المصرية عقب ٥٠٠ عام قضاها النسل الإبراهيمي منذ أبيهم إبراهيم وحتى هروب موسى من مصر صوب فلسطين وتلقيه التوراة في شرقها السيناوي، ومن بعده الحفيد يسوع الذي فتح الأفق لخروج آخر النسل الإبراهيمي من أرض العرب بالرسالة الأخيرة منطلقا من شعاب مكة ويثرب في عمق جزيرة العرب، إذن فكل هذه الرسالات نشأت في حجر الديانة المصرية، وتكونت وسط ثقافة وحضارة المصريين على مدى خمسة قرون قبل أن تظهر إلى الوجود في تجليها الأول في العهد الموسوي القديم.

الآن وبعد كل هذه الأصول والمقدمات يخرج علينا الشيخ يوسف القرضاوي خطيبا باسم الرب ومحرضا على الثورة والرباط والصمود في وجه حسني مبارك ومن بعده القذافي على أرض ليبيا، ويحل دمه ويحرض

على قتله باسم الدين الإسلامي مع العلم بأن هناك ثائرين آخرين على حكام آخرين على مرمى حجر من قعدته الهنيئة المريئة في أرض قطر ولا يجرؤ أن ينبس ببنت شفة في حقهم بل ويا للعجب نسمع شيوخا أمثاله في بلد مجاور يفتون بحرمة المظاهرات وحرمة الخروج على الحاكم بينما يبقى القرضاوي صامتا تماما وكأنه لم يسمع، هذا الشيخ المريب العجيب الذي يأبى الله تعالى ألا ينقضي نحبه قبل أن يستبين الناس أمره وتنكشف حقيقته ويعلم المخدوعون به حقيقة إيمانه، أليس هذا الإسلام الذي ينطلق منه القرضاوي هو نفسه الإسلام الذي ينطلق منه هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية؟! فكيف يقول الشيخ يوسف بوجوب الخروج على الحاكم وقتله في ليبيا بينما يحرم كبار العلماء الخروج على الحاكم في السعودية؟! وكيف يسكت يوسف على فتواهم، وكيف يسكت كبار العلماء على فتوى يوسف؟! أم إنها المصالح والمنافع ومتع الحياة الدنيا ولا شيء من الدين في ذلك ولا أثر لله في الأمر؟!.

من المعروف تاريخيا أن رقعة القتل والحروب وسفك الدماء اتسعت في ظل وجود الأديان وعلى أي متشكك أن يقارن بين الحروب ما قبل الديانات السماوية والحروب التي أُججتها الديانات والشرائع منذ حروب شعب إسرائيل ضد شعوب فلسطين والأردن ولبنان وآرام مرورا بعصر الشهداء ونشر المسيحية في الشرق وانتهاء بحروب الفتح الإسلامي في بلاد فارس والبلاد الخاضعة لسلطة الروم في الشام ومصر والأمازيغ وما أعقبها من حروب الصليب ( المقدسة) ومحاولة استرجاع المستعمرات الرومانية مرة أخرى في القرن الحادي عشر وما تلاه.

لقد كانت المنطلقات الدينية يهودية ومسيحية وإسلامية هي المحرض والوقود لإشعال هذه الحروب وتغذيتها؛ تلك الحروب التي أفنت الملايين من بني البشر لنيل رضا الرب والحصول على مفاتيح جناته والتنعم بما

أعده للقتلى فيها من مأكل ومشرب ومتع جنسية بعضها إباحية تماما.

الغريب في الأمر أنه وبعد كل هذا التاريخ البشري، وكل هذا التقدم والتطور مازال هناك من السذج والمغرورين الذي يسلمون عقولهم لأمثال هؤلاء المشايخ المتحدثين باسم الرب ويصدقون دعواهم بشأن رضا الله عن سفك الدماء وإزهاق أرواح خلقه وسلب ممتلكاتهم، وانتهاك حرمتهم، وسبي نسائهم.

وعلى الجهة الأخرى يقف الأنبا شنوده أسقف الإسكندرية الذي أمر أتباعه من المؤمنين به وبكنيسته بطاعة حسني مبارك والامتناع عن المشاركة في الثورة ضده، وقد قال لهم إن الثورة يحركها رجل يتحالف مع الإخوان المسلمين وأنتم تعلمون خطورة الإخوان علينا، ومن صالحنا أن نتعامل مع العسكر بقيادة حسني مبارك، وعليه امتنع المتدينون من مسيحي مصر عن المشاركة في الثورة امتثالا لأوامر شنوده، وبعد سقوط مبارك أدرك المسيحيون وبطريركهم كم خسروا وكم ضيعهم شنوده الذي ظل ينتظر ويعد العدة لتصحيح الوضع، ولما كانت واقعة كنيسة (أطفيح) ظهر شنوده ليحرضهم على الاعتصام لعله يستدرك ما فاته وما خسره من تأييد في أوساط شعبه المؤمن، حرضهم على الاعتصام، وعندما اتصل به العسكر لم يستجب لهم وقال: إنني أدعوهم إلى أن يفضوا اعتصامهم إن كان ذلك في صالحهم، وهي إشارة سرية (سيم) حتى لا ينفضوا، وسوف تستميت كنيسة شنوده في مثل هذه المواقف لكسب التعاطف والتأييد في أوساط مسيحيي مصر وخصوصا بعدما تصاعدت الأصوات المطالبة بإخضاع منصب البابا للانتخاب الحر المباشر مثلما نادى المسلمون بالمطلب نفسه في انتخاب شيخ الأزهر، وذلك في العهد المصري الجديد الذي دشنته ثورة الشعب الحر، التي بدأت منذ ٢٥ يناير الماضي.

وبعد فإن شنوده والقرضاوي وأمثالهما ممن يدعون في الأرض ما هم إلا سارقو فرح الشعوب ولصوص الأيام المجيدة من ميراث الشعوب التي أفنت أعمارها والعديد من أجيالها وضحت بأقواتها وأموالها ودمائها توقا إلى الخلاص والحرية والانعتاق من حسني مبارك والقذافي وأمثالهما ومن شنوده والقرضاوي وأشباههما.

# جسد المظاهرة

نضجت أوجاع الشعب وبدأ التمرين جيدا في الميدان منذ أكثر من ست سنوات من خلال الوقفات الاحتجاجية أمام الهيئات والمصالح الحكومية وفي المحلة الكبرى، وأهين الشعب واحتقره الحكام والأمم من حوله حتى فاض به الكيل وظن كثيرون أنه لن تقوم له قائمة فاستباحوا ماءه وسماءه وأرضه ولقمة عياله، لكنه وكعادته على مدار أكثر من سبعة آلاف سنة منذ تجمعت قبائله من مستنقعات النيل وصارت شعبا بقيادة الأب مينا، خرج من صبره واستعاد حياته وقال كلمته التي رضخ لها الحكام وأعني رجال الجيش الذين تخلى لهم قائدهم حسني مبارك عن سلطاته طوعا أو كرها.. الله أعلم!!

وصارت المعادلة منذ ١١ فبراير ٢٠١١ كالأتي: سلطة الشعب أمام سلطة العسكر، وانسحب الشعب من الميادين والشوارع باتفاق مع العسكر على أن يستجيبوا لمطالبه وقد أعلنوا موافقتهم، ومرت الأيام والعسكر يراوغون، قال الشعب نريد حكومة جديدة (لا شية فيها) للحزب الوطني، وإنهاء حالة الطوارئ وإلغاء أمن الدولة والأمن المركزي ومحاسبة من أفسدوا الذمم ومن أفسدوا الحياة السياسية، وكذلك صياغة دستور جديد وتشكيل مجلس رئاسي لإدارة المرحلة الانتقالية، ولكي( يستفرد) العسكر بالشعب تماما تخلصوا من مجلسي الشعب والشورى المزورين وأعلنوا تعطيل العمل بالدستور، وهكذا صار الأمر جليا.. سلطة الشعب في مقابل سلطة العسكر.

وتستمر المراوغة فيدفع العسكر بالدستور المهلهل الذي اهترأ من كثرة الترقيع على مدار أكثر من أربعين عاما منذ بداية السبعينيات وحتى الآن يدفعونه لمزيد من الترقيع، ويتمسكون بالفريق شفيق رئيسا للحكومة مع تبديل بعض الوجوه من حوله ولا مانع من إضافة د. يحيى الجمل الذي يتصورونه ضابطا لإيقاع حركتهم مع الشعب وقد يصير بديلًا لشفيق في يوم قادم، ثم يحاولون استقطاب بعض أجزاء من جسد المظاهرة وفصلها ترغيبا وترهيبا ثم ينشط الإعلام التابع لهم في الحديث عن جسد المظاهرة وتعطيله لعجلة الإنتاج – التي تدور منذ أن عرفنا هذه الحكومات ولم نر شيئا –، وعندما يبدي الشعب قلقه من مراوغة العسكر يطلب العسكر من الشعب أن يثق بهم هكذا بلا ضمانات!!

ألا يعلم هؤلاء العسكر أن الشعب وثق بهم منذ الانقلاب على الملك في ١٩٥٢ فكانت الهزيمة التي كسرت روح الشعب في ١٩٦٧ ثم وثق فيهم الشعب مرة أخرى فكان الانفتاح والفقر وعربدة الجماعات الدينية ومقتل الرئيس وسط جنوده ونائبه في ١٩٨١ ثم وثق فيهم الشعب مرة أخرى فكان هذا الفساد وكانت هذه الخرابة التي تخنق الشعب، وبعد كل ذلك يطلبون من الشعب الثقة!؟

ولماذا لا يثق العسكر في الشعب ويخضعون لمشيئته ومطالبه التي تنطلق من جسد المظاهرة في الميادين والساحات والشوارع في كل مدن مصر، والشعب يعلم أن الأمريكان والإسرائيل لا يخافون من الجيش الذي يساهمون في تسليحه وتدريبه بقدر ما يخافون من هذا الشعب الذي مازال حيا وفاعلا ومبدعا وأمامهم تجربة جيش الانجليز الذي غادر منطقة القناة بعد احتلال دام أكثر من سبعين عاما بعد ما أذاقهم المصريون الهوان والخسائر في مقاومة باسلة مع أقوى جيش في العالم فاضطر للرحيل في ١٩٥٦.

لقد رحل مبارك عن الحكم وهو عسكري واحد فترك لنا مجلسا من العسكر قوامه تسعة عشر عسكريا يواجهون سلطة الشعب الذي يريد أن يقتلع شجرة الفساد من جذورها بينما يضطر العسكر أن يقطعوا الشجرة فرعا فرعا كلما ضغط عليهم الشعب وهم يتمنون أن يبقوا على كثير من فروعها كلما استطاعوا فحتما ستنبت فروعا جديدة في قادم الأيام وتعود ريما لعادتها القديمة ويخرج منها مباركا جديدا وحزبا وطنيا جديدا وفسادا وطنيا جديدا وهلم جرا.

وهؤلاء العسكر وعلى الرغم من أنهم أفراد من الشعب إلا أنهم إذا مرضوا لا يذهبون إلى مستشفيات الشعب فلهم مصحاتهم الخاصة، ولا يصيفون في مصايف الشعب وكثير منهم لا يعلمون أبناءهم في مدارس الشعب ولا يركبون مواصلات الشعب في السفر ومعظمهم يذهبون إلى الحج والعمرة مجانا، عندما يتخرجون من الجيش يديرون مصالح الشعب المدنية فتراهم مسئولين عن أسواق الخضار ودار الكتب والأوبرا ورئاسة المدن والأحياء والموانئ البرية والبحرية والجوية ويعملون محافظين ورؤساء لهيئات استصلاح الأراضي والمياه والكهرباء وغيرها من مرافق الدولة، إذا فهم سلطة لديها مميزات باذخة ولن يفرطوا فيها إلا مضطرين،

وعليه نقول لهم:

نحن الشعب مصدر السلطات نحترمكم ونثق فيكم ونأمل أن تعاملونا بالمثل وبنفس القدر من الحقوق والواجبات، نحن الشعب نتوحد في جسد المظاهرة ولن نتفكك (حتى يبلغ الهدي محله)، وعليكم أن تحترموا جسدنا في الشوارع والميادين حتى يتغير (كتالوج) الفساد وندخل في عهد الدولة المدنية التي يصبح العسكر فيها مؤسسة كغيرها من المؤسسات كالتعليم والصناعة والزراعة.

هذا الشعب لديه أسئلة كثيرة يرغب التحقيق فيها حتى تنجلي الحقيقة وعلى العسكر بوصفهم السلطة الآنية التي تحمل مسؤولية الإدارة والتنفيذ أن يقوموا بذلك ومن هذه الأسئلة: إذا كان الفساد منتشرا في الذمم والحياة السياسية فلماذا هذه الانتقائية؟ ولماذا يتم التحقيق في بعض حالات فساد الذمم دون غيرها؟ لماذا يغيب التحقيق مع من أفسدوا الحياة السياسية؟ لماذا لا يحققون مع أفراد عائلة مبارك وفتحي سرور وكمال الشاذلي وصفوت الشريف ومن يدين لهم بالولاء والرعاية؟

ثم أن هناك أحداثا وملفات غامضة وقعت في الحقبة السابقة ونريد إعادة التحقيق فيها حتى يتثبت الجميع من الحقيقة، ومن هذه الأحداث مقتل الفريق أحمد بدوي وكوكبة من قادة الجيش في سقوط طائرة في الصحراء الغربية، مقتل الرئيس السادات، أحداث الأمن المركزي في فبراير ١٩٨٦، وأخيرا نريد أن نعرف من الذي أطلق النار على اللواء عمر سليمان فقتل أحد حراسه وأصاب أخر كما صرح بذلك الوزير أبو الغيط؟؟

وعلى العسكر ألا يقتربوا من جسد المظاهرة حتى يجيبونا على الأسئلة السابقة.

# أيكم يغرس رمحًا في دارٍ فهي له

# شعار الفاتح عمرو بن العاص

كثيرًا ما أجدني مضطرًا للحديث عما يعرف بوقائع الفتح الإسلامي وخصوصًا في النطاق الذي تم تعريبه في مصر والشام أيام خلافة عمر بن الخطاب في العقد الثاني من الهجرة النبوية قرابة العام ٦٤٠ للميلاد.

واللافت للنظر أن المروجين لتسامح الإسلام في قرونه الأولى لا يكفون عن محاولاتهم لتمرير مسألة الغزو العربي للبلاد التي كانت خاضعة لحكم الرومان والفرس وذلك تحت دعاوي التسامح والمودة وطبائع الأمور في وقائع الأزمان مما يحدث في تاريخ الناس عمومًا والتي تنطبق على وقائع الغزو العربي لمصر.

ويزعم كثيرٌ من الباحثين ومن بينهما الدكتوران يوسف زيدان وسليم العوا أن الرسائل المتبادلة بين أهل البلاد التي فتحها المسلمون في القرون الأولى التي تلت الفتح العربي الإسلامي ترينا أن إيقاع الحياة اليومية وتفاعلات الوقائع الصغيرة الفعلية كانت تختلف عما يتوهمه بعضنا اليوم من ويلات لقيها أصحاب البلد على يد البدو الغزاة.

والمتتبع لمراجع التاريخ وسير المؤرخين الأوائل يرى شيئًا مختلفًا، فهذا أبو الحسن بن يحيى بن جابر بن داود البغدادي المعروف بالبلاذري والذي يعد من أوائل المؤرخين حيث عاش في القرنين الثاني والثالث للهجرة يقول في كتابه فتوح البلدان نقلًا عن عمرو الناقد عن عبدالله بن

وهب المصري عن الليث بن يزيد بن أبي حبيب "... وكانت قرى من مصر قاتلت فسبى منهم والقرى بلهيب والخيس وسلطيس فوقع سباؤهم في المدينة " ومعنى ذلك أن الذين رفضوا التسليم والاستسلام قتلهم الغزاة واستحلوا نساءهم سبايا وأطفالهم عبيدًا وأرسلوهم إلى عمر بن الخطاب في مدينة الرسول التي كانت يثرب اليهود والأزد قبل الهجرة ويضيف البلاذري في رواية أخرى عن القاسم بن سلام عن عبدالغفار الحراني عن بن لهيعة عن إبراهيم بن محمد عن أيوب بن أبي العالية عن أبيه قال: سمعت عمرو بن العاص يقول على المنبر: " لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر عليّ عهد ولا عقد، إن شئت قتلت وإن شئت خمّست " أخذت الخمس " وإن شئت بعت إلا أهل أنطابلس "برقة" - ويبدو أنها كانت تحت النفوذ المصري في ذلك الوقت - فإن لهم عهدًا يوفى لهم به " وهي نفس الرواية التي أوردها ابن كثير عن ابن اسحق وسيف في فتح مصر.

ويروي ابن كثير في صفة فتح مصر عن ابن اسحق أن " أبو مريم وأبو مريام الأسقف كلّما عمرو بن العاص في السبايا التي أصيبت بعد المعركة فأبى عمرو أن يردها وأمر بطردهما وإخراجهما من بين يديه... "

والسياقات التاريخية التي أثبتها المؤرخون وكتّاب السيرة كثيرة ومتفقة على أن قتالًا وقع بين المصريين – القبط - وبين العرب وكذلك بين الروم في الإسكندرية وبين العرب وكذلك بين المصريين في النوبة وبين العرب وكل المراجع التي أوردتها ومنها تاريخ ابن جرير الطبري والكامل لابن الأثير والمغازي للواقدي كلها وغيرها تؤكد ذلك، إلا أن المقام هنا لا يسمح بالتوقف العلمي التام والتمحيص الموضوعي ولمن أراد الاستزاده عليه الرجوع لتلك المصادر وغيرها من أمهات كتب السير والتاريخ.

فالدارس لتاريخ الفتح العربي لمصر لا بد وأن يدرك أن المقصود بمصر في ذلك الوقت حسب مفهوم الفاتحين هو حصن بابليون في أليونة " منطقة قريبة من الروضة المعروفة اليوم " وتلك فتحها عمرو بن العاص بمعاونة الزبير بن العوام ومعهما خمسة عشر ألفًا وخمسمائة من المقاتلين العرب " ثلاثة آلاف دخلوا مع عمرو بن العاص بالإضافة إلى إمداد أرسله عمر بن الخطاب بقيادة الزبير بن العوام قوامه اثنا عشر ألفًا حسب رواية البلاذري عن ابن أبي حبيب " أن عمرو بن العاص دخل مصر في ثلاثة آلاف وخمسمائة وكان عمر قد أشفق من ذلك فأرسل الزبير بن العوام في اثنى عشر ألفًا فشهد معه فتح مصر "

وبعد ذلك حسب نفس الرواية.. أن عمرو بن العاص لما فتح أليونة التي سماها "الفسطاط" وجه عبدالله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط ووجه خارجة بن حذافة العدوي إلى الفيوم والأشمونين وأخميم والبشر ووادات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك، ووجه عمير بن وهب الجمحي إلى تنيس ودمياط وتونة ودميرة وشطا ودقهلة وبناويوصير ففعل مثل ذلك، ووجه عقبة بن عامر الجهني إلى سائر قرى أسفل الأرض " الدلتا " ففعل مثل ذلك، فاستجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج " وكل ذلك فيما عدا الإسكندرية والنوبة وأنطابلس " برقة " هو المقصود بمصر لدى الفاتحين العرب ورواة سير الفتح.

وبعد ذلك بعام تقريبًا استخلف عمرو بن العاص على مصر قائده خارجة بن حذافة العدوي وسار إلى فتح الإسكندرية التي كانت مركزًا للرومان وجنودهم يديرون من خلالها شؤون الاستعمار في الأراضي المصرية، وخرج الروم والقبط " فلقيهم بالكريون - منطقة قرب الإسكندرية – فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وكان فيهم من أهل سخا

وبلهيب والخيس وسلطيس وغيرهم قوم رفدوهم وأعانوهم، ثم سار عمرو حتى انتهى إلى الإسكندرية فوجد أهلها معدين لقتاله فأرسل إليه المقوقس يسأله الصلح والمهادنة إلى مدة فأبى عمرو بن العاص ذلك فأمر المقوقس النساء أن يقمن على سور المدينة مقبلات وجوههن إلى داخله وقام الرجال في السلاح مقبلين بوجههم إلى المسلمين ليرهبهم بذلك، فأرسل إليه عمرو أنه قد رأينا ما صنعت وما بالكثرة غلبنا من غلبنا فقد لقينا هرقل ملككم فكان من أمره ما كان، فقال المقوقس لأصحابه: قد صدق هؤلاء القوم أخرجوا ملكنا من مملكته حتى أدخلوه القسطنطينية فنحن أولى بالإذعان فأغلظوا له القول وأبوا إلا المحاربة فقاتلهم المسلمون قتالًا شديدًا وحصروهم ثلاثة أشهر، ثم أن عمرًا فتحها بالسيف وغنم ما فيها وهذا هو الفتح الأول للإسكندرية.

ونواصل الرواية من وقائع فتوح البلدان للبلاذري؛ حيث يقول إن عمرو بن العاص استخلف على الإسكندرية عبدالله بن حذافة السهمي في رابطة من المسلمين وانصرف إلى الفسطاط وكتب الروم إلى قسطنطين بن هرقل وهو كان الملك يومئذٍ يخبرونه بقلة من عندهم من المسلمين، وبما هم فيه من الذلة وأداء الجزية فبعث رجلًا من أصحابه يقال له منويل في ثلثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة فدخل الإسكندرية وقتل من بها من روابط المسلمين إلا من لطف للهرب فنجا وذلك في سنة خمسة وعشرين للهجرة – وليس كما يقول الدكتور زيدان أن قتلى المسلمين كانوا واحدًا وعشرين رجلًا مثل عدد من يلقون حتفهم في حادث ميكروباص.

وبلغ عمرًا الخبر فسار إليهم في خمسة عشر ألفًا فوجد مقاتلتهم قد خرجوا يعيثون فيما يلي الإسكندرية من قرى مصر فلقيهم المسلمون فرشقوهم بالنشاب ساعة والمسلمون متترسون ثم صدقوهم الحملة فالتحمت بينهم الحرب فاقتتلوا قتالًا شديدًا ثم إن أولئك "الكفرة" ولوا منهزمين فلم

يكن لهم ناهية ولا عرجة دون الإسكندرية فتحصنوا بها ونصبوا العرادات فقاتلهم عمرو عليها أشد قتال ونصب المجانيق فأخذت جدرها وألح حتي دخلها بالسيف عنوة فقتل المقاتلة وسبى الذرية وهرب بعض رومها إلى الروم وقتل عدو الله منويل وهدم عمرو والمسلمون جدار الإسكندرية.

وكل من شاهد فتح مصر حسب سير الرواة والمؤرخين يدرك أن مصر لم تفتح مرة واحدة وان السيطرة عليها من قبل العرب الغزاة استغرق حوالي أربع سنوات كما يدرك أن مصر كانت مستعمرة رومانية قبل الغزو العربي بأكثر من سبعة قرون وأنها كانت ترسل ما يشبه الخراج إلى روما عن طريق الإسكندرية كل عام.

واللافت للنظر أن من سماه العرب بالمقوقس كان بطريركًا لكنيسة الإسكندرية والتي كانت واحدةً من أربعة كنائس تؤسس للإيمان المسيحي في العالم وأن هذا المقوقس لم يكن مصريًا وكان اسمه قيرس. وتم انتدابه بمعرفة الرومان من كنيسة أفسوس في بلاد الأكراد وتم تعيينه في الإسكندرية بدلًا من كاهنها بنيامين الذي تم عزله، وأن هذا المقوقس لم يكن يرغب في قتال العرب وأنه كان يفضل الاستسلام والاتفاق معهم بدلا من القتال وذلك ضد مشيئة الإمبراطور الروماني قسطنطين الذي أرسل جيشًا واسترد الإسكندرية من جيش العرب.. وأن المقوقس كان على علاقة وطيدة للغاية بقائد الغزو عمرو بن العاص والدليل ما ينقله البلاذري عن يزيد بن أبي حبيب من أن المقوقس صالح عمرو بن العاص على أن يسير من الروم من أراد ويقر من أراد الإقامة من الروم على أمر سماه وأن يفرض على القبط – المصريين – دينارين فبلغ ذلك ملك الروم فتسخطه وبعث الجيوش فأغلقوا باب الإسكندرية وآذنوا عمرو بن العاص بالحرب وخرج إليه المقوقس فقال لعمرو: أسألك ثلاثًا أن لا تبذل للروم مثل الذي بذلت لي فإنهم قد استغشوني وألا تنقض بالقبط فإن النقض

لم يأت من قبلهم وإن مت فمر بدفني في كنيسة بالإسكندرية ذكرها له، فقال عمرو: هذه أهونهن عليّ... "

و من البديهي أن لا يكون للمصريين في ذلك العهد جيش وطني ولا حكومة وطنية لأنهم وبلادهم واقعون تحت الاحتلال الروماني وأن الأمر بالنسبة لمعظمهم كان مجرد استبدال لمستعمر بآخر وأن خيرات بلادهم من أموال ومحاصيل ستأخذ طريقها إلى مدينة الرسول في الشرق العربي بدلًا من عاصمة الروم في الغرب المسيحي.

و من الملاحظ أن المصريين ارتضوا دفع الجزية والبقاء على دينهم ضمن البلاد التي غزاها العرب في الشرق بينما هرع الناس في فارس إلى الدين الجديد هروبًا من الجزية والخراج ثم تربصوا بالعرب وتحالفوا مع أحد جناحي قبيلة قريش – بني هاشم – وانقضوا على دولة العرب – الأمويين – واستبدلوا عاصمتها دمشق ببغداد التي كانت عاصمة الفرس القديمة بجوارها في " المدائن " قبل أقل من مئة وخمسين سنة وحاولوا استعادة دياناتهم القديمة من خلال صياغة مبادئ الإسلام بما يتفق ومعتقداتهم السابقة على الفتح العربي لبلادهم. وذلك يعني أن المصرين قد دفعوا ثمن تمسكهم بعقيدتهم حسب أقوال المؤرخين ومنهم ابن اسحق والبلاذري " فوضعت الجزية على كل حالم وألزم كل ذي أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطي زيت وقسطي عسل وقسطي خل رزقًا للمسلمين تُجمع في دار الرزق وتقسم فيهم، وأحصى المسلمون الناس فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنسًا أو عمامة وسراويل وخفين في كل عام أو عدل – مقابل – الجبة الصوف ثوبًا قبطيًا.

و من أعجب ما يدعيه المروجون لمسألة التسامح أن الرسائل المتبادلة

في ذلك العصـر تظهر كمًا كبيرًا من المودة التي جمعت بين أشخاص كثيرين متنوعين.. فهذا عربي مسلم يستأجر بيتًا من مصري مسيحي وكأنهم لم يقرءوا في مراجع التاريخ كافة أقوال عمرو بن العاص ومنها خطابه لجنوده " سيروا على بركة الله فمن ركز منكم رمحًا في دار فهي له ولبني أبيه، فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحًا في بعض بيوتها ويأتي الآخر فيركز رمحه كذلك فكانت الدار بين النفسين والثلاثة فكانوا يسكنونها ".. ومتى كان العربي يدفع ثمن شيء يستطيع اغتصابه وسلبه!!

و على الرغم من كل ما سلبه عمرو بن العاص من المصريين فإن عثمان بن عفان قد استقله وغمز في ذمته وذلك حسب سياق يزيد بن أبي حبيب عندما قال: جبى عمرو خراج مصر وجزيتها ألفي ألف دينار – مليونين – وجباها عبدالله بن سعد بن أبي سرح أربعة آلاف ألف – أربعة ملايين – فقال عثمان لعمرو: إن اللقاح بمصر بعدك قد درت ألبانها فرد عليه عمرو: ذلك لأنكم أعجفتم أولادها..

اللقاح تعني البهائم الحلوب، درت ألبانها بمعنى زاد حليبها، أعجفتم أولادها يعني منعتموها عن لبن أمهاتها قبل موعد الفطام.. وهذا يذكرني ببيت شوقي:

يا بنة اليم ما أبوك بخيل ... ماله مولع بمنع وحبس

أحرام على بلابله الدوح ... حلال للطير من كل جنس!؟

نعم حرام لبن الأمهات على أطفالهن ليعلو رصيد الخراج والجزية!! وهذه هي الموادعة والمودة التي يتحدث عنها الدكتور زيدان!!

وأدعو هؤلاء وأمثالهم ممن يزعمون هذه الموادعة إلى التأمل والإنصات إلى هذا الحوار الذي ساقه البلاذري عن أبو الحسن المدائني عن عبدالله بن المبارك قال: كان عمر بن الخطاب يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم

يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم فكتب إلى عمرو بن العاص أنه قد فشت لك فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم يكن حين وليت مصر، فكتب إليه عمرو: إن أرضنا أرض مزدرع ومتجر فنحن نصيب فضلًا عما نحتاج إليه فكتب إليه: إني قد خبرت من عمال السوء ما كفى وكتابك إلى" كتاب من قد أقلقه الأخذ بالحق وقد سؤت بك ظنًا وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة ليقاسمك مالك فأطلعه طلعه وأخرج إليه ما يطالبك به واعفه من الغلظة عليك... ولما قاسمه محمد ماله قال عمرو: إن زمانًا يعاملنا فيه ابن حنتمة - أم عمر بن الخطاب - هذه المعاملة لزمان سوء، لقد كان العاص يلبس الخز بكفاف الديباج فقال محمد: مه – اخرس – لولا زمان ابن حنتمة هذا الذي تكرهه ألفيت معتقلًا عنزًا بفناء بيتك يسرك غزرها ويسؤك بكاؤها، قال عمرو: أنشدك الله أن لا تخبر عمر بقولي فإن المجالس بالأمانة فقال: لا أذكر شيئًامما جرى بيننا وعمر حي.

وهل يعلم هؤلاء شيئًا عن حق الارتباع ذلك الذي فرضه العرب المسلمون على فلاحي مصر إضافة إلى الجزية والخراج وإن كان لا يعلم فالارتباع حق قرره العرب لأنفسهم بأن ترعى أغنامهم وإبلهم وخيلهم في حقول المصريين طوال فترة الربيع مجانًا.. فكل قبيلة منهم تتخير أرضًا على ضفاف النيل تستبيح مرعاها كل ربيع وليسأل قرى أطفيح والجيزة وغيرهما غرب النيل.

وفيما يخص منطقة النوبة في سياق الفتح العربي الإسلامي لمصر فيكفي أن نذكر ما دار بشأن معاهدة البقط، فهذا الاسم "المصطلح" والذي يعني في اللغة متاع البيت أو الفِرقة من الناس قد مضى على صكه أكثر من ألف وثلثمائة عام على الأقل حيث أورد البلاذري في فتوح البلدان في سياق أحداث جرت أيام الخليفة المهدي "وكان المهدي أمير المؤمنين أمر بإلزام النوبة كل سنة بثلاثمائة وستين رأسًا وزرافة على أن يُعطوا

قمحًا وخل خمر وثيابًا وفرشًا أو قيمته وقد ادعوا حديثًا أنه ليس يجب عليهم البقط لكل سنة وإنهم كانوا طولبوا بذلك في خلافة المهدي ورفعو إليه أن هذا البقط مما يأخذون من رقيق أعدائهم..." .

وعلاقة العرب الغزاة بالنوبيين يلخصها أفضل ما يكون محمد بن سعد عن الواقدي عن ابراهيم بن جعفر عن عمرو بن الحارس عن أبي هاني المعافري عن شيخ من حمير حسب رواية البلاذري قال: شهدت النوبة مرتين في ولاية عمر بن الخطاب فلم أر قومًا أحدً في حرب منهم لقد رأيت أحدهم يقول للمسلم: أين تحب أن أضع سهمي منك!؟ وربما عبث الفتى منه فقال في مكان كذا فلا يخطئه، وكانوا يكثرون الرمي بالنبل فما يكاد يُرى من نبالهم في الأرض شيء، فخرجوا إلينا ذات يوم فصافونا ونحن نريد أن نجعلها حملة واحدة بالسيوف فما قدرنا على معالجتهم، رمونا حتى ذهبت الأعين فعدت مائة وخمسين عينًا مفقودة، فقلنا: ما لها ولاءٌ خيرٌ من الصلح، إن سلبهم لقليل وإن نكايتهم لشديدة، فلم يصالحهم عمرو ولم يزل يكالبهم حتى نزع وولي عبدالله بن سعد بن أبي السرح فصالحهم، قال الواقدي: وبالنوبة ذهبت عين معاوية بن حديج الكندي وكان أعور.. ويضيف البلاذري عن ابن أبي حبيب: ليس بيننا وبين الأساود "النوبيين" عهد ولا ميثاق إنما هي هدنة بيننا وبينهم على أن نعطيهم شيئًا من قمح وعدس ويعطونا رقيقًا فلا بأس بشراء رقيقهم منهم أو من غيرهم.

ومن هذا السياق يتضح كيفية العلاقة شبه التجارية والتي يجيدها العرب حيث يأخذون المحاصيل نهبًا خراجًا من البلاد المستعمرة ويقايضونها بالعبيد مع النوبيين وهذا يدحض كل قول على أن الإسلام حرم تجارة العبيد فضلًا عن اتضاح الأهداف الحقيقية للفتوحات الإسلامية؛ حيث ارتضى العرب المسلمون أخذ الأموال والعبيد والمحاصيل ولا بأس أن

يظل الناس على دينهم - دين الكفر والشرك – حسب المنظور الإسلامي ويصدق فيهم قول أبي العلاء المعري:

المال يسكت عن حق وينطق في بطل ... وتجمع إكرامًا له الشيعُ

وجزية القوم صدت عنهم فغدت ... مساجد القوم مقرونًا بها البيعُ

وعليه فقد ظلت مصر متمسكة بدينها ولغتها لأكثر من قرنين من الزمان مقابل دفع الأموال للغزاة الفاتحين الجدد، ولم تنقلب الأحوال إلا مع مجيء القرن الثالث الهجري في زمان الخليفة العباسي المأمون الذي جاء إلى مصر ليباشر القضاء على فتنة ابن العمري الذي ثار على العباسيين بتحريض من فلول الأمويين المدعومين بالقبائل العربية وبعد القضاء على هذه الثورة قرر الخليفة الذي تقول مصادر التاريخ أنه اصطحب معه إلى مصر في عام ٢١٧ للهجرة ترجمانًا لينقل له الحوار مع المصريين.. قرر المأمون أن يشطب العرب من ديواني العطاء والجند، ومعنى ذلك أن الأموال والرواتب التي كان يتحصل عليها العرب أحقاد الفاتحين حسب قانون العطاء الذي أقره عمر بن الخطاب في الجابية قرب بيت المقدس في العام السادس عشر للهجرة قد ألغاه المأمون فترك العرب الحصون والرباطات ومدن الجنود وزاحموا المصريين في العمل والتملك والمصاهرة ومن هنا بدأ استعراب مصر، وتعرف المصريون على ديانة العرب عن قرب وبدأ التأثير والتواصل بين الثقافتين مما أنتج دينًا ولغةً فيه الكثير من شرائع المصريين ولغتهم في أمور الزواج والمعاملات وحتى في مسألة العقيدة ومركزية الأولياء والعارفين كواسطة بين السماء والأرض وما إلى ذلك مما في إسلام المصريين ولغتهم من خصائص ومميزات – ليس المجال هنا لبسطها –.

# فقه الرشوة

احتفلت البشرية واحتشد الناس على مر العصور في ركب أصحاب الرسالات أملا في الخلاص من مظالم الواقع وسعيا وراء إصلاح أمور حياتهم المشهودة في هذه الدنيا وحياتهم الغيبية بعد الممات، وما تمسك الناس بأديانهم إلا تعبيرا عن هذا الأمل في الخلاص والإصلاح في الدنيا والآخرة.

ولم ينقطع الفساد والشر عن اقتحام الحياة والتحكم في أمورها، هكذا سنة الخالق من جيل إلى جيل حتى تستمر الحياة ويكون للدين معنى للحضور وفرز الخلائق.. والفساد ليس هيئة مجسمة ولا كيانا مشكولا بسمت نهائي.. إنه يتطور ويأخذ صيغا تتلاءم مع تقدم الزمن وتراكم خبرات بني البشر، وقد يمتد الفساد إلى مفاهيم الدين نفسها وذلك بمصادرة إرادة الناس في فهم دينهم وحبسهم رهائن مأسورين بفهم أسلافهم لهذا الدين على الرغم من اختلاف الزمان وتجدد صيغ الفساد والشر في هذا العالم المشهود.

وجريا على العادة فقد انقطع نفرٌ من هذه الأمة للقيام على فهم الدين يُصار إليهم للاستبصار والرأي في محدثات الزمان.. هؤلاء النفر تفرغوا بالكلية عكوفا على آراء الأسلاف بشأن نصوص الدين وقد انقطعوا عن محدثات العصر – هذا تناقض أول – وإن كان النص يقرر في وضوح تام بأن " كلٌ بما كسبتْ يداهُ رهين " و" كل إنسان ألزمناه طائره في عنقه... " وأن هذا يستدعي أن ينشغل كل إنسان على قدر ما أوتي من

طاقة على فهم أمور دينه وأن يستفتي قلبه قبل وبعد أي إفتاء، إلا إن كثيرا من المتنطعين يرفعون شعارهم الخالد "ضعها في رقبة عالم واطلع منها سالم" وهذا هو التناقض الآخر!

وجريا على العادة أيضا سأل الناس رجال الدين عن الرأي في إخراج الزكاة بالوكالة عن طريق أفراد ومؤسسات وكذلك الحج والصوم بالوكالة وموقف المسلم المجند في جيوش الأعداء من أهل الكتاب والمشركين والكفار وكذلك حملوا قلقهم على مصيرهم الديني ووضعوه على أعتاب الفقهاء في مسائل مثل التبرع بالأعضاء البشرية أو بيعها. وأخيرا حكم الدين في الرشوة عند الضرورة.

واختلف الفقهاء واتفقوا في قليل أو كثير من هذه المسائل وغيرها فأجازوا نزولا على مزاج الأغنياء إخراج الزكاة بالوكالة وكأن الزكاة مجرد مال يؤخذ من غني ويعطى إلى فقير، وكأن الأغنياء ورثوا الغنى إلى الأبد وقدر للفقراء أن يظلوا هكذا يورثون فقرهم إلى نسلهم من بعدهم.. معظم بلدان العالم لا تعمل بنظام الزكاة وإنما تأخذ بنظام الضرائب وهذا يكفي بالنسبة لهم لإحقاق التكافل الاقتصادي وإلزام الأغنياء بالقيام بدورهم تجاه مجتمعاتهم، والزكاة من خلال إجازة تأديتها بالكفالة صارت مثل الضريبة.. وبقى تكريس الحواجز بين الأغنياء والفقراء.. الفقير في ظل نظام الزكاة إنسان محفوظ الكرامة يعيش بين الأغنياء الذين هم عيال الله.. يراهم ويعايشون معاناته ويطلعون على أحواله فلا يقوم التربص والتوجس بين طبقات المجتمع.. وفي ظل نظام الوكالة هذا أصبح عاديا أن تقرأ إعلانات كثيرة في كل مكان من مثل "ادفع ٢,٥٪ زكاة أموالك ونحن نقوم عنك بتوصيلها".. كما أصبح عاديا أن تقرأ لوحة دعائية تقول " اقرأ الفاتحة سبع مرات في دقيقة وتأخذ ٩٨٠٠ حسنة في نظام الحسنة بعشرة أمثالها "!!

فالأغنياء كالحكام تمامًا من حقهم كل شيء حتى فرض مزاجهم في الترفيه واللهو على الجميع ودائما ما شهدت العصور قيام فقهاء على تمام الاستعداد لتجويز وإباحة كل رغبة لهذه الفئة من الحكام والأغنياء.

وكيف يفتي فقيه بمشروعية قيام الأحياء بتأدية الحج والصوم عن الميتين على الرغم من عدم وجود وصية بذلك وعجز الميتين أثناء حياتهم عن القيام بذلك.. فنجد فقيها في رده على سؤال بشأن جواز قيام الإبن أو غيره بالحج عن والده المتوفي الذي لم يستطع تأدية الفريضة أثناء حياته.. فنجد الفقيه يبيح ذلك متناسيا أن الفريضة مشروطة بالاستطاعة.. والفرائض يطلبها الخالق من عباده على حياتهم وليس على موتهم.. هذا على الرغم من أن هناك الكثير من الأخوان في الدين يعيشون بلا مأوى أو مأكل وكل مرافق المجتمع منهاره من مدارس وشوارع وميادين للرياضة وغيرها من مؤسسات البحث والتقدم.. لكن من المفيد السياحة في أرض الحرمين بدعوى تأدية الفريضة ولو عشر مرات!!

والعجيب أن يفتي آخر بجواز انخراط المسلم في جيش أهل الكتاب وغيرهم من الملل وأصحاب الشرائع الأخرى بدعوى الضرورة مع العلم أن هناك الكثير من مواطني هذه الدول غير المسلمة ترفض الانخراط في الجيش وتعترض على القيام بكثير من المهمات، إلا أن معايشة القهر في نطاق المجتمعات الإسلامية جعلت الفقهاء يرون أن كل الناس تعيش مثل هذه الظروف.. ثم كيف يضطر الإنسان إلى قتل أخيه في الدين.. أليس هذا عبثا؟.. وكيف لم يفت مثلا بأن العودة إلى الموطن الأصلي أولى من الانخراط في جيش يستهدف قتل المسلمين؟ وهل حياة نفر من المسلمين في بلاد غير المسلمين أدعى للحاق بهم والتمكن منهم؟! كيف وكل من يعيش في هذه البلاد هم من الموالي - بالمنظور الإسلامي - وليسوا أصحاب قرار.. إنهم من المضطرين الهاربين من جحيم الفقر والتخلف

والاستبداد، وأهل الغرب يعلمون ذلك أكثر منا.

وهذا المنزع في الفقه يتوخى السهولة والتراخي والركون إلى منطق الأقوياء وأصحاب السلطة والنفوذ من التجار والعسكر، وبدلا من التصدي واستدعاء الألمعية الفقهية في محاصرة الظواهر السلبية والتصدي للفساد ومقاومته.. بدلا من ذلك يقوم الفقهاء بالاستسلام لمنطق الأقوياء والاستجابة لذوق الغالبية، فنراهم في آخر الإفتاءات يقولون بمشروعية الرشوة للحصول على وظيفة أو مسكن ( شقة ) وغدًا ستكون المشروعية للحصول على مناقصة أو الظفر بمشروع سياحي.. إن الضرورة محصورة بالحفاظ على النفس من الهلاك.. والشاب المتقدم للحصول على وظيفة أو مسكن للزوجية عن طريق الرشوة ليس مضطرا لأنه أمضى أكثر من عشرين عاما على الأقل يعيش في مسكن ويحصل على قوت يومه ولو استمر على حاله لاستمرت حياته.. أي نعم سيكون فقيرا أو معدما لكنه ليس مضطرا لتقديم رشوة، والأولى أن تنصب فتاوى الفقهاء على المسؤولين والتجار وأصحاب السلطة في إدارة شؤون العباد والبلاد.. أن تتوجه تلك الفتاوى للنيل من هؤلاء وفضحهم وتحذيرهم ووعظهم وتهذيبهم لا الاجتراء على المحرمات والمساهمة في إفساد الحياة ونسف معنى الوجود وقيمة الخلق بإباحة الرشوة والتخفيف عن أصحاب السلطة وإنقاذهم بالإتكاء على الدين وتشويه عظمة الرسالات وحكمتها البالغة.

و قد جاء في القرآن:

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ ۚ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ

دِينًاۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾﴾ المائدة ٣ .

فالنص صريح بأن ارتكاب هذه المحرمات من الأطعمة لا يجوز إلا في الضرورة ومشروعية جوازها مرهون بالإبقاء على حياة مرتكبها. بمعنى أن إباحتها مشروط بالقدر الذي يكفي لدفع الموت جوعا وبشرط عدم ارتكاب إثم.. ومن اضطر إلى ذلك لم يبرئه الله بالكلية لكنه مرتبط بعفو الله ورحمته وغفرانه.. فالمضطر للرشوة في شأن الوظيفة أو المسكن أو تحسين أحواله المعيشية ليس مضطرًا كما أنه يتورط في إثم كبير وهو الرشوة.. أي تقديم الاموال أو المنافع لغير مستحقها.. ثم كيف يكون مضطرا أصلا وهو قادر على تقديم رشوة؟ أليس من الأولى والأحق أن يستغل هذه المقدرة "القدرة على دفع الرشوة" في درء الضرورة وتحسين أمور معيشته والصبر على المشقة وشظف العيش أو القيام بتغيير المنكر الذي اضطره هو وأمثاله على القيام بدفع الرشوة.

إن الدين الذي يحرص على الحياة كريمة شريفة يحرض الناس على عمل الخير ومجابهة الفساد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. أليس هؤلاء الفقهاء قادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟! أم أنهم قادرون فقط على تسخير ألمعيتهم في الاستجابة لمزاج السلاطين والتجار؟! وحسبنا الله ونعم الوكيل.

## طرف من سيرة المنبوذين

الوجود حيوات متعاقبة، أدناها التي نعيشها من الميلاد إلى الموت ولذا فهي الحياة الدنيا؛ وهذا طيفٌ من معانيها: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤)﴾ يونس

على ربنا قصد السبيل، وسبيلنا الآن مغروس بالعجمة والجهالة، وكلما أوقدنا عبارة حاصروها بسيمياء الكهنة في القرية الإلكترونية حيث ومضة " الإنترنت " أقبح من العملة، وحيث الجسد لم يعد محرضا على العرفان بل محض غريزة عمياء في لجة المسعى.

الحياة الدنيا ما هي في منظور خالقها سوى هشيم تذروه الرياح.. بينما هي مقتلة ومظلمة وغاية في نظر السواد الأعظم ممن اصطفاهم الخالق لخلافته فيها.. فهم يتشبثون بالكذب ويتمسكون بالرذيلة ويدّعون التطور والتحرر والتفوق على أجدادهم السالفين منذ آدم وحتى الآن.. فحضارتهم غير مسبوقة في الكرامة والرفاهية والعدل وسيادة قيم الإنسانية!! وهكذا يزخر الأفق الإلكتروني الحامل لرسالتهم التي لا تنفك تطارد المنبوذين وغير المتأقلمين أمثالي مع سياق العولمة وأكاذيب الرفاهية وضرورة استفادة الجميع ورفاهيتهم من هذا السياق!!

نعم البشرية في قمة حضارتها الآن! ولا يهم إن اشتعلت حرب الماس في أفريقيا لتخرج غالبية سكانها من سياق التاريخ وتقرب بينهم وبين أجدادهم الأوائل في وسائل العيش.. ولا بأس إن اندلعت حروب النفط على خليج العرب لتقصي بأكبر شعوبها بعيدا عن المدنية وأبسط الحقوق الإنسانية، ولا مانع كذلك إن تفجرت الحروب الدينية على أرض أفغانستان لتدشين الشكل الجديد لحروب المستقبل في ظل هيمنة العولمة بعدما أبادت عشرات الآلاف من وسط أوروبا وألبانيا تحت وطأة الذرائع العرقية والدينية ثم حملها ميلوسوفيتش أمام المنصة العولمية للعدالة الدولية في لاهاي!!

أعتقد أن السياق العولمي لن يسمح بعد الآن لأحد – أو حتى لنفر من الناس – أن يعتقد ما يشاء وأن يسعى كما يريد في اتجاه تحقيق معتقداته.. وبوضوح أكثر لا يرى العولميون مبررًا لقيام مجموعة من الناس – مسلمين مثلا – في الانضمام لمؤازرة وتقديم العون بكل أشكاله لمجموعة أخرى مثلهم في بقعة ما من العالم.. فهذا الإله الدموي الذي يحرِّض على القتل والعنف في إعادة البشر إلى جادة الصواب لا ضرورة له على الإطلاق وهذا الإله الحاسم في التعامل مع أتباعه بضرورة إقامة الحدود من القتل وحتى " التجريس " العلني مرورًا بالجلد وقطع اليد والصلب على جذوع الأشجار.. هذا الإله الحاسم في تطهير أتباعه لا ضرورة له على الإطلاق ومجتمع البشرية في إطار العولمة لن يسمح له بالنفاذ والمرور..

إن مأزق البشرية التي ترى نفسها تحت الأفق العولمي المسيج بالإلكترون ومنجزات تفتيت الذرة أنها لا تعترف بالاختلاف ولا تقر به وهذا جوهر دمارها ودليل بؤسها.

عليك أن تصدق بأن الجميع – جميع الناس – في كل بقاع المعمورة يمكنهم الاعتماد على الحكومات الإلكترونية والسوق الإلكتروني حتى وإن نظرت حولك وتعثرت نظراتك وأرجلك في متاهة الجثث والسجون تحت رغبة حكام يورث بعضهم بعضا أبشع الانجازات في القهر والتهميش وكيفية التعامل مع قوى المعارضة المستقبلية المحتملة!!

عليك أن تؤمن بأن العولمة بمقدورها تأمين تاريخ بلا حروب ولا مآسي إنسانية كاسحة حتى وإن تعثرت في تلال المخدرات التي تنشط حروبها في أمريكا اللاتينية أو حتى تملكت دولة عنصرية يعتقد شعبها حسب كتب أنبيائهم أن الله خلقهم ليقودوا البشرية وليس غيرهم من شعوب الأرض مؤهلا لحمل رسالة السماء تلك.. لا يهم إن تملك شعب كهذا من عناصر الدمار والإبادة ما يكفي للقضاء على الحياة والأحياء في قارتي آسيا وأفريقيا.. لا يهم لو صار بمقدور إسرائيل إبادة العالم ما دامت تؤمن بالعولمة.. وهنا سأقول لماذا ينحاز الغرب إلى إسرائيل دون العرب.. السبب باختصار لأن ديانة إسرائيل محصورة في نسل إبراهيم وذريته من أرحام نساء إسرائيليات تحت رجال من نفس النسل ولا أطماع لديهم في العالم خارج الأرض المقدسة التي تعج كتب أنبيائهم بحَثّهم ألا يفرطوا فيها.. أعني أرض الفلسطينيين بعد عبور نهر الأردن إليها بينما العرب أصحاب ديانة تصرِّح علانية بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده الصالحين.. وكل البشرية حسب المنظور الإسلامي مدعوَّة للدخول في الإسلام وكل مسلم لا يكتمل إيمانه حتى يدعو غيره من غير المسلمين للدخول في الإسلام.. هنا مكمن الخطر في الإسلام الذي لا نظير له في أي ديانة أخرى سماوية كانت أم وضعية.. حتى وإن تعايش حكام المسلمين وعلماؤهم منذ فترة طويلة خارج هذه الدائرة.. إلا أن التاريخ الإسلامي لا يعدم من خروج مجموعات على فترات متباعدة تتبنى ذلك

المفهوم طالما جذوره في عمق الرسالة الإسلامية وما ابن لادن وغيره إلا تعبير عن هذا الصدام الصارخ بين معتقدات رسالة سماوية وبين حرية الآخرين في ممارسة عيشهم تحت مبدأ حرية الاختيار والمسؤولية الفردية في العقاب والمآل.

تحت سماء الأفق الإلكتروني معلومات لا حصر لها ودفق لا ينتهي من الأفكار والأخبار والبيانات والسير.. لكن هل مجرد معرفة ذلك يدخل العارف بها إلى ذلك الحيِّـز.. بالطبع لا، فالمشكلة تتعلق بالقدرة على الحوار وإثارة الأسئلة.. ضمن منظومة في المعرفة بإمكانها توظيف ذلك الزخم المعلوماتي في كل ما هو خير ونافع ومفيد.. لذا فالأمية واردة جدًا بالرغم من التعرض لهذا الزخم المعلوماتي إذا كان الأمر في نطاق الفرجة وتكديس المعلومات دونما سبيل للإفادة منها وهذا حالنا الآن.

من المنبوذين فصيل لا يقر قراره حتى يأخذ بالثأر.. ممّن؟!. من الوجود الضاغط على مزاجه وذائقته.. فهم كادحون إلى ربهم كدحًا غير مردود العاقبة.. وهم يجهدهم الإحساس بوطأة ظلالهم التي تترصد خطاهم بينما هم ينظرون وراءهم بين حين وآخر في غاية الاحتقار والغضب!!

ومن المنبوذين فصيل لا قرار لهم إلا في السجون أو في ظلمات الفقر والاغتراب بين كثير من خلق الله نظرا لاختلاف مفردات الحياة لديهم عمّـا لدى العولميين من حولهم أو من سار في ركابهم عمدًا أو عن حسن نية.

# الفقهاء/العسكر/التجار
# الحلف المقدس

كثير من المؤمنين بالله ومنهم الجماعات الإسلامية، يحاولون فرض الله بالقوة على عباده، والغريب أنك ترى هؤلاء المؤمنين في صف الطواغيت ضد عباد الله، والأغرب أنهم أغنياء حدّ التخمة.. هل لأنهم وكلاء الله بينما عباده الفقراء عياله!! أغنياء في الفقه والمال والنساء. وكلاء الله توسّعوا في فقه الوكالة هذا فأفتوا بالوكالة في توصيل الزكاة لعيال الله وكذلك الوكالة في الحج عن غير القادرين ماليا أو صحيا أو الميتين بالرغم من أن الفريضة ليست واجبة في هذه الحالة لانتفاء شرط الاستطاعة.. ولن نندهش إذا سمعنا غدا أو بعد غدٍ من فقهاء الوكالة هؤلاء فتوى بجواز الوكالة في الصلاة وغيرها فيما تبقى من فروض فالأغنياء لهم ما لا يحق لغيرهم حتى في أمور العبادة!!.

وما دام الأمر كذلك، والتحالف على أشده في هذا العصر بين فقهاء الوكالة الأغنياء والطواغيت من الحكام العساكر وطائفة التجار التي امتدت تجارتهم إلى كافة أرجاء المعمورة وتداخل رأسمالها في منظومة عالمية لا يمكنك التمييز فيها بين ما هو إسلامي ومسيحي ويهودي.. أو بثنائية أكثر حدة بين ما هو مؤمن وما هو كافر.. أيعني ذلك أن هناك مالا مؤمنا وآخر كافرا؟!!

و الله العظيم الذي يحاول بعض أتباعه فرضه بالقوة على عباده، ترك لعباده – كما خلقهم – نصوصا لا ينفذ مدّها وعطاؤها في إطار عظمة

واعتناق ينبع من داخل عباده كما عرفهم وخلقهم " وفي أنفسكم، أفلا تبصرون "، وأي محاولة لإقامة الله في أرضه بالقوة باطلة ولا جدوى منها سوى الدمار والتخريب.. إلا أن أتباعه الأغنياء وأبواقهم من فقهاء الوكالة لا يقرون بذلك فتراهم ينصبّ غضبهم لله على ثلة من عباده بسبب ملابسهم القصيرة أو كتاباتهم أو طريقتهم في تأدية رسالتهم في الحياة في حين يغضون الطرف كليا عن طواغيت يتصرفون بمصائر عباد الله المؤمنين حسب مزاجهم.. فمن هؤلاء الطواغيت من هتك الأعراض وقهر الشرف لدى عباد الله على الملأ.. ومنهم أصحاب السمو والمعالي والملك في حين أنها كلها صفات تنزيه لخالق السماوات والأرض.. فهل هي مصادفة أن يتحالف فقهاء الوكالة مع الطواغيت والتجار؟ ولماذا لم تظهر كلمة الحق عند سلطان جائر وهاهو الجور يسد علينا الطرقات ويغطي عنان السماء؟!

هذا هو العنف.. الإقصاء القائم على غير عهد مدني بين عباد الله في الأرض.. التجار احتكروا أسباب الحياة بمعاونة الطواغيت والعسكر وفقهاء الوكالة.. والطواغيت العسكر تكفلوا بنشر الفزع والرعب والقضاء على السلام الروحي والاجتماعي.. وفقهاء الوكالة احتكروا تعاليم الله وأفسدوا على الناس حياتهم الدنيا والآخرة أيضا.

وأشد الضحايا تأذيا هم المثقفون الذين يحاولون تغيير العالم بالكلمة – كما أن مثقفين في نعيم الحلف المقدس يحاولون تكريس المظالم بالكلمة أيضا – المثقفون أنصار التغيير بالكلمة لم يشذوا عن تشريع الله العظيم فهو الذي أوحى بأنه "من رأى منكم منكرا" كما أنه تعالى أوحى بـ " أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم "، وهكذا تتجلى

عظمة الخالق حيث أنه تعالى الأعلم بمن خلق.. ففيهم المكرسون للمظالم " أطيعوا الله " وفيهم الداعون إلى التغيير " من رأى منكرا " والفقيه الحق من يقر بهذا الاختلاف لا أن يسعى ويحشد عدته لنفي الآخرين المخالفين له في الفقه والاعتقاد.

الطواغيت العساكر لهم رسالة.. ولهم منظومة لتنفيذ هذه الرسالة، وضعوا فيها مكانا حيويا لفقهاء الوكالة حيث أناطوا بهم تثبيط العزائم وتفريغ الحياة من أي مضمون إنساني معقول يقوم على احترام كيان الإنسان.. وبالتالي هم لا يكفون عن فرض تشريعات وأفكار تسلب من الحياة معقوليتها ومضمونها كما أنهم تكفلوا بتفزيع أرواح عباد الله وقهرهم في جلودهم دنيا وآخرة.. وحسبنا الله ونعم الوكيل.!!

وإذا لم يكن فقهاء الوكالة في معية طواغيت العسكر فأنى لهم السكوت على مظالم: " ملأن البر حتى ضاق عنا... والبحر نملؤه سفينا "؟! هل يأمرهم دينهم بذلك؟! ولماذا تراهم فصحاء للغاية في أمور تتعلق بفقه الزي والخلوة في حين يفرّخ على رؤوسهم الطير لو تعلق الأمر بفقه مشروعية الحكومات؟! هذا إن لم يؤازروها ويكرسوا مشروعيتها بنصوص دامغة من كتاب الله ومن سنة نبيه وسلفه الصالح!!

هذا مناخ خصب جدا لتكاثر العنف سواء اتخذ وسائل تعبيرية في سياق الحياة والتاريخ أم ظل خامدا ساكنا ملغوما بانتظار أي خلخلة في تلك المنظومة وفي ذلك الحلف المقدس حتى تندلع البراكين ويسود الغضب وجه الحياة.

والمثقفون أنصار تغيير العالم بالكلمة.. الذين يبدون رأيهم

الحر فيما حولهم هم أول الضحايا.. فوجودهم يعتبر نشازا ودخيلا على تلك المنظومة وينبغي إسكاتهم بأي ثمن.. ومخطئ من يتوهم بأن محاولات الإقصاء وممارسة العنف على المثقفين وغيرهم ليس لها مردود.. نعم، قد لا يظهر مردودها على السطح.. لكنه يبقى مؤثرا وإن أخذ صورة المعايشة السلبية والكفر بقيمة الوجود!!..

# نحن الآن في قبضة الشاشة

مراجعة المفاهيم بين حين وآخر من شأنها أن تضع أيدينا على نبض التطور في مجرى الوعي الإنساني.. مراجعة من شأنها أن تجعل المصير البشري أكثر إنسانية وتقيم جوهر الإنسانية الحق وأعني به الاختلاف.. من شأنه أن يلفتنا دوما صوب تلك الحقيقة: الاختلاف هو اليقين الأكثر استحقاقا بالاحتفال.. حتى اللغة ذاتها لا تسلم من هذا التطور والتبدل الذي تكشف عنه مراجعة المفاهيم.

وقد يكون مدخل "الكتاب" ملائمًا للغاية في هذا الصدد، حيث الآن وبمجرد إطلاق الكلمة "الكتاب" فنحن بالضرورة ومباشرة تحت سقف المعرفة في أوراق تعمل المطابع على تعكير بياضها.. ويقوم الناشرون بمزاحمة الوعي البشري طوعا أو كرها بتلك المعرفة، و"الكتاب" بالضرورة يستحضر مأزق الثورة المعلوماتية التي تتصدرها الشاشة.. شاشة الكمبيوتر.. شاشة التلفون المحمول.. شاشة التلفزيون.. وهلم جرا من شاشات. فهل بإمكاننا القول بأن تلك الشاشات صارت الآن هي كتاب العصر تحمل مصائر الناس وتقدر مآل كل منهم مثلما كان الكتاب في عصور سابقة؟!

إن كلمة الكتاب وردت في القرآن الكريم مئتين وثلاثين مرة ووردت تسعا وثمانين مرة بصيغ أخرى أغلبها الصيغة الفعلية "كتب" وما تصرف عنها وذلك من قبيل: "وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، ويوم القيامة نخرج له كتابا يلقاه منشورا. اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا

" ( الآيتان ١٣، ١٤ من سورة الإسراء ). والكتاب هنا في هذا السياق تدور دلالته في إطار المصير والمآل المترتب على الأعمال، كما وردت بمعنى القرار والأمر كما في قوله تعالى: " اذهب بكتابي هذا فالقه إليهم ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون، قالت يا أيها الملأ إني أُلقِيَ إليَّ كتاب كريم، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم." ( الآيات ٢٨، ٢٩، ٣٠ من سورة النمل ). فمن الواضح أن قرار النبي سليمان لملكة سبأ والذي حمله الهدهد تضمن دعوتهم إلى عقيدة أخرى كما أنه الآن يحمل رموزا كثيرة تفتح آفاقا خصبة للمعرفة والعرفان.. وهذا أيضا من معاني الكتاب.

بل إن مسألة الكتاب وقراءة الكتاب وكتابة الكتاب وكل ما يتعلق بتلك المحورية العمود في رسالة السماء بالأرض ترسخت بصورة مركزية في الرسالة الإسلامية كما ترسخت قبلها في الديانة اليهودية، فنرى أول ما نزل من الوحي الإسلامي بدأ بالفعل " اقرأ " وهو فعل لاحق بالضرورة لفعل حتمي سابق " كتب " وعليك أن تنظر في قوله تعالى في بداية أطول سورة في القرآن الكريم.. ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ (الآيتان ١، ٢ من سورة البقرة ).

ومن قبل جاء في كتاب اليهود المقدس: " هذا كتاب مواليد آدم، يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عَمِلَـهُ. ذكرًا وأنثى خلقه وباركه ودعا اسمه آدم يوم خلق." ( ١، ٢، ٣ الإصحاح الخامس، سفر التكوين ).

والكتاب في هذا المفهوم التأسيسي للدلالة والمنطلق من الكتب المقدسة والنصوص المركزية في حياة الشعوب الشرقية تتمحور دلالتها حول مصائر وأقدار المخلوقات وكذلك علم الإله وأفعاله كما أرادها وكتبها قدرا يحكم مصائر مخلوقاته، وظل هذا المعنى متسيدا أفق الدلالة حتى وإن جاوره معنى القرار والحكم الذي استقر كناصية دلالية على الكتب

المرسلة من قبل الحكام والمسؤولين والقضاة لعمالهم والتي تستوجب التنفيذ، وأي مخالفة لها تستوجب العقاب بالضرورة. بمعنى أن الدلالة التأسيسية لمفردة الكتاب لم تغب عن التطورات اللاحقة على الكلمة وظلت تتردد بمستويات مختلفة في أي تطور لاحق حتى بعدما أَلِفَ العرب مسألة الكتابة في تدوين ثقافاتهم ومعارفهم بعد الإسلام وتمكنه في الكثير من البلدان والشعوب المجاورة لجزيرة العرب.

إلا أن الخصومة بدأت تنهض بين الدلالة التأسيسية للكلمة وبين التطورات الجديدة بعدما اخترعت الطباعة الآلية وشهدت حركة النشر المطبوع للكتب ثورة ضخمة في القرنين الماضيين.. بدأت الخصومة تنهض بحيث اختفى أو كاد المعنى التأسيسي الناهض على المصير والمآل والقرار وحل مكانه معنى آخر يقوم على الثقافة والمعرفة.

والآن نحن على أعتاب نقلة أخرى تعد انقلابا على المفهوم وذلك عندما تنفرط محتويات الكتاب على شاشة إلكترونية.. وعلينا أن نصغي جيدا للمعنى التأسيسي للكلمة عندما ننظر إلى الشاشة باعتبارها القابض المركزي والحيوي على المآل والمصائر لبني البشر على أعتاب مرحلة جديدة من تطورهم واطراد مسيرتهم.. نعم، الإنترنت هو عنوان المآل الضاغط المخيف.. مخيف لأنني لا ألمح سمت النبوات ولا الحكماء الملهمين على شاشته.. ولا يغمرني دفق البشرية بنبضها البريء العفوي كما كان في الوسائط السابقة وأعني بها الكتب.. الآن استحكمت الخصومة وانطبقت ثقافة الانعزال وأطبقت على أنفاس البشر وأخرجت لسانها للشرائط الاجتماعية التي تقوم عليها حياة البشر بوصفهم كائنات تسعى نحو الاجتماع والتعرف على الآخر.. فالمصير الآن في قبضة الشاشة.. وستظل هذه القبضة لسنوات غير قليلة قادمة خارج نطاق سيطرة الغالبية العظمى من شعوب الأرض حتى تصبح أكثر شعبية وتكتسب مسحة

إنسانية جماعية.. في هذه الفترة وحتى يصبح هذا المصير في قبضة الغالبية ستنشط الشياطين وربما يمتد نشاطهم للذاكرة المقدسة لدى شعوب الأرض وأعني بها العبث بمقومات الهوية التي تأسست عليها حياة البشر والتي تؤسس وتصيغ هويات الأمم في أصقاع الأرض المختلفة.. تلك الهوية التي تشكلها عناصر المكان والدين والتاريخ.. وربما كانت " فوبيا " تحويل حياة البشر إلى نمط واحد والهوس بضرورة سقوط الحواجز والاختلافات بين بني البشر ربما كانت تلك الدعوة من نشاط الشياطين المحتدم في هذه الفترة الذهبية وأعني بها الفترة الواقعة بين تدشين الكتاب الجديد " ثقافة الشاشة " وحتى صيرورتها إلى وسيلة شعبية تكتسب الملامح الإنسانية ونبض الاختلاف البشري الذي لا تقوم الحياة بدونه.

# ضغط العولمة

تماما مثلما في الأساطير.. لا يبزغ المستقبل إلا بالدم والعنف فتشرق الشمس الجديدة على جثث الأحياء وصرخات المقهورين، تماما مثلما في الأساطير.. يتجدد الواقع فتزول نظم وحكومات وتقوم أخرى جديدة مكانها، وهكذا يصر العولميون على اكتساح الفقراء والمقهورين والبسطاء في هذا العالم بعيدا عن سماء الأخلاق والقيم وحقوق بني البشر في العدل والرحمة والحب والكرامة، فأحاديث الدروع الصاروخية وعولمة التجارة واستيطان الكواكب الأخرى لا تتطرق إلى الأخلاق وحقوق سكان الأرض في تقرير مصير كوكبهم.

تماما مثلما جاهدت " إيزيس " في الأسطورة الفرعونية لتجميع أشلاء زوجها " أوزوريس " لإعادته للحياة وإنجاب ابنها " حورس " وإخفائه بعيدا عن عيون الملك " ست " قاتلُ زوجها حتى يكبر ويسترد ملك أبيه القائم على العدل والخير، وإن كنت أحاول جاهدا التخلص من التفصيلات المثيرة لإعادة الحق إلى نصابه؛ تلك التفصيلات التي تتماهى في كثير منها مع ما يحدث الآن من خداع ومقولات مضلله يروجها العولميون إلا أن الصراع لا يستقيم بدون احتشاد كل فريق بأقصى ما يمكن من آليات ووسائل للوصول إلى هدفه.

الآن يجتهد العولميون والذين هم التكييف الأخير لطائفة المحتكرين من الإقطاع والتجار في صياغة المناهضين لطموحاتهم على أنهم الفلول المتخلفة عن التنظيمات الشيوعية التي سقطت دولها الشمولية المستبدة

في روسيا وشرق أوروبا وذلك لاكتساح الوعي الشعبي الناشئ والمحمل بالكراهية والسخط إزاء تلك النظم البائدة وحشده ضد المناهضين للعولمة والذين نشطوا في مطاردة العولميين في كل اجتماع لهم في الغرب الأوروبي وأمريكا مرورا بالعاصمة القطرية الدوحة وغيرها من عواصم الشرق.

ولكن.. من هو العولمي؟! أظن أنه ذلك المسلح بيقين حاسم بضرورة توحيد نظم الإنتاج والاستهلاك بين جميع بني البشر وإسقاط كافة الاعتبارات المتعلقة بالاختلافات الجغرافية والحضارية التي تأسست عليها الشخصيات القومية المميزة للتجمعات الإنسانية على امتداد بقاع المعمورة. وبمعنى عام أن تتوحد عقيدة الحياة لدى جميع بني البشر، وأظن ذلك مستحيلا لأنه يقفز على اختلاف قدرات وطاقات الجغرافيا وكذلك البشر أيضا.

المجهودات العلمية في مجال التكنولوجيا أدت إلى تدشين آليات جديدة في مجال الاتصال وعليه فإن الدول المالكة والمنتجة لتلك الآليات توفرت على تفوق هائل استفزها لتركيز رؤيتها واهتمامها بالعالم أجمع على اعتبار أنها المركز والقطب الذي يحق له السيطرة والقيادة لحصد المكاسب الناشئة عن التخمة التكنولوجية لديها؛ عقيدة التفوق هذه لا تستطيع احترام إرادة الفقراء والضعفاء تكنولوجيا، ولا يمكنها النظر إليهم باعتبارهم مشاركين في مصير العالم أو حتى في تقرير مصيرهم القومي.

هذا الفائض التكنولوجي يجب فرضه على العالم وتصديره بالقوة للآخرين على الرغم من اختلاف الثروات الطبيعية وتنوعها بين أرجاء المعمورة، والمتخمون بالتكنولوجيا لا يرون مبررا لسيادة الفقراء على

قرار ثرواتهم ومصائرهم، والفقراء هنا هم فقراء التكنولوجيا وضحايا العسكر والمستبدين ليس إلا.

وعقيدة الحياة لدى البشر في المشهد العام منجذبة لاتجاهين، الأول يرى أن الإنسان يمكنه امتلاك كل شيء ويمكنه تحقيق كل شيء هنا وحالا تحت هذه السماء وفوق هذه الأرض، وهؤلاء هم المتخمون بالتكنولوجيا إنتاجا واستهلاكا ونظاما للحياة لدرجة إهدار النواميس المستقرة في الحياة بشأن تخليق البشر أنفسهم ومفهوم الأسرة والغرائز. والاتجاه الآخر يرى البشر مسؤولين هنا في هذه الحياة ومحاسبون على تلك المسؤولية في حياة أخرى يوم القيامة أو يوم الدينونة، ناهيك عن الخلافات المتجذرة بشأن نوازع البشر بوصفهم ذوات فردية.

الآن شرذمة من الكسالى تقطعت بهم السبل يناهضون ويشاغبون أرباب العولمة من بلد إلى بلد.. الشركات والمصانع الصغيرة تفككت أو هي في سبيلها إلى ذلك نظرا لأن الشركات العملاقة تستوعب نظما تكنولوجية وإدارية تفضي إلى الاستغناء عن خدمات الكثير من العاملين وجني أرباح أكثر، هذا الوضع بالتأكيد وعلى المدى القصير سيسفر عن حلول وسط داخل البنية المتخمة بالتكنولوجيا، وتبقى الأزمة باتساعها الجنوني في شرق الأرض المنجذب نحو القيم والأخلاق الرسولية والمحكوم بالعساكر والمستبدين المكرّسين من قِبل المتخمين بالتكنولوجيا لتسهيل فتح الأسواق عن طريق إشعال الحروب وتعويق مسيرة التنمية في شعوبهم.

المدهش في المشهد أن الأمريكان وهم على هرم المتخمين بالتكنولوجيا يحوّلون العالم إلى مزبلة، في البحار والهواء والأرض حتى على سطح الكواكب القريبة والبعيدة عن سطح الأرض، ويرفضون المشاركة في تحمل المسؤولية؛ بل يتوسّعون في زيادة رقعة المزبلة بإشعال الحروب

في كثير من مناطق العالم المنكوب بحكم العسكر والمستبدين في مناطق الخليج وجنوب ووسط أفريقيا وأمريكا اللاتينية، فعقيدة الحياة لدى المتخمين تكنولوجيا تستمد أخلاقها من ضمير الماكينة.

حال ما ينظر الشعب في دمه
ينقض على ملوكه التذكاريين..
على مسوح الشعائر في دور العبادة
ودوائر الحكومات
انظر:
حقول الشعب حولك نهبا للجراد والأوبئة
تداهمها الحلفاء في الهوامش
وفي القلب أيضا
في البيوت يصمت الدم
يخلي الأسرَّة والمقاعد لأزيز الماكينة
سيقولون:
ها هي ثياب الشعب مزركشة مغرية
والناس متأنقون في المأكل والملبس
والأحاديث الخلوية
فأحرى لك أن تؤمن بالأرصفة المصقولة في المدن العصرية
أو تركن لكواعبها من نسوة داود
أولات الأصباغ والبسمات الوردية
عندها يجدر بي أن أصرخ:
احترسوا
اللصوص يوجهون زمام الأمور في المملكة

و القطيع سقط الآن في قبضة الجزارين
ولن يرحموهم
فويلٌ للهاربين من سعير الحالة نحو سماءٍ أخرى
ليخمدوا سخط الشعب
الذي ينتزع قوته وأمنه
يوما بيومٍ
من قبضة الحكومات .

# تأويل الوليمة وضمير المثقف

- لولا طمعي في العدل ما جئت
لولاه..
ما تأبدت روحي في عالم البرزخ

طبعا.. من الطبيعي جدا في عصور الانحطاط أن تتسع المسافة بين خطابات ومقولات السادة المثقفين وبين ما يعتنقه الشارع من قناعات تشكل الهوية الجماعية للأمة في اللحظة المعاشة وخصوصا إذا كان المثقفون منخرطين عن وعي ومسؤولية - طبعا - في تكريس قناعات المؤسسات ولا سيما السياسية منها.

وبصورة تكاد تكون حاسمة تبدو الطروحات الثقافية في عصور كهذه استجابة لخطاب النموذج الرسمي والذي تحتذيه النخب الثقافية وتنظر إليه باعتباره قمة مجسدة لطموح البشر في اللحظة المعاشة في حين يكون الوعي الشعبي مأسورا تحت ضغط الإحساس بالاحتقار والتواضع بكل تجليات ذلك النموذج في بعده المادي والتقني مما يتيح للمثقف الرسمي فضاءً حقيقيًا تسرح فيه مقولاته دونما أي قراءة أو غربلة حقيقية لثوابت تلك المقولات على محك قناعات الحضور الجماعي المسلوب في ظرف كهذا.

ويكون من المنطقي جدا أن ينحرف المثقف - بوصفه الذات الأكثر

وعيا بعصب حضارته – عن دوره ومساره في التبصير والقراءة الكاشفة لمكامن الخلل والقوة في تاريخ أمته ليتحول إلى بوق يروج قناعات مرحلية وإن تغلفت ببعض الهالات الموهمة بأنها في النطاق الثقافي والحضاري، ولدينا في لحظتنا الراهنة الكثير من الأمثلة والنماذج لما يمكن تسميته بالكتل الثقافية التي انحرفت عن دورها الطبيعي والأساس في تاريخ أمتها.

إن مقولة نكأ الجراح للوصول إلى العصب الأساس تبدو لي كغريزة تعصم المثقف من الوقوع في المناطق التي لا يصح فيها الحياد وتمنعه من الوقوف في المناطق الرمادية، ربما لأن رسالة المثقف الحق تضغط باتجاه الوقوف في مناطق السطوع دائما وخاصة إذا كان المثقف أحد أبناء حضارة الشرق.

ومن الثابت أن الأمم في عصور انطفائها تجد نفسها مدفوعة للغلو والتشدد إزاء التوجس الكاسح من سطوع الآخر، وتعلو فيها صيحات الانعزال والتقوقع القائمة على مفاهيم أحادية غاية في التطرف بشأن تراثها وماهية وجودها وخصوصا الديني منه علي اعتبار أنه الأكثر موثوقية نظرا لوشائجه الإلهية وتجلياتها على علماء الأمة وأقطابها المقدسين.

## تأويل

جسدك لك، أو للتراب يكون، لا أحد يستطيع ادعاءه.. لا أحد بمقدوره التسلط عليه، وهو حر تماما بعيدا عن تواريخ العلوم التي سيجت حدود المعرفة الإنسانية على قوس الزمن المتداول في مرمى الوعي البشري.

جسدك رسالتك الوحيدة الباقية.. الناجية من عبث وتزييف التاريخ، رسالة حقه تخصك وحدك، عليها رموز الخالق ومفاتيح الحقيقة، فتعلم كيف تنصت إليها، وتعلم أبجديتها فذلك أملك في معرفة حقة، فليس

بمقدورهم أن يضعوا شرطيا أو مثقفا رسميا لكل جسد وإن جاهدوا لصياغته ضمن منظومة الخبرة والتاريخ.

وأتعجب من جموع القطيع التي تأتي وتمضي دون أن تبصَّ ولو مرة واحدة في جسد حضورها! وأنا قانع بأنه من المستحيل قبول الوجود في غياب مبدأ العدل محتوما كان أم مقترفا.

يا صاحبي.. أنت في مدينة ولكل واحد رقم ليس إلا، ولو حدث ونسيت فمن المؤكد أنك سوف تضل في مدينة الأرقام هذه، ولن تجد هاديا حيث لم يضع المصممون احتمالا لشخص مثلك له ذاكرة حسية يعرف الأشياء والأسماء باللمس.. بمجسات الغريزة.. فسلاما على الضائعين والضالين في غوايات المدينة اللعنة.

المكان ينتخب كائناته الحية ويصوغ جدل الحياة بينه وبين القوة التي بعثها فيها ويشكل منها زمنه الخاص، هذا الزمن إن هو إلا حضور الجسد بمعنى أو بآخر، فهو ليس إلا جسد الكائنات، في حين تبدو الأجساد الفكرة وعالم المثل الذي تحدث عنه أفلاطون شيئا خارج الحضور.. خارج سلطة المكان.

أضعُ الآن يدي فوق كتفك يا صاحبي، فاقرأ ما فيكَ مني، كنتُ وحدي تقريبا أتصدى للخراب.. للرغبةِ العارمةِ بالمظْلمة.. فهلا وعيتَ ارتطام دمي في أرض الظالمين، حتى القادمين منهم سينالهم حظ من المظلمة.. ارتطام وجوههم بالطين.. بالفساد وأبدية الرغبة التي صيّرتْ جسدي نحتا في الهواء إلى يوم يبعثون، فاقرأ ما تيسّر لروحكَ من أبجدية النور واقبس ما شاءت يمينكَ من الخلاص.

# كتاب المدينة

الغريب يستجير بالظلام.. محتاج يغمض قلبه وعيونه، والموحوش تجننه المدينة لأنها مبنية ع العزلة، ولو حبيت تشوف جارك أو حد من أهلك يلزمك موعد، يلزمك تكتب وحشتك لحد ما تسمح ظروف المدينة ويقابلك.

من زمان والبشر يجتهدوا في مسألة السكن، اتخذوا الكهوف المهيأة سكنا، ثم بدءوا في إقامة العريش من الأشجار والأحجار وعظام الحيوانات الضخمة، وشيدوا مساكن من الوبر يرتحلون بها أينما حلوا، ثم عرفوا البناء والمعمار من طين الأرض وأحجارها، وصارت مساكن دائمة يولدون بها ويعيشون فيها ويعودون إلى ترابها وتتوارثها أجيالهم ويصنعون معها ذكرياتهم.

وعندما أصبح للبشر ذاكرة وتاريخ مع الأماكن وتشييدها بدأت تتضح النزعات الإنسانية في شكلها الجماعي فنجد من يفضلون المساكن التي تستجيب لغرائزهم والأخرى التي تطوع غرائزهم لصالح التاريخ.

المدينة نظام لكل واحد فيها دور هيأ وجوده عشان ينسجم وياه.. المدينة نظام كامل متأسس على الخبرة.. وكل شيء فيها متخصص، جماعة مسؤولة عن الأكل والشرب، وجماعة مسؤولة عن الإغاثة، لكن مفيهاش طمأنينة بالمعنى الحقيقي.. والناس فيها مش متأكدة من أي حاجة، مش عارفين، مش عارفين بالضبط هُمّه عايزين ايه، ومستعدين على طول لتغيير وشوشهم وأفكارهم، بيعيشوا ويموتوا ويورّثوا أولادهم

حياة غايبة عن أصلها، مجرد آلات بتشتغل عشان تعيش حياة مفيهاش أسئلة كبيرة بخصوص وجودهم، يعني محصورة ما بين لحظتين.. الميلاد والموت، ولو فكر الواحد في المدينة يمد دماغه خارج الموت والميلاد يمكن يبقى مجنون في عرف المدينة، وده شيء عادي، وعشان كده كل المدن فيها مشافي للمجانين، في حين من المستحيل تلاقي مصحة للمجانين خارج المدينة.

والجسد كما خلقه ربنا ما يقدرش يتحمل نظام المدينة، فيعترض ويرفض لكن صاحبه بيغصبه ويعيش، عينه بتوجعه، ومعدته تعبانه، وعقله مش قابض على العلاقات والمعاني ومتشوشر وتايه.

من فتره بصيت جوّايه واعرفت إن البشر حكايه بتشكلها الغريزة والتاريخ، والغريزة بطبعها متقبلش النظام الجماعي، الغريزة صمام أمان لوجود البشر على اعتبار انهم أشخاص، كل واحد منهم مختلف عن التاني، التاريخ نظام وسياسة وديانات كل غرضها تهذيب الغريزه وتطويعها، بتحاول ميكونش فيه فردية، وده ضد الغريزة، ويمكن هوّ ده أصل الصراع، لأنه في الحقيقة مفيش حاجه كلها شر ومافيش حاجه كلها خير.

الغريزة يناسبها سكن قد يكون كهف أو عشه أو خُص أو بيت من وبر البهايم، سكن مالوش امتداد، في حين أن المدينة نظام، قوانين محفوظه قابلة للتجسيد في كل الأمكنة، شوارع وبيوت وبنايات للعمل.

في العهد القديم زوجة النبي اسحق السيدة رفقة احتالت عشان تاخذ البركة من النبي زوجها لابنها يعقوب وتحجبها عن ابنها عيسو لأنه كان دايما بعيد عن البيت وعايش في البراري وهيّه بتحلم في بيت يمتد فيه نسلها.. فيه استقرار وبعيد عن المخاطر حسب ما تعتقد.

وعشان كده أقدر أقول إن نزعة البشر للحياة في المدن وراها غرائز النسوان، لأن المدينة بتوفر العناوين الثابته، وفي المدينة بتضمن الأنثى رجوع ربها آخر النهار لحضنها، وتضمن كمان إن المدينة تهذب غرائزه فميفكرش في حد غيرها وتظل هيّه محور انشغاله، إن مكانش من أجلها فمن أجل أولادها.

والمدينة بطبعها فقيرة، مفيهاش تنوع، وبعيده عن منابع الحياة، يعني يمكن الواحد يعيش فيها ويموت من غير ما يشوف جبل أو حتى نهر أو بحر ولا صحرا وحيوانات ونباتات وخلايق كتيره ملهاش عدد، ويمكن الواحد يعيش ويموت وميشوفش السما كويس أو حتى القمر، واحنا البشر جوانا شيء محتاج يشوف السما، ونظام المدينة بيستهلك طاقات ناسها فميعرفوش غير النوم والعمل، ويخافوا يجربوا، بيخافوا من لسعة الحياة الحقيقية، يخافوا يخرجوا من البيت من غير ميعاد، ويخاف الواحد يكلم شخص ميعرفوش، ويخاف يلمس الأشياء، ويخاف يفكر خارج نظامها، ويموت في النهاية بالسكر وضغط الدم.

والمدينة نظام بيطـوّر ويتعقـد علي مر الزمن، نظام جهنمي مالوش حدود، أساسها الانعزال والخصومة، والناس لما تفرح بيحبوا الغنا ويظهروا بساطتهم ويكشفوا عن أصلهم، إلا في المدينة الناس بتخاف من البساطة، بتخاف م الغنا، فتلاقيهم عاملين نفسهم بيغنوا لكنهم مش مبسوطين، مفيش فرح، والكلام في المدينة مفيهوش دفا يونس الأرواح، الكلام في المدينة يجيب القلق والوحشة.

والتجار محتاجين المدينة، والعسكر محتاجين المدينة، والأطبا وبتوع الهندسة والأكاديميا ومناهج التربية، محتاجين زباين.. ناس بتقدس النظام وبتترعب من الخروج عليه أو حتى مخالفته، طبْ مين بقى اللي

منزعج منها؟ الشعراء والعشاق والحكما.

المدينة نظام، اخترعه البشر وقدسوه، واستغله الحكام والتجار والأنبيا المزيفين وتحالفوا كلهم في الحفاظ عليه، بعض المدن يمكن تلاقي فيها حياة، تلاقي فيها نظام بيستجيب للخبره، ومنها أماكن بتستجيب للغريزة، فتسمح بخرق النظام فيها، وبعض المدن غبية.. غشيمة معندهاش رحمة بتخنق اللي يخالفها وتحبسه.. يعني لو واحد عمل عشة عشان يشوف وشوش البشر ويتجمعوا فيها، يمكن بتورع النظام يحبسوهم، والمدن اللي فيها حياة تلاقي فيها أماكن بيسموها عشوائية، والحقيقة غير كده.. بشر مطرودين من المدينة، متخاصمين وياها، فبيعيشوا على كيفهم، زي ما هُمّه عايزين، المدن الغبية بتحذفهم وتكشطهم، لكنهم بيطلعوا تاني، لأن الحكاية " حلقا " مزروعة في أصل البشر.. في أرواحهم، فإزاي الأغبيا يحاربوا الروح ويكبتوا شوقها؟!

في المدينة كتير من الافتعال، وتلاقي ناس بتقدس عادات وتحترم أشياء هيّه مش فهماها، ولا عارفة إيه أصلها، لكنهم بيدافعوا عنها بحماس واستماته، إن كان جوّه البيوت أو حتى برّاها، في الأكل والملبس أو حتى الكلام والغنا، وان حد اعترض يقولوا عليه فوضوي أو حتى متخلف، والمدينة عملت حلول لما الغريزة تعترض على نظامها فبنت السجون والمصحات، والحقيقة مفيش علاج غير انتظار الموت.

والمدينة اسمها مدينة من الدين يعني النظام والقداسة، واسمها أساسه دين يعني الإدانة والاتهام، في حين أماكن تانية زي القرى جايّه من القِرى يعني الكرم والبذل والإنفاق، وعشاق المدينة يحبوا دايما يبقوا مديونين مش داينين والمعنى فيها قايم ع التجارة، ولغة ناسها محصورة دايما في الربح والخسارة حتى لما بيتكلموا في السياسة والحب تلاقيهم مش

قادرين يخرجوا من لغة التجارة.

والإنسان مننا عنده ذاكرة برّه التاريخ من حين كان في الرحم.. والرحم مكان سكن مش قايم على هندسة البشر وخبرتهم في صياغة الأمكنة، الرحم مكان للجنين بيستوعب حركته، بيضيق ويوسع ويتكور، وفي الأخير فيه ناس بتتولد بظهرها وناس بتنزل براسها، وعمر البشر في الرحم زي عمرهم برّه، مختلف ماهوش واحد، وذاكرة البشر اللي من خارج التاريخ بتضغط عليهم عشان يعيشوا في سكن يناسبهم، لكن كتير منهم مش واخذ باله، فيغصبوا روحهم على الحياة في مكان من اختراع عبقري تاجر، له نظام واحد يسهل البيع والشرا وشراهة الاستهلاك، ويألفوا لهم أغاني تقولهم إنهم آخر تمام ومش محتاجين حاجه، لكنهم في الحقيقة مش مبسوطين، وحاسين إنه فيه حاجات كتير ناقصة وشامين ريحة مؤامرة.

والكذب في المدينة كذب شيطاني يودي ف ستّميت ألف داهيه ويقصف الأعمار، لأن كداب المدينة بيدور على سلطة، مكسب يقوي بيه سلطته، في حين إن الكدابين برّه المدينة غاويين أنس، همهم ألفه بيخلقوها ف كدب إنساني، فيألفوا حكايات عن العفاريت وقصص عن بطولات محصلتش، الكدب برّه المدينة استجابة لغموض الغرائز، بيحل غربتها داخل نظام بتكرسه الخبرة والتواريخ.

والكدب في المدينة مش عيب، ومن كترة الكدب ما عادش حد بيسأل روحه عن الحقيقة، وعشان كده أصبح الإعلام أهم شيء في المدينة، كل مجموعة عاملة جهاز للكدب، وبيسموه إعلام لزوم الهروب م الحقيقة وتحقيق التوازن الوهمي، إعلام عن حاجات محصلتش، وأي واحد في المدينة عنده سلطة يبقى زي ماهو عاين، يبقى خبير في كل حاجة،

ويبقى أستاذ كبير لأنه مفيش حد بيعترض، محدش فاضي يعترض، الجميع مشغول بنفسه، حاطط نموذج لنفسه وماشي عليه وكل همّه يحققه.. وآخرتها؟ أهو ده كمان سؤال مش وارد ومن الغريب تسأله جُوّه المدينة!!

الناس بتاكل لما تحس بالجوع، لكن في المدينة مش كده، لأن محدش عارف إن كان جعان ولا شبعان، الناس بتاكل وخلاص، بتاكل لما الشغل يخلص.. أو بتاكل لما تيجي مأكلة، وبتاكل أي حاجة، ولأن في المدينة ماحدش اختار شغلته فمعظم الناس متعرفش إمتى الشغل يخلص أو إمتى يبتدي، وتلاقي أصناف كتيرة من الأكل ومناظر أنت مخترتهاش، لكن مفيش غير كده، فإزاي يكون لك رأي في مسألة الحياة والموت وأنت مش قادر تختار أكلتك أو هدمتك؟!

منطق التاريخ السائد في المدينة بيبعد الناس عن الرحم، لكن منطق الغريزة لو أنصتّ له يقربك منه ويريحك من غباء التاريخ واللغة.. من مغامرات العساكر والتجار وبتوع المناهج، ولحد دلوقتي مازال السؤال محيرني، ليه بتوع المناهج مش عاملين حساب لمنطق الغرائز ومتعمدين يشوهوا طبيعة البشر ورامين فكرهم في حضن المدينة ومش شايفين غيرها، يمكن بيحتقروا الغرائز؟ ويجوز خجلانين من أصلهم، مهمومين إزاي يغطوا عليه أو ينسفوه! يمكن!!

الأشياء اللي ممكن معرفتها بالحواس هيّه في الأساس معنى، مفردات الكون أصلها مضامين في المعرفة، وفي المدينة الميّه بتيجي م الحنفية، والهوا م المكيف، والخبز م الدكان مش حتى م المخبز!! وعشان كده جيل المدينة ميقدرش يشوف أبعد من مكان رجليه، ميفهمش إيه معنى إن الميّه لازم تصعد في السما عشان تكون صالحة للحياة، وفي اعتقاده

لو قدرنا نصنع القمح بيبقى شيء عبقري، وتلاقي في المدينة الناس مصدقة حكاية صنع القرار وصناعة المعرفة وعجلة الإنتاج، وفرحانين إنه فيه كداب كبير بيروج لحاجة اسمها صناعة الأجيال، وعيال المدينة لما يحبوا يعرفوا عن الوجود حاجة بيودوهم جنينة الحيوان ومتاحف الأشجار، ولحد دلوقتي مازلت متحير ليه في المدينة بيصاحبوا القطط والكلاب بالذات؟!.

## الجوائز الأدبية
## قبضة التجار مرة أخرى

ليس تمامًا.. بل أنت الهالك
صرت وإياك مشاعًا لغرور المالك
مذ أصبح للشّعار معاجم ومسالك
تغزوهم بالعطر وبالنفط مهالك
كن ما شئت فأيدي التجار ستغزوك
في الصبح النيّر أو في الليل الحالك
في الطبخ وفي الفن وخطب الجمعة والعيدين
حتى أكفان الموتى وبريء الإحساس كذلك.

لأن الحاكم العربي لا يلذ له المقام ولا تستطيب له أبهة العرش إلا إذا حمل عرشه ثمانية: زوج من العسكر، زوج من الكهان، زوج من التجار، وزوج من الشُّعار، وبما أن العسكر والكهان والتجار أصحاب مصلحة في ثبات الكرسي حتى يؤول الخراج والجزية وعرق الرعاع والأجَراء إلى مثواه الأخير في كروشهم، بما أن الأمر كذلك كان لابد من إغراء الزوج الأخير من الشعراء وأولي الكلمة فكانت الجوائز والمعاجم والدورات ومن لم يصبه الدور في الجائزة فسيظل طامحًا وآملًا أن يصيبه الدور، وما دام الزمن دوارًا فسيأتيه الدور لا محالة.

وبما أن العربي لا يستسيغ الخضوع للجماعة والعمل برأى لم يخرج

من دماغه فهو يستنكف نظام الضرائب ويعتبرها جباية يؤديها صاغرًا، وعليه تحللت الدولة من مسؤولياتها تجاه الرعية أو بالأحرى تركت جزءًا من مسؤوليتها لزوج من حملة الكرسي.. لزوج هو أكثر ولوغًا في دم الشعب ودسمه.. تركته للتجار، وبما أن التجار كالمناشير تحزّ شفرتها خشب الشعب في الطالعة والنازلة فلا بأس من أن تكون لهم جوائز تروّج لتجارتهم وتعلن عنها بتكلفة أقل كما إنها فرصة لصياغة ذائقة الناس منتجين ومستهلكين، شعراء وهالكين وبالناس المسرة وعلى الأرض السلام.

وقد يقول قائل: ولم أنت غاضب ومعترض، بل لم أنت حاقد وناقد يا هذا؟!! إنهم مغرمون بالثقافة ويعملون على تشجيع المثقفين أفلا يحق لهم منا الثناء والشكران بدل الاعتراض والنكران؟! وأقول: إذا كانوا فعلًا من المحبين والمساهمين وأصحاب الأيادي البيضاء فلم لا يكون إسهامهم من خلال إقامة البنية الثقافية المنهارة في كافة الأرجاء، فلا مكتبات أو مراكز ثقافية بكل ما يلزمها من وسائط لنقل المعرفة، ولا مؤسسات مستقلة للعناية بالأدباء والمثقفين على صعيد النشر أو على صعيد توفير الحياة الكريمة ولا رابطة تهتم بالدفع عنهم ضد بطش السلطة أو بطش الحياة في الوقت الذي ينخرط فيه كل التجار للمساهمة في الروابط المدافعة عن حقوق الحمير والكلاب والشواذ... إذا كانوا فعلًا من أصحاب الأيادي البيضاء والنوايا البريئة فكيف لهم أن ينصرفوا عن تأسيس ورعاية البنية الثقافية وخصوصًا في محيطهم داخل جزيرة العرب التي يستباح فيها دم المثقف والأديب وليس في الكثير منها ولا حتى جهة واحدة مستقلة تعمل على نشر أعمال الأدباء بصورة دورية منتظمة وفق برنامج محدد يضمن الفعالية للكلمة والرأي ويتيح للأدباء بعضًا من المكانة المهدورة.

وقد يتعلل البعض بما لدى الغرب من إسهامات أهلية في نشر الثقافة والمعرفة وعلى سبيل المثال السيد جيتس أغنى رجل في العالم الذي خصص منذ سنتين أكثر من ثلاثين مليون دولار للشعراء.. قد يتعلل البعض ويقول لماذا لا نكون على شاكلتهم؟! وأقول إن السيد جيتس وأمثاله في المنظومة الغربية يعملون وفق منظومة أخرى، فالدولة مثلًا عندهم تتنازل عن جزء من الضرائب المستحقة على السيد جيتس وأمثاله إذا أسهموا في الأعمال ذات النفع الجماعي العام، والسيد جيتس وأمثاله لا يعملون على هواهم في ميدان العمل الخيري بل محكومون بنظم يشرف على تحققها خبراء ذوو كفاءة، فلو كان السيد جيتس مثلًا من عشاق الشعر النبطي الأمريكي فلا يحق له أن يكرس أمواله للترويج لهذا النوع من الشعر، أو لو كان من مهاويس كتابة السيرة الذاتية أو الشعر العمودي فليس من حقه أن يستغل أمواله ويأخذ نسبة من الإعفاء الضريبي بينما هو يغرق السوق بما يرضي ذائقته من أصناف الفنون والآداب.

فيا أيها التجار العرب استحوا وكفاكم ولائم الحكام وأرباح العولمة والانخراط في مص دماء الفقراء و"الغلابة " كفاكم سحتًا وارفعوا أيديكم وأطماعكم عن ذائقة الشعوب.. عن فنون الشعوب وضمائر الأدباء.

ويا أيها المثقفون كونوا على ضمير حق وانظروا في قلوبكم وانظروا في أيدي التجار، انظروا في قلوب شعوبكم وارحموا أنفسكم وارحموهم.

# المثقفون وأزمة الهوية

أزعجني في الآونة الأخيرة ما دار من نقاش في لقاء ضم مجموعة من المثقفين منهم الصحفي والشاعر والروائي والفنان التشكيلي في إحدى الفضائيات التي تبث باللغة العربية من داخل النطاق العربي وكان الحوار حول كتاب لأحد المترجمين والذي كان حاضرا اللقاء يعرض ما ترجمه عن إحدى الكاتبات الأمريكيات في كتابها عن دور المخابرات الأمريكية في تكريس بعض النزعات الفنية والاتفاق عليها في شتى أرجاء العالم.. وذروة الإزعاج كانت عندما تطرق الحديث عن دور بعض المجلات والتشكيلات الأدبية التي تصدرت الإبداع والثقافة في منطقة الناطقين بالعربية من أمثال مجلة شعر ومجلة حوار وغيرهما وبالطبع شمل الحديث النزعات التشكيلية من قبيل التجريدية بأطيافها المتعددة.

والإزعاج لا يأتي من مجرد التطرق لمثل هذه العلاقة بين الفن.والسياسة والتي من أدواتها أجهزة المخابرات في الداخل والخارج لأن مثل هذه العلاقة من الأمور البديهية منذ عرفت الحضارات منظومة المؤسسات وتنظيم الأعمال في شكل جماعات، وخير مثال على ذلك دور الشعر العربي وارتباطه الوثيق في معظم مراحله بالحكام ودوائر السلطة من وزراء وولاة وعمال أقاليم وغيرهم من ذوي النفوذ والمكانة.

إنما الإزعاج لأن المثقفين والثقافة من أدوارهم الحاسمة التصدي لتعليم الأمم والشعوب كما جاء في المعاجم اللغوية حيث تقول " ثـَقـَّفَ " الإنسانَ أي أدبه وعلـّمه وكذلك تثقف فلان وتثقف على فلان وفي مدرسة

كذا. والثقافة كما أجازت مادتها معاجم اللغة الصادرة عن المجامع اللغوية هي العلوم والمعارف والفنون التي يتطلب الحذق فيها.. إلا إن المعاجم ذكرت أيضا – وهذا ما خفف من إزعاجي بعض الشيء – في نفس المادة اللغوية أن ثاقفه فلان مثاقفة وثقافًا أي خاصمه أو جالده بالسلاح أو لاعبه إظهارًا للمهارة والحذق. والواضح أن ما يحدث الآن في دوائر المثقفين داخل بلادنا هو نوع من الملاعبة والمخاصمة وإظهار المهارات والحذق والتمكن من اللعب بمشاعر وأدمغة الأمم والشعوب المنكوبة في بلادنا بمثل هؤلاء المثقفين.. وربما كان الهدف مغازلة أنظمة الحكم التي تتشكل الآن وراء الكواليس في معظم بلادنا. ربما سيتعينون بهم في مستقبل شؤونهم، فها هم لاعبون مهرة ومغازلون على أنظف طراز!!. فما المانع أن يكونوا " ذراعهم اليمين " في مستقبل الأيام؟!

طبعا، وبما أن الحديث في الكتاب المترجم عن الكاتبة الأمريكية تطرق إلى شعراء وكتاب ومثقفين في النطاق العربي فكان لابد أن يظهر دور العمالة والخيانة والارتزاق.. وطبعا تلك دائرة جهنمية عنكبوتية ومتاهة لا أمل في الخروج منها سوى بفقدان اليقين، والشك في كل شيء، وغرس مبادئ الريبة، وتفكيك الهوية في وعي الأمم والشعوب التي يحتل منابرها. مثل هذه الفئة من المعلمين والمثقفين.

مثلا، كان الأجدى أن يدور الحديث عن دور الأمم والشعوب في قيادة الأقاليم الحضارية، وأن مثل هذا الدور مرتبط ومشروط بخصال شعب وتراكمات حضارية على مدار التاريخ.. وأن هذا الشرط هو المبرر الوحيد لمثل هذا الدور، وبفقدانه لا تكون مشروعية للقيام بأعبائه.

تعرفون أن الله جعل الناس شعوبا وقبائل، وهذه تبدو حتمية قدرية مثلما جعل الله الإنسان خليفته في الأرض، وأن الشعوب والقبائل ما زالت

مستمرة وستظل حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولا.. وتعرفون أن للشعوب كما للقبائل خصالا وعلامات تميزها في مسيرتها وعطائها على مدار وجودها، ولا ينبغي الخلط بين ما هو للشعوب وما هو للقبائل، على الأقل لا يجوز أن يقع المعلمون – المثقفون – في مثل هذا الخلط الذي يربك ويهدر زمن الأمم والشعوب والقبائل ويحرفها عن رسالتها المنوطة بها.. كما ينبغي علينا الإشارة هنا إلى ما للفعل " جعل " في النص القرآني من سمات ودلالة مرتبطة بالدور والرسالة والتكليف الذي يفضي إلى المآل من مثوبة أو عقاب، وليس هنا المقام للخوض في تفصيل ما بين الفعلين " خلق " و" جعل " في النص القرآني من سمات فارقة وعواقب مرتبة.

وكل الشعوب والأمم الناطقة بالعربية مضى عليها أكثر من خمسين عاما وقد ابتليت بسلالات من المعلمين الأفاقين و" النصابين " لتمرير وتكريس مقولات مغلوطة بشأن الهوية والانتماء وتمجيد الزائف والطارئ والعابر لمصلحة القوى الاستعمارية تحت مسميات زائفة ومقولات مضللة كان حصادها ما نراه اليوم من محاولات محمومة لاستعادة الأدوار والكشف عن المقولات الحقيقية والأسس الراسخة لهوية الشعوب والأمم، ولكن للأسف يتم هذا تحت أفق ضيق تحكمه انفعالات رد الفعل ودفع الأذى مما يوقع هذه المحاولات في شرك النفعية وضمير الحاكم الذي لا تحكمه – للأسف – مقولات الحضارة والتاريخ.

ومثلا ما المانع أن تسمّى الأشياء بمسمياتها في صراع منطقتنا مع الاستعمار الذي أطلق عليه الصراع العربي الإسرائيلي، فهو صراع ليس عربيا وليس إسرائيليا، وإنما أُريد له تضليلا ورغبة في تكريسه أن يكون كذلك. فإسرائيل كدولة وكيان سياسي لم تظهر في ظل منظومة اسمها البلاد العربية ولكن في ظل منظومة يقربها ويؤثر فيها انتماؤها الإسلامي، وكانت العلاقة بين شعوبها أكثر حرية وسلاسة وتدفقًا وحيوية في نطاقها

الاقتصادي والسياسي والعسكري والثقافي في ظل الأفق الإسلامي. فتم تكريس الجامعة العربية كمركزية مغلوطة تتصدر الخطاب الإعلامي والسياسي لتوهم الشعوب بأن هناك منظومة عربية بينما المنطقة كلها وعبر تاريخها واجهت كل لحظاتها الحرجة والحاسمة في صراعها مع الاستعمار والغزو المغولي والصليبي والأوروبي الحديث في نطاق الانتماء الديني الإسلامي، ولم يكن صلاح الدين قائدًا عربيًا بينما كان قائدًا مسلمًا انطلق من مصر بكفاءات إسلامية ومصرية لدفع الخطر، وكذلك الكثير من القادة أمثال قطز وبيبرس ونجم الدين أيوب، وحتى كتائب المقاتلين في أرض فلسطين منذ أكثر من ستين عامًا.. فلِمَ يتم تحريف الصراع عن مجراه الحق إلى مجرى مزيّف؟ بالطبع، إذا استند الصراع وتواصل في مجراه الطبيعي والحقيقي تحت أفقه الحق فسيكون الخلاص قريبًا، وهذا ما لا يريده المستعمرون. بينما لو تواصل الصراع تحت أفقه الحالي فمن الطبيعي أن يحاكم ياسر عرفات – قائد حركة التحرير الوطنية – وهو محبوس أصلًا، قتلة الأنبياء والمستعمرين، ويكون أحد الأدوات السياسية للسيطرة على فلسطين ويكون من الطبيعي جدًا أن يتم التحفظ عليه في مكان أمين حتى يفرغ المستعمرون من القضاء على المناضلين والفدائيين.

هذا وغيره من النتاجات المخجلة لإدارة الصراع وتكريسه على غير أسسه ومنطلقاته الحقيقية وبمساهمة كتائب المناضلين من المثقفين الذين ابتلانا الله بهم فيتصدرون منابر تعليم الأمم والشعوب في بلادنا المنكوبة بهم وبمن يستعملهم!!

# حروب التخلف والنفي التاريخي

مثلما في المدينة.. لكل خمارة حرس مسلح.. يحمي السكارى من سطوة الخمر.. فلكل منبوذ في بلادي – وما أكثرهم – معلمون تجار وأنبياء كاذبون، بإمكانهم تزييف أي حدث وتحريف أي حقيقة عن مسارها الطبيعي.. هؤلاء المأجورون أو الغافلون في أفضل التصورات لديهم ملكات خرافية ولهم سماسرة مكتشفون لمواهبهم، والأمر قريب الشبه بمهمة الكشافين الذين يتولون البحث عن الموهوبين من لاعبي كرة القدم في الشوارع والأزقة على الأسفلت أو فوق الساحات الترابية في عمق الريف.. هؤلاء السماسرة مجالهم خصب ومفتوح جدا في بث الفضائيات الذي لا ينقطع ليلا أو نهارا ويحتاج إلى " كلامنجية " باستمرار..

فلا غرابة إذًا إن توهجت حناجر " الكلامنجية " والذين خلعوا لتوِّهم مسوح العولمة والقرية الكونية والحديث عن حائط الصواريخ الأمريكي وضرورة أن يتوحد العالم تحت معايير ونظم واحدة في الأكل والتعليم والدفاع عن النفس وكذلك في الحفاظ على التراث وإن كان كثير من الأمم ليس لديها تراث كي تنصهر في البوتقة العالمية للحفاظ عليه؟!.. وإيه يعني.. المهم يتوحدوا.

نحن لا نبحث عن تبرير، فالنموذج الأمريكي واضح ومختصر جدًا: توحيد النظم في الاقتصاد وتفكيك السيادات الوطنية، وهذا النموذج تم إنجازه في الصومال، وقطع أشواطا بعيدة جدًا في العراق والسودان والجزائر ولبنان وأفغانستان، وتخطى مراحل أقل في سوريا وإيران

واليمن ومصر، وكأن قدر العالم أن يكون بين متضاديْن غاية في البشاعة إما أمريكيا أو أية نظام على غرار طالبان والجهاد.. وكأنه كلما قطع المغلوبون على أمرهم في بلادنا شوطًا في الحوار للاقتراب من صيغة مدنية حكيمة تتوافق مع أبعاد المكان وشخصية التاريخ.. أقول كلما اقتربنا من صيغة مدنية لتسيير الدولة عندنا نطّ الأمريكان ونسفوا المحاولة حتى نعود للبدء من جديد فلا صوت يعلو فوق صوت المعركة.. ولا وقت للعقل حين يخضع الجميع لمنطق الثأر بين قوى ليست بينها أدنى معايير التكافؤ.. وهلمّ جرا.

نحن أموات أولاد أموات، هذا منطق الحكمة عندنا، وعند أمريكا يختلف الأمر فهم طاقات لابد أن تبحث عن إشباع أو تفريغ. وهكذا نحن مختلفان ولا عيب في ذلك، إنما العيب أن ينطّ الأمريكان في كل مكان ويحشروا أنوفهم ومدافعهم ومصالحهم في كل جحر في العالم.. فمتى يقتنع الأمريكان أن يعيشوا مثل بقية خلق الله في بلادهم ويدَعوا الناس تعيش حسب ما تمليه عليهم شروط مكانهم وتاريخهم.. هذا هو السؤال؟!

وإذا لم يقتنع العالم بحق أمريكا في التدخل في أي مكان في العالم فسيكون الحل هو حروب لفرض التخلف والنفي من التاريخ على أساس أن معظم الإنجازات التقنية التي يتمتع بها العالم هم المالكون والمنتجون لها.. فإذا أردت أن تعيش كما تشاء فاركب دابتك وتنسم هواء النيل أو الصحراء إن وجدت هناك هواءً صالحًا.

ولكن تلك فرضية مغلوطة أورثت قناعة خطيرة وخاطئة، فمتى كانت البشرية تتعامل مع الإنجازات التقنية بمنطق الاحتكار؟! اخترع السومريّون الكتابة ولم يحتكروها، واجتهد المصريون في الطب والعمارة والفلك وصار ميراثًا للبشرية، وهكذا ساهمت كل الأمم في الحضارة الإنسانية.

فلماذا الآن في تلك المرحلة من تاريخ البشرية تصر أمريكا ومن ورائها الغرب على استحياء أن يحتكروا العلوم وإن لم يستطيعوا - وذلك أمر بديهي - فليحتكروا العالم!! هكذا تسير الأمور وإلا لماذا لا تقبل أمريكا والغرب أن يعيش الناس في بلادي وفق مفاهيمهم للحياة ووفق اختلافهم العبقري كما خلقهم الله.

## الجمهوريات الملكية وتوريث السلطة في بلاد المعتربين

مطلوب من المواطن في بلادنا أن يحارب اليهود ويضحي بما يملك.. بكل ما يملك في سبيل تحرير بلادنا من الاستعمار الإسرائيلي في الوقت الذي يرى حكامه وزعماءه من أبناء أمته يجلدون مواطنيهم ويضربون مدنهم بالطائرات والمدافع.. ويكرسون ثروات شعوبهم لأنفسهم وأبناء عشائرهم، بل ويورثونهم البلاد والعباد بعد مماتهم.

الإسرائيليون يضربون رام الله والبيرة وطولكرم بالمدافع والصواريخ ويقصفون غزة والخليل ومدن الفلسطينيين بالطائرات، ونحن نكره الإسرائيليين ونحاربهم.. بعض الحكام العرب يقصفون المدن العربية بالطائرات والمدافع ومطلوب منا أن نحبهم وندافع عنهم!! في أوطاننا لا تتسع آفاق الحكام لاستيعاب الاختلاف حول سبل العمل الوطني وطرائق النهوض بالواقع فتتفسح السجون والمعتقلات والمقابر الجماعية والعقاب الجماعي أيضا بقصف المدن وتشريد المعارضين.

نحن في مأزق.. أمة في مأزق وآخر خطوطه ما أسفرت عنه التجارب الثورية التي ادعت لسنوات أدوار البطولة ومشروعية القيادة.. آخر خطوط المأزق ذلك الاتجاه لتوريث السلطة لأبناء الثوريين والحكام في بلادنا المضروبة بالفساد وانعدام الضمير.

أحد أصدقائي - ذو باع طويل في السخرية من الأقدار - قال لي: ليس في الأمر ما يدعو للغرابة.. فقد تعودنا لسنوات أن ابن الدكتور يصير دكتورا، وابن الفلاح فلاحا، وابن الفنان فنانا، وابن لاعب الكرة

والخباز والنجار وهلم جرا.. فما العجب أن يكون ابن الرئيس في بلادنا رئيسا، وكل المناصب والمهام صارت تورث وعادت أبشع مما كانت أيام الاستعمار الأوروبي!!

اترك صديقي جانبا وانظر معي في تفاصيل خيبتنا.. ألا ترى أن كل المفاهيم مغلوطة أو مشوشة؟! مثلا لدينا مدارس أو معاهد للعلم في كل مكان، فهل لدينا متعلمون حقا؟! لدينا مجالس نيابية وانتخابات وصحف كثيرة، لكن هل لدينا حرية؟!.. هل نسمح باختلاف الآراء؟! لدينا مساجد كثيرة وكنائس ووعاظ وخطب تعج بها أجهزة الإعلام وغيرها من المنابر، لكن هل لدينا متدينون مخلصون ضميرهم حي؟! لدينا كل منجزات العصر المدنية، لكن هل نحن عصريون نعيش عصرنا حقا؟! وقس على ذلك ما تشاء من تجليات الحياة.

اعتادت بلاد العرب حتى قبل مجيء الإسلام تقديس قناعات الأجداد.. معتقدات الأجداد.. طرائق السلف في العيش، وهل أدل على ذلك من قول المعارضين للدين الجديد في تبرير رفضهم الدخول في الإسلام حين صرحوا بأن الرفض لا يتعلق بأمر أو تمحيص في الديانة الجديدة بل فقط أنهم وجدوا آباءهم عاكفين على عبادة الأوثان، وهكذا امتد هذا المنهج ليشمل كل شيء حتى أمور الحياة المعيشية.. فإن كان الأمويون اغتصبوا الحكم والسلطة وكبدوا الأمة طاقات هائلة من الفكر والاجتهاد والعمل أزيحت وأبيدت تماما وتلاهم أبناء عمومتهم العباسيون ليكملوا المسيرة ذاتها، فلا عجب إذًا أن يأتي أحفادهم بعد كل هذا الميراث من النفي والتغييب ويورثوا السلطة لأبنائهم والسلطان لعشائرهم، إلا أن التاريخ كما اتخذ دورة جديدة بمجيء النبي محمد والرسالة الإسلامية فإنه الآن اتخذ دورة جديدة أخرى مع ثورة المعلومات وتبديد العزلة الجغرافية إلى الأبد.. تلك العزلة التي حفظت للعرب ميراثهم في الحكم

والفكر والعمل.. فلم يعد بالإمكان عزل بلاد العرب بوصفها جغرافيا عن محيط العالم وما يدور فيه من تغيّرات تشمل كل شيء بداية من أنظمة الحكم وحتى النظرة للأسرة والعلاقة بين الأفراد.

لم يعد ممكنا استعباد الناس لفترات طويلة تحت مبررات الخصوصية في الدين والعرف والعادات ونظم المعيشة.. وإذا واصل مورّثو السلطة تصميمهم على هذا المسعى فليس أمامهم سوى أن يكونوا مهرجين معزولين لا سلطان لهم في الحقيقة على رعاياهم ولا نفاذ لمقولاتهم إلا إلى آذانهم فقط.. كما أن العالم.. حركة العالم لن تسمح لمثل هذه الفئة من العاطلين ومعدومي المواهب بالاستئثار بثروات جاهزة ينعمون بها وكأن السماء اصطفتهم دون بقية خلق الله ليعيشوا الفردوس قبل الممات.

وأنظمة الحكم في بلاد العرب تتوزع ما بين ملكية عشائرية وبين جمهوريات مزيّفة تم إقامتها بثورات هشة على أنظمة حكم ملكية قديمة شاخت في أحضان الاستعمار.. وإذا كان من الممكن السيطرة على رعايا الملكيات بالدين والعرف والترف المادي فإن هذا الأمر مرهون بإمكانية إطراد النظم المعيشية التي أتاحتها الثورة النفطية.. إلا أن رعايا الجمهوريات الثورية ستظل مناطق ملغومة قابلة للانفجار الداخلي في أية لحظة إذا لم يتم استنباط عهود مدنية تنظم العلاقة بين سلطة الحكومات ورعاياهم على أسس تنسجم مع معطيات العالم الجديد الذي سقطت حواجزه الإقليمية إلى الأبد، مع أننا لا ننفي وجود نوع من التحالفات بين كل أنواع السلطات وأنظمة الحكم في بلاد العرب وبين المستعمرين الجدد والقدامى أيضا الذين يحاولون العودة للظهور مرة أخرى ولكن بصورة جديدة.!!

# كرامة التاريخ والقطيع

ليس للحرية أفق واحد، فمن آفاقها أنها مستحيلة طالما هناك مؤامرة على الوعي حتى وإن كانت لأغراض التربية فما بالك لو كانت المؤامرة للتستر على خطأ تاريخي وانحراف في السلوك الجماعي وتدليس على حقائق الأحداث، وهاك واقعنا الذي يقبض على مساحة فادحة من المسكوت عنه.

ومن آفاقها أنها تنزع نحو الوحدة والانفراد بالذات في حين أن هذا النزوع فيه بذرة انحلالها وتلاشيها، فلا حرية في غياب الآخرين وانتفاء المواصفات الاجتماعية، ولذا فالحرية تحت هذا الأفق تكمن في كيفية معايشة الصراع بين الذات والتاريخ، فالإنسان كائن له مشاعره وانشغالاته ومخاوفه وأسئلته الخاصة والتي تتطور عبر الاشتباك مع الحياة من حوله ومن ثم يطرحها على التاريخ في صراع لتكييف المسارات.

ومن آفاقها البعد الديني وخصوصا بعد استبداد الديانات السماوية بحياة البشر وفق مفاهيم أتيح لها قدر من التكريس عبر التاريخ حتى أصبحت اليوم تحمل الكثير من التناقضات الداخلية مما جعلها وسائل للفرقة والخصومة والنفي في حين كانت أسسها الأولية تقوم على التوحيد والتآلف وليس ببعيد ما نشهده من تناحرات دموية بين أتباع الديانات المختلفة أو بين الكثير من الطوائف داخل الديانة الواحدة. فأين الحرية إذًا إزاء كل هذه التركة التاريخية من الفقه والاجتهاد والذي يطارد ويغتال أية إمكانية للبصيرة الذاتية أو التأمل الفرداني من قبل جموع البشر الذين

يتجددون بالتوالد على مسيرة الزمن؟

ينهض التاريخ وتقوم الحضارات على إقرار قدر مشترك من القناعات الذاتية وتعمل الجماعة في إطار هذا الاتفاق، وكلما تعالت مساحة التسامح زادت القواسم المشتركة بين بني البشر وازدادت صلابة الحضارة والمجتمعات. فماذا نقول في هذه الكراهية والنزاعات التي لا يخلو منها مجتمع ما سواء بين أتباع الديانات المختلفة أو في نطاق الديانة الواحدة.. تلك الكراهية التي تهدد بنسف المجتمع بالكامل أو تجهض التربة الضرورية لقيام الحضارة والأمثلة من حولنا كثيرة إن في الشرق أو في الغرب.

ومن آفاقها أن الإنسان المحكوم بغرائزه لا يمكن أن يكون حرا وقد حوصرت كل طاقاته في تأمين رغيف الخبز والمسكن وليست لديه فرصة للمفاضلة والاختيار، فمن أين له الوقت لمواجهة ذاته والتفكر في مصيره ومصير من حوله؟ فهو ليست له أية حقوق في ذمة المؤسسات الحكومية المنصوبة حوله أينما ذهب وليست له شرعية مواجهة هذه المؤسسات وإجبارها على الالتزام بمبررات وجودها.

ويخيل إليّ أن الناس في الشرق العربي غير مؤهلين للانخراط طواعية في أعمال جماعية من شأنها تحصين وجودهم الحضاري والسياسي.. أو ربما حيل بينهم وبين التفكير في ذلك على مدار عصور متلاحقة بحيث كرست تاريخا من المخاوف والفشل يصعب اجتيازه ولو حتى على المستوى النفسي.

العبد نقيضه الحر، وأقسى أنواع العبودية تلك التي تصبح عرفا وشريعة يقرها المجتمع، وكثير من المفاهيم البشرية للأديان أقرت بعض أشكال العبودية حيث يتم التعامل مع الذوات البشرية التي خلقها الله وأوكل إليها

خلافته في أرضه على أنها ممتلكات خاصة كالعقار والمنقولات لسيدها الحرية المطلقة فيها، ولذا يصبح مقبولا استنادا إلى تلك الثقافة أن يعمد الحكام والملاك والأسياد إلى خصي عبيدهم حتى تصبح خدمتهم مأمونة في جناتهم الأرضية الحافلة بالملذات والتي تسرح فيها الشهوات كيفما شاءت في ملكوت الغرائز الفالتة.

ولكن أليس لهذا المستعبد من حرية.. بمعنى ألا يمكن للإنسان الواقع تحت أقسى أنواع العبودية أن يمارس نوعا من الحرية.. تلك التي تعطى للوجود.. لحكمة الخلق الإنساني مبررا.. ربما لن يتبقى له من أشكال الحرية سوى الكراهية المكبوتة.. ولكن ذلك مرهون بالوعي.. ولذا فليس بعيدا عن الصواب إن قلنا إن المؤامرة على الوعي هي أبشع أنواع الاستبداد والقهر.

في الإسلام " من رأى منكم منكرا فليغيره..... " وأبسط أنواع التغيير هي الكراهية القلبية.. ولكن ليست المشكلة هنا.. إنها في أهلية التعرف على المنكر والمعروف والمقدرة على التمييز بينهما وذلك يتطلب وعيا تسعى المؤسسات الاستبدادية إلى القضاء عليه وزعزعته بشتى الطرق، ولذا كانت عبقرية الرسالة الإسلامية في الاهتداء إلى الإثم بالإشارة إلى أنه " ما حاك في صدرك وخفت أن يطلّع عليه الناس ".

ولا أجانب الحقيقة حين أقرر بأن مؤسسات الاستبداد والقهر تسعى للحيلولة بين المرء وقلبه فلا يجد يقينا يقر عليه ولا يرى قناعة تعصمه من الضلال والتشويه، ومن هنا كانت المواجهة الذاتية لأسئلة الوجود ومناقشة الحياة ومسائلها داخل الذات هي العاصم الأول لاستبقاء الحرية والحفاظ على مبررات الوجود.

نعم يمكننا أن نكون أحرارا إذا قارنا الغايات والأهداف بالنتائج.. ففي

بلاد العرب تبلور الشكل الجماعي أخيرا في شكل جمهوريات وملكيات وإمارات هي دول انخرطت في منظومة العالم الحديث تحت مسمى دول إلا أنها لم تحقق تقدما في الاقتصاد أو في المعرفة.. نعم لدينا مدارس لكن ليس لدينا علماء أو متعلمون، لدينا محاكم ونظم قضائية لكن العدل والحق عسير المنال إن لم يكن غائبا، لدينا جيوش وعساكر لكننا مهانون وأراضي بلادنا محتلة ومغتصبة، لدينا كل العناوين المؤهلة لإقامة الدولة لكننا بلا قرار.

لدينا إحصائيات مكدسة عن إنجازات حكوماتنا في مجالات التنمية والبناء والعمران " لا أحد يصدقها " ولكن ليس لدينا إحصائية واحدة عن عدد المساجين بسبب إبداء رأيهم أو شروعهم في ممارسة حقهم الطبيعي في تناول أمور أوطانهم..!! أما جاء في القرآن:﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ ﴾. أليس المختلفون من عباد الله لهم حق في الوطن والدولة وهم يمارسون هذا الحق؟! فلماذا ينسف المستبدون حياة المختلفين ولماذا يبدو الجميع كأنهم متفرجون لا يعنيهم الأمر؟!

إن الأمر مرتبط بالوعي والحكومات تحول بين المرء وقلبه وتستميت في إغراق مواطنيها في نطاق الضرورة وتلبية متطلبات المأكل والمسكن ومن تبقى فإما أن يشارك في كعكة الاستبداد أو يأسره الإعلام المضلل الذي أصبحت وسائله غابة من المستحيل ألا يتعثر المرء في شباكها المنصوبة ليل نهار ومن كل لون وجنس وعقيدة.

قال الأب لابنه: لم لا تكون كبقية اخوتك مطيعا وأليفا؟ الابن: ولم لا تتأمل قصة الخلق.. هل كان قابيل كهابيل؟ الأب: يا بني.. أخشى عليك من نفسك، وأخشى على اخوتك منك.

الابن: وكيف أهتدي بما لا أرى، بل كيف أحس ما ليس موجودا داخلي؟
الأب: إذًا عليك احتمال القسوة حتى يسعى أحدكما باتجاه الآخر.
الابن: كل الآباء يشعلون نارا مقدسة فإما تأكل نفسها وإما تأتي على الآخرين، وأنا نارك المقدسة يا أبي، فأيهما تفضل أن يكون طعامي؟ أنا أم أختي!!

## عاصمة للثقافة العربية كل عام.. كيف؟

وعي الحكام والمسؤولين العرب في هذه الحقبة من تاريخهم مسكون بالهاجس الأمني أكثر من أي شيء آخر، ربما لأن الوصول إلى مقاعد السلطة والبقاء فيها في هذه المرحلة لا يراعي المقدمات الموضوعية ولا يلتزم بالقيم الحضارية في الوعي الشعبي وفق المسوغات التي ألفتها الشعوب في تصدر الحاكم لقيادة أمته، ولذا أصبح الأمن هو الوجه الآخر دائما في أية معادلة في برامج دولنا وأنشطتها، وأصبح من المألوف أن نسمع عن ارتباط التعليم بالأمن، والثقافة بالأمن، والإعلام... وهلم جرا، والأمن هنا ليس أبعد من الحفاظ على ضمانات بقاء الحكام ودوائر المسؤولين المحيطة بهم في كل نشاط.

وفي مناخ كهذا لا يؤمّل الإنسان كثيرا في محصلة أية وليمة ثقافية تتصدرها مؤسسات السلطة ودوائرها على امتداد المجتمعات العربية، ولا يمكن الابتهاج في ركب احتفالية ترسو فعالياتها في إحدى العواصم العربية لأن الأمر مرهون بأوجاع كثيرة في الحقل الثقافي عنوانها المصادرة ونفي الرأي الآخر وربما إزهاقه لو أمكن!!

وإن كان من المجدي تنظيم مؤتمر أو حلقة لمناقشة واستعراض الأوضاع السياسية أو التجارية أو التعليمية أو ما شابه من الأنشطة فهل من المجدي احتذاء نفس الآلية في الحقل الثقافي؟ هذه الجدوى تتلاشى تلقائيا بمجرد استعراض أوضاع الحريات وحقوق المعارضين بامتداد الرقعة العربية.

إن إقامة مثل هذه الاحتفاليات في أجواء كهذه لا يرجى من ورائها أكثر من تدشين وترسيخ مقولات السلطة وممارساتها بشأن رؤيتها للحياة والتاريخ، تلك الرؤية التي تجعل من أمتنا مجرد متفرج ساذج على أحسن تقدير لما تشهده جموع البشرية من نهوض وإبداع وتطور.

نعم ستكون هناك وليمة أقطابها الوجوه المعروفة والمؤبدة على كل الموائد المعنية بالثقافة العربية والتي تسعى للاستحواذ على أكبر قدر ممكن من الكعكة لرصيدها الشخصي بغض النظر عن طبيعة القضايا المثارة ومدى تأهل تلك الوجوه للمساهمة فيها.. كيف ونحن نراها هي.. هي نفسها إن كان الأمر متعلقا بقضايا المسرح أو الرواية والشعر وحتى الفن الشعبي وإشكاليات العولمة ومقومات الهوية.. هي.. هي نفس الوجوه تجوب العواصم العربية وحتى الأقاليم البعيدة عن العواصم لتدشين صورتها بمعية الحكام.!!

احتفال بالثقافة العربية.. نعم وهناك عشرات المئات من الكتب المصادرة والأفكار الممنوعة في عصر الإنترنت!! نعم وهناك المئات من سجناء الرأي في أغلب العواصم يتوسل ذووهم وأصدقاؤهم ويقبلون نعال الحكام كي يسمح لهم برؤية الشوارع وقراءة الصحف وركوب الباصات بين جموع مواطنيهم!! احتفال بالثقافة وأكثر من ثمانين بالمئة من مطبوعات الدول العربية كتب وبرامج في تدشين فكر الحكام وعبقريتهم الفذة في قيادة أممهم وإحراز انتصارات غير مسبوقة في التاريخ!!

ما الذي ستسفر عنه مثل هذه الاحتفالات الكرنفالية؟ هل هناك خطة لانتخاب مجموعة من الأفكار والكتب – التراثي منها والمعاصر – لاعتمادها كمطبوعات للعاصمة الثقافية؟! وهل أسفرت العواصم الثقافية السابقة في بيروت والقاهرة والرياض عن شيء مؤثر في جذر الثقافة؟! هل أتاحت

فرصة للاطلاع على كتب أو برامج ثقافية بنفس السهولة في الاطلاع على صور الحكام ومقولاتهم الخالدة في المطبوع والمسموع والمرئي؟!

العاصمة الثقافية لا يمكن قبولها بعيدا عن تصور لحصاد يغني وعي الأمة ويربطها بقضاياها ومصيرها.. حصاد يقوم على الكلمة والصورة.. برامج حقيقية في المعرفة.. إصدار كتب وإتاحتها للجميع.. أفكار لجميع مفكري الأمة وكتابها قديما وحديثا دونما نفي أو إقصاء.

فكرة العاصمة الثقافية التي تنتقل شعلتها من عام لآخر في عواصم العرب لا يمكن قبولها والترويج لها بمعزل عن خلق حالة من النقاش والحوار حول وجود الأمة ومصيرها بين شعوب الأرض في أتون عصر جديد أهم ما يميزه سقوط الحواجز واستحالة التقوقع والانعزال، وكيف يمكن تحقيق ذلك وكل فرسان الوليمة ليس من بينهم شباب الأمة، وكأننا أمة بلا شباب، أو أن شبابها ليس من شأنهم قضايا أمتهم الثقافية.

إن الهم ثقيل والخيبة مترامية الأطراف والمعلن نقطة في بحر المسكوت عنه، ومسألة العاصمة الثقافية تبدو احتفالية سخيفة مثل معظم احتفاليات الأمة ليس لها حصاد، مجرد ميزانية كبرت أم صغرت تستنزف مزيدا من ثروات الأمة تذهب أدراج الرياح، في الوقت الذي تبدو فيه الأمة أحوج ما تكون لتدعيم مؤسساتها في التعليم والصحة وتوفير مياه الشرب النقية!!

# رسالة في العرفان والصبابة

يرث الناس بجهدهم أو جهد غيرهم ثروات، يرثون نساء،و أبناء، وأموالًا وحيوزات، يرثون سلطة وتأثيرًا على الوقت، على بعضهم البعض، لا تلبث أن تنحل ويرثها آخرون، ولا أحد يسأل عن جدارة الوارث، السابق أو اللاحق، ولا أحد يسأل عن ذلك، فتلك ثروات من أثر الوقت على المكان، والصراع في سبيلها ضرورة لا مناص منها، وتركة بهذه الاشتراطات ما أسوأها!! إذ لا أفق هناك للتأمل والترقية، فما أسوأ السعي بلا غايات! وما أشقى المسير بلا هدف!! هذا العماء المحض ينسف حكمة الشهود، يطيح بمبررات وجودها، فما قيمة الشهود إذا كان السعي بلا وجهة!؟ وما قيمة الحواس إن لم تشر إلى الطريق إن لم تساعد على دفع الخطا صوب السكينة؟ ثروات الناس ما جدواها إن لم تورث العرفان والوعي والسكينة، إن لم تنشط الذاكرة في استفادة سيرة الحيوات ما سبق منها وما لحق، التذكر والاستشراف في ملكوت الحيوات إن لم تطله الذاكرة فما جدوى ثروات الناس؟ ما جدوى الشهود إذا كان مبتداها ومنتهاها صبابة كل فاتن وعابر!؟

كم موتة، وكم قومة تكفي لتنشيط الذاكرة حتى تعي ملكوتها الحق!؟ كم موتة وكم قومة تكفي لإحراز السكينة والعرفان، كم موتة وكم قومة تكفي لإدراك الواحد والحياة فيه، كم موتة وكم قومة تكفيك لتكون ذاتك، كلمة واحدةً تنطق بلسان السكينة: أنا الواحد.

وطالما أنت في لباس الوقت فأنت في مهب المخاطر، فهل فكرت مرة

على هذه الشاكلة. أنت حمارٌ، وفي عالم الشهود ليس أمامك سوى حياة البر أو حياة المدينة، فأي الحياتين تفضل؟ في البر لا بشر هناك لا بردعة لا عمل في نسق التسخير، في البر سباع وضواري، أراض مكشوفة، ومهارب ومفازات محكومة بالغريزة، قد يتوافر الزاد أو ينفذ. بينما في المدينة بشرٌ تسخيرٌ في أعمال قد تطيقها وقد لا، زادك والعنايةبك على قدر حاجتهم إليك، ولكنهم سيتركونك إن عجزت ولم تعد قادرًا على نفعهم. وفي البر وفي المدينة كذلك في آخر الأمر ستهلك، ستموت، فأي الحياتين تفضل؟ أي الموتين تفضل؟ أي هلاك تختار!؟

أنا الحمار قلت: ليس يهم إن كنت في البر أو في المدينة، فكلاهما فيه ما ينغص، كلاهما درب للوعي والعرفان، فهلّا عرفت؟ هلا تقدمت خطوة في صعودك صوب السكينة، صوب الواحدية، عندها ستعرف الفرق بين الدرب والغاية، بين القشرة والجوهر.

مفتون باغترابي، وقد حيل بين شهودي وبين منابع بهجتها، قلت: ها هو اسمي ينضج في مرمى حواسي، ها هو يطبع الحيوز بسمته، أفلا اهتديت إليه!؟ فأكرم بمن عثر على اسمه فقبض عليه ولم يفرط فيه! ترفق معي أيها الوقت ولا تمش إلى فساد، لا تنضبي أيتها المباهج في مرمى الشهود، فكما ترين قلبي ضعيف لا يطيق التجمد على ضفاف وقت لا يكف عن المرور خذني معك أيها الوقت إلى آخر الفتن، واقذف بي نتفًا وأشلاءً في أعاصير التجارب، من قشرة إلى قشرة ومن غلاف إلى غلاف حتى يتحد الشكل بالمعنى.

المكان في عين الشهود، وسْمٌ على كل ثبات وسكينة، بينما الوقت لا يثمر سوى شغب وحركة، والشهود من بصر ولمس و...... مداخل للوعي، ترعاه البصيرة فيصير عرفانًا؛ وهكذا فكل عرفان ليس سوى محصول

البصيرة ورعايتها؛ الوقت شغل للشهود، استنفاد لما فيها من طاقة، الوقت شغل يتبعه كل انفصال ومجهود لكن أين هو هذا المكان النافر من الوقت!؟

و الدافع للكلام.. للشهادة ليس سوى تحريض وضغط من قوة الشهود الحواس، فكل كلام - ومهما توهمنا - كماله يصير إلى نقصان، يعتريه قصور طالما أخذ من اللغة لباسه ومن حرف الأبجدية سمته، فالكلام هو الجذر الشهادة على كل وقت وتاريخ، هو ندبة الزمن الباقية، الناقل لمجهودات الحواس الإنسانية عبر ما يمكن الوصول إليه من وقت وزمن ما زال فيه بقية من اندفاع.

و لا مفر من الكلام، لا مفر من السكينة، لا مفر من الحركة والسكون من الثبات والشغب، في البصر تتربص الصبابة في كل شهادة، في كل حس، تفتك بالذات وتضرمها في الفتن. الصبابة جمرة الزمن وذروة الوقت، وفي البصيرة يكمن العرفان وتخطر السكينة ساخرة بلا لغة، بلا كلمات، بلا ثوب أو لباس. فيا ليت تذوب شهودي وتتلاشى حواسي؛ أما تراني أقذف بها في كل قبح ومهلكة!؟

و لا مفر من السكينة، وقد يمر الوقت ولا تتحقق، فتظل حلمًا أبديًا وطموحًا لحيوات آتية لا مفر من خوضها والاحتراق بشهودها وحيوزها. لا مفر من الكلام ، فيا أيها الوقت أقبل بكل حرقة وتجاريب، أقبل بكل جهل وعتمة وغباء وغموض وحيرة واندفاع، ويا أيتها الذات تأهبي لكل صراع وعسير، ومرحبًا أيها القبح، يا فاتني، هي ذي شهودي محتشدة تترقب الوجع والتفتت المر العسير، ويا ظلمتي ها قد عرفت السبيل إلى النور والسكينة، لا سبيل سوى بالحرق والتجربة، لا سبيل إلا بانفطار الكيان الصمت، السكون الكامن، إلا إذا انفرط الكيان أشلاءً وأشلاءً.

شهودي شوارع في أحضان النساء، في معية الأولاد، في فيء بستاني، شهودي في المخاض العسير، في ألق الصبابة، جذوة الشهادة والتوهم، شهودي مشرعة، دروب سالكة ممهدة لكل اصطخاب واضطرام وعناء، فهلا انجلت ظلمتي وخلعت حروفي وأقلعت عن الكلام، هيهات، فما زال في الذات حطب يابس لم تطله النار، لم يصر إلى رماد، ما زال هناك حطب يابس يترقب شهوة النار ليصير إلى سكينة، إلى رماد ونور، ها قد كسرت ذاتي بذاتي في محيط الوقت حتى تشاد ثانية في حياة آتية لا أثر للوقت فيها، لا أثر للشهود، ذات في أبدية النور، تربتها السكينة وسماؤها العرفان، فما الحياة في عالم الشهود إلا أثر للوقت على المكان، وإذا انحل مكان ما من أثر الوقت دخل حياة أخرى، عالمًا جديدًا متحررًا من الشهود الحواس المعهودة التي لا توقد إلا من أثر الوقت على المكان، تحيا بالدم.. بخلاصة الوقت، خلاصة كائنات أخرى تحيا سيرتها تحت سماء الوقت.

الزمن يضرب الناس، يدفعهم، يؤثر فيهم، فتهيج ملكاتهم كدحًا وحروبًا وانفعالات، يؤبدون ديانات ومبادئ لبعض الوقت – طال أم قصر – ثم تنحل ساخرة عن أخرى، وهكذا يتحرر الناس من ضغط الوقت، يخرجون من لباس الزمن ودورة الوعي المتراكم عندما يصبحون جديرين بذلك، وما أشبه سيرة الناس في لباس الوقت بسيرة الفراشة! تلك التي تضع بـيضًا فيفقس دودًا ينمو وينمو حتى ينطمر في رطوبة التربة، وتنزوي الحياة فيه في عمق الشرنقة التي تنطلق منها اليرقة بعد حين باتجاه الفضاء فراشات من جديد، وكل هذا من أثر الوقت، فمن ذا الذي يستطيع أن يلمح حيواته السابقة أو يستشرف حيواته اللاحقة، وهل بمقدور الفراشة – ذاكرة الفراشة – أن تقبض على سيرة البيضة أو الدودة.

كذلك هي حيوات الناس لا سبـيل إلى الوعي بها، إلى عرفانها إلا بتدمير

الملكات وارتطامها بالتجارب، بالقبح، بالمعاناة، والسعي في الغبار والفتنة حتى تستقر الحياة وتصل ذروتها، عندها تكون جديرة بخوض حياة أخرى؛ وإلا سيطول عليها الزمن ويأسرها متشابه الوقت والعلل، وما الجمال وما القبح إلا انفعال الحواس في عالم الشهود تحت سماء الوقت، وما هما إلا في تغير دائم مأسور بعمق التجربة وارتطام الحواس بالوقت، ما الجمال وما القبح في الإطلاق إلا انعتاق من أسر الوقت ولا سبيل إليهما إلا بتذكر مجمل الحيوات، وما من سبـيل إليهما إلا بالوعي والعرفان، إلا بإزاحة الوقت عن روح المكان والكائنات.

***

كيف أعود لموتى مطمئنا آخر المساء!؟
طعم فل أم طعنة خنجر؟
تلك التي تسد أنفي
كلما طالعت المدينة سابحة
على سطح فنجاني دوائر
علموني الرماية..
ما رميت من أحد
و أقرأوني السلام شفعا ووترا
لكل من تحوقل أو تبسمل في الحظائر

صافحتهم
مثنى.. وثلاث.. ورباع

ثم نظرت في كفي
ما وجدت سوى دمي سائحا
في صدأ الخناجر!!

بيتك لم يعد بيتي
يا صاحبي
انبثقتْ من طين مشيئتي
وأقمتُ مدينة على هواي
يوما فيوما ناصبتني العداوة
فليست تسيجها الجداول
ولا يضئ عتمتها سوى هسيس الكهرباء
في ليلها الهرم.

بيب.. بيب.. بيب
أفسح مجالا للصوص يا أحمد
واصعد رصيفا للهالكين
ربما نجوت
و تحاشيت سوء العاقبة .

***

## مأسورون بالغريز والتاريخ

الذاكرة أس البلاء، رئيس حركة "شاس" المتدينة في إسرائيل يقول أن " يوسي ساريد " وزير التربية هناك رجل شرير ويجب محو ذاكرته لأنه سمح بتدريس قصيدة للشاعر "محمود درويش" في مقررات التربية.

وامرأة عاشقة تعيش تحت قبضة رجل آخر أرسلت لعشيقها خلسة تقول بأنها لا تشعر بثقل جسدها كلما تذكرت لحظاتها معه، وتدعوه سريعا كي يأتي ويمسح على بطنها التي تزداد ثقلا مع مرور الأيام كلما دبت حركة ابنه في أحشائها.

وأقول في البداية كانت الأسرة ثم القبيلة ثم الشعب ثم الوطن ثم الدولة في آخر المطاف.. الدولة، هذا الكابوس المرعب الذي سيج الوجود الإنساني ووضع له سقفا حاسما بطريقة منافية للآداب والغرائز، ونلاحظ كلما تدرجنا في سلم التنظيم الجماعي ذي البعد السياسي كلما توغلنا في خصومة المنابع.. منابع التكوين والمنشأ والطمأنينة والسلم الروحي والجسدي.

مرة نظرت إلى مائدتي ذات ظهيرة فوجدت ما يلي: خبزًا إيرانيًا ولحمًا بلجيكيًا وطبق سلطة ساهمت فيه الأردن والهند والجزيرة العربية، وأرزًا من مستنقعات الفلبين وفاكهة من أمريكا ولبنان ومصر فتوجهت للنوم كمدًا راغبا حتى عن رؤية جسدي المحشور بين طيات من الألياف آثرت ألا ابحث عن منشئها.

الذاكرة أس البلاء مثلما الدولة والمدينة تتربصان ببني البشر، الدولة بوصفها الطموح السياسي والسقف النهائي لتجميع هذه القطعان

المتكاثرة بلا أدنى مبرر من وجهة نظر المتحمسين لمفهوم الدولة والذي قدر عليهم قيادتنا والقيام بأعبائنا، والمدينة سقف الوجود المكاني ونهاية الطموح الحضاري لجغرافيا البشر في علاقتهم مع المكان، فبئس المصير إذا كانت الدولة والمدينة يمثلان قمة المجهود وإكليل السعي.

الذاكرة أس البلاء، وجسدي غريب، حتى إنني لا أذكر آخر مرة رأيت فيها بطن قدمي أو تمعنت في لون عيوني أو حتى أحصيت أصابعي على الرغم من أنها عادات الطفولة ومكمن الفخر أو المسبة لدي أفراد القطيع، كما إنني لا أتذكر لون السماء في آخر مرة استلقيت على ظهري متأملا صفحتها.

الذاكرة أس البلاء، والتاريخ حشد كل الأشرار واحتفظ بمقولاتهم وبطولاتهم ملهما للأجيال المتوالدة، فأقرأ معي تصريح مدير إحدى فرق الرقص الشعبية الذي يتباهى بإنجازاته قائلا إن فرقته حولت الرقص من فن يقدم في الكباريهات، إلى فن يعرض على أرقي مسارح العالم، ولا أدري ما السبب الذي دفعه لوصف بعض المسارح بالرقي والآخر ليس كذلك، أليست الوليمة في الحالتين هي الجسد وما الفرق بين الكباريه والمسرح، أليس كلاهما شهادة في حضرة الجسد!؟

وهل أجانب الحقيقة لو قلت بأن قيام الدولة / المدينة حال بين الإنسان وجسده، فأخذ ينشده لدى الآخرين في غرف مغلقة ويعتبر تجاوز تلك الحدود عارا على الرغم من أن تاريخه يؤكد أن القيم في السابق كانت مختلفة، ولم يكن الإنسان ينظر إلى جسده بمثل هذه النظرة المشوبة بالعار والاحتقار والتوجس من الآخرين.

الذاكرة أس البلاء، والتاريخ يؤسس وينمي صرح الذاكرة ولم نعد قادرين كذوات فردانية على الإسهام بمقولاتنا في تقدم التاريخ وإقامته،

وأتعجب لماذا بقى أفراد مثل " هيرودوت " و" الجبرتي " كمؤرخين محترمين على الرغم من فردانيتهم المفرطة في رؤية الأشياء والأحداث، الأمر يبدو لي مرتبط بالحقيقة.. بالصدق، ولا أعني بهما شيئا خارج الذات، فقد يكون ما يعانيه الإنسان الفرداني من إحباط بشان صياغة الأحداث من حوله ومدي التلفيق والزيف في حشدها ودفعها إلى الذاكرة الجماعية.. قد يكون هذا السخط أمام حراس الدولة وهم ينشئون تواريخها هو التاريخ الحق الذي يوافق تجاربنا لدي الجماعة البشرية وتعجز عن التعبير عنها لأسباب كثيرة، والتعبير عن هذه الحالة من الإحباط والسخط هو ما يكرس المؤرخ الحق، المؤرخ الصادق.. المؤرخ المغيّب.

***

صدّق جراحك لا مقولة العسكر
وانفض دماءك من خبز محفلهم
فما نفع الوليمة لو دهنها جسد الضحية
وفي الروح أوجاع من بطشها تسكر
صدق جراحك لا تشتهِ خبزه
واخلع طموحك من ساحة الحكام
فغريزة الجلاد عمياء لا تعرف العزة
صدق جراحك.. أطفالك الشهداء
وامسك نزيف الروح عن كل من خانك
يسكرك الجمال المحض
رعب الحقيقة من فصاحة الأشلاء.

بذرة أنت تنتظر المطر.. تجلّي المشيئة الطهور فيؤجج فيها الروح، تكسر ظلمة القشرة وحبسة الجماد لتتحرر في قيّوميّة النماء يا صاحبي، فالعالم غاية في البساطة واللطف، وأقول أن المعنى الحق لا يُجسّده كلام البشر، ليس بمقدور عرفٍ ما مهما دقّ في الترتيب والنضج والكمال أن يحمل المعنى الحق، كل اللغة عندها تصبح كلمة واحدة، ترادفا لكلمة واحدة، تصوّر كل هذه الفوضى التي صاغها البشر في منظومات الشعر والنثر تصير مرادفا لكلمة واحدة سيان إن قلتها بلغة الكلام أو أي لغة أخرى في محيط البصيرة!! المعنى الحق يا صاحبي لم يكن لتأبدهُ اللغة، فهلا وعيت؟!.

نحن مأسورون بالتاريخ والغرائز.. عرفنا!! فهل من خطة لإنقاذ أجسادنا من هذا الجحيم، وتحريرنا من استبداد الثأر ومشيئة الدم والمظلمة؟! أجدادنا لم يكونوا على قدر المسؤولية عندما استكانوا للتاريخ والغريزة وأورثونا ثأرا لسنا كفؤًا له وربما كانوا هم كذلك بعضا من سلالة الوارثين وصدّروا إلينا القرار الصعب.

كل ما أطمح فيه أن أمر مرور الكرام على نصوص التوابيت وجثث الكهنة دونما خسائر تذكر لو أستطيع، جسدي صار حاسة واحدة في تمام احتشادها وتوترها لتفادي الوقوع في الدم والمظلمة، صديقنا "إقبال" تعب من التهكم على جحافل الكهنة المروجين لتعاليم الآلهة المزيفة.. قساوسة وأحبار ومشايخ سحنتهم في غاية الورع، إلا أن أرواحهم نجسة تضرب بضراوة في جذر الدم والمظلمة إثر تحالفهم المقدس مع التاريخ والغريزة، وفي النهاية تعب "إقبال" ومات كما يشتهي تماما مثل النسور.

الأسطورة ما زالت تمشي بيننا حتى الآن يا صاحبي وليس فينا من

يقوى على تأويلها والكتابة في عناصرها الواضحة كشمس يونيو في صحراء الجزيرة العربية، وحتى يأتي الوقت لتأويلها فاقرأ جسدك بما يمليه عليك من لغة ودعْ ما لا تطيق من الخراب، فهل تذكر.. ترك موسى أتباعه في سيناء أربعين ليلة لملاقاة الرب، فظهر السامري وشيد العجل من حليهم المسروقة فافتتنوا به، وهاهم الآن يقدسون العجل الجديد – ثورة المعلومات وتجلياتها المعجزة في القرية الإلكترونية ( التي يصر محمد يوسف دائما على إزعاجي بها ) – بالرغم من صرخات بني البشر التي تكلل الأفق في كل الأرجاء، فلمَ لا يصدقونني ويركنون إلى يقين الماكينة؟ فعلى الأقل أنا واحد منهم، سنة وراءها أخرى حتى تتبلد أجسادهم وحواسهم من التحديق والإمعان في الآلة، أليس عارا ألا يتعارف بنو البشر بعد كل هذه المسيرة من التعايش؟! أليس عارا أن يجنحوا إلى الخصومة وينأى كل منهم إلى عجل السامري مرة أخرى؟!

ومهما كان، فأنا لا أصدق إلا ألمي وصرختي في هذه الصحراء، وأجن من رغبة الجميع في القفز فوق كتفي دونما وجل!! ولمَ كل هذه الشهوة في الجرأة على الحقيقة وعشق المظلمة والتهافت على ثمار الطين؟! وهل تذكر يا صاحبي قول يحيى النبي إلى أتباعه "هو ذا قد جاء الذي سيعمدكم بروح القدس" وهو يشير إلى المسيح عيسى، فما كان منهم إلا أن تآمروا على كلمة الله في نهاية المطاف؟!!

# السلام المفقود في شرق الأرض

وكأن الأبناء انحرفوا عن تعاليم الرب فضربهم بالغربة وقلة البركة، ينظرون حولهم فلا شيء يملأ عيونهم فتقر وترتاح ضمائرهم، ينظرون داخلهم فيأخذهم الفزع من حجم العراء والفراغ، فأصبحت مواكبهم وأعيادهم يتصدرها الشيطانيون والتائهون عن مواريثهم في حين ينزوي العاشقون والحكماء في عزلة مضروبة يعيشون ويموتون طي الإهمال والنسيان.

وقد يجتهد المروجون للأسباب في حشد التحليلات لفهم هذه الحالة فنسمع عن القدم الأمريكية التي داست أرض مصر فخطفت من أهلها الحكمة والسلام الداخلي، لكن المؤكد أن شيئا ما ضد مشيئة المكان والتاريخ تدخّل ليحول بين المصريين وميراثهم، بين المصريين وقدرهم في الحكمة وعبقرية البساطة والتآخي مع البشر والكائنات فأصبحوا ينفرون حتى من أنفسهم ويخاصمون حتى ظلالهم، وكأن ديارهم تسكنها روح غريبة، وكأن لعنة أصابتهم.

منذ تقلصت سلطة السماء على الأرض مع تمدد الثورة العلمية في القرون الأخيرة من عمر البشرية أخذت بلاد المشرق وحضارته في الانسحاب إلى الظل حيث خفتت سلطة الدين والتعاليم الروحية والأخلاقية وانكشف نفاذها في العلاقات بين بني البشر وأخلت الطريق لنفوذ المادة والآلة مما أعطى لأصحاب الدين الجديد – دين المادة والآلة – مبررا لاستباحة بلاد الشرق وحضارتها – التي انبثقت منها تعاليم السماء –

والنظر إليها باعتبارها هامشا متحفيا أكثر منه فاعلا في حركة البشر على الأرض.

وما ضاع أو فقد لا سبيل إلى استعادته بأية حال، وفي أحسن الحالات سوف يترك ندبة تذكر دائما بالعجز والمرارة، ومن عظمة الخلق أن يظل للإنسان نفوذ لا سبيل إلى استباحته أو اقتناصه وأعني به الضمير، ذلك الميزان القادر على الإحساس بالظلم.. بالطمأنينة.. بالعدل.. بالسلام.. بالسكينة.. بالفزع.. بالغضب.. بالاحتقار.. لأنه وإن كان بالمقدور السيطرة على حركة الأجير ومسار جسده في الحياة إلا أنه من المستحيل النفاذ إلى روحه.. إلى أخلاقه.. إلى مكنون ضميره.

ومرة أخرى. هل يمكنني تفسير احتفال الغرب – موطن الدين الجديد – بكاتب مثل نجيب محفوظ في إطار سيادة الدين الجديد؟! فنجيب محفوظ – ولا سيما في روايته أولاد حارتنا والتي أعاد صياغتها ثانية تحت عنوان الحرافيش ـ وضع تصورا جديدا لمسار البشرية منذ قيامها على الأرض وحتى بداية الثورة العلمية.. تصورا مخالفا لسيادة التصور الكهنوتي الذي صاغه اليهود لنشأة العالم وتطوره.. تصورا وضع حدا لسيادة سلطة السماء واستبداد تعاليمها بمصائر البشر مع ظهور " عرفة " في " أولاد حارتنا " والذي يمثل عصر العلم وتثوير المادة، ولذا أشاد به الغرب في ديباجة منحه وسام الأدب العالمي " نوبل " مع التنويه بـ " أولاد حارتنا " كعمل إبداعي متميز.

نعود إلى الشرق.. نعود إلى مصر.. تلك البقعة التي تبدو حركتها الآن داخل التاريخ اللحظي المعاش وكأنها بلا هوية.. بلا هدف.. تلك البقعة التي أنصت إلى روحها أحد أبنائها المخلصين " جمال حمدان " والتي وصفها بالعبقرية التي تصهر كل من أتى إليها – غازيا كان أم باحثا

عن العيش – وفق مزاجها وسلطة مكانها، الآن يبدو هذا المكان وكأنه بلا حيلة فاقد للتأثير فيمن يعيشون فيه، ضربة المادة الغشوم أفقدته سلطته، قبضة المادة تحاول زحزحته فيبدو وكأنه ماض زاخر وثري لقدرة الإنسان على الإبداع، وفي المقابل يبدو وكأنه حاضر فوضوي لا رابط ولا منطق يحكم حركته.

الإنسان جسد وروح.. مادة ومعنى.. تشيؤ وتجريد.. الإنسان شطران: شرق وغرب، والغرب والشرق معا حركة كونية تجسدها علاقة الإنسان بالأرض والشمس، ومن العجيب أن الشرق آت والغرب غارب.. الشرق أمل والغرب زوال، وبالأمل والزوال يكتمل اليقين وتتشكل العقيدة.

***

بعض الفقراء
لا شيء لديهم يخشون عليه
سوى العفة
بعض الفقراء عفيفون
ليس لديهم ما يدفع ذل الصفعة.

طوبى لمن لا لسان لهم
في هذى الشوارع الخرساء
لكن بالله عليكم
كيف يذوقون القهوة
أو رائحة النعناع.

***

العالم الخارج توّا من رحم الوثنية
ليس بعالمي
في هذا العالم
يقتنص الإنسان الأسماء، يصيّرها لغةً
يرْكبها دومًا
فيصير كما الأسماء يفرّ من النسيان.

الشعر فن.. تلك حقيقة أولية وبسيطة لكنها غاية في العمق، إذ تضعنا في قلب السؤال التالي: هل فنية الشعر خاصية تتعلق باللغة أم بالرؤية - التي هي فكر وانفعال - أم بكليهما معا؟

والمتتبع لمسيرة شعرنا العربي لابد وان تفاجئه هذه الملاحظة: وهي أنه لم يبرح أحضان اللغة، ربما لأن الشعر العربي يكاد يكون فن العرب الأول على مدار تاريخهم، في حين كانت للأمم الأخرى فنون كثيرة مثل الموسيقى والنحت والمسرح وغيرها من الفنون التي تفاوتت في درجة الاحتفال والعناية حسب مسيرتها التاريخية، ولذا كلما حاول شعراء العربية على مدار التاريخ زحزحة الشعر عن قبضة اللغة ناصبه الجميع العداوة، ولعل الهجوم الذي ناله أبو نواس ورفاقه من أنصار البديع أبلغ دليل على ذلك بحجة أنه انحراف عن غرس السلف فيما كرسوه من نـُظـُم في قول الشعر أغلبها يدور حول اللغة والشكل من أوزان وقوافي وبناء في الأغراض.

والشعر لدى العرب على مدار تاريخهم قام بأدوار كثيرة ليست من الفن في شيء فهو تقمص دور المؤرخ والواعظ الديني والحكيم والمثير

لحماسة القوم والمدافع عن الأمة والمكرس لقيمها وما إلى ذلك من أدوار ليست من صميم الفن الذي هو في الأساس رؤية للذات والعالم، لأن الشاعر الحق – كما أتصور – ليس مدفوعا بهاجس التاريخ أو السياسة وحراسة القيم الدينية أو حتى الدفاع عن اللغة، وحتى اللحظة الراهنة وبعد مسيرة امتدت أكثر من خمسة عشر قرنا لازال أعظم شعراء العربية هم أولئك الذين نضجت قرائحهم في ظلال الحكام

والأمراء ليتقمصوا أدوارا ليست من الفن في شيء!!

الآن هناك صخب غير فني بالمرة حول ما يسمونه بقصيدة النثر، هذا الصخب الساخط يتخذ من مسألة اللغة والشكل الفني منطلقا ولذا فهو سخط كاذب وغير إيجابي، ومع تسليمي بأن أكثر ما يقال تحت هذا المسمى – قصيدة نثر – ليس بشعر. إلا أن ما يزعجني أن القضية يتداولها الجميع على أسس مغلوطة ولن تفضي إلى شيء، وعلى الجميع أن يواجه نفسه قبل الخوض في هذه القضية بهذا السؤال: ماذا في هذا الكلام من شعر؟! وأعني به الرؤية.

والعرب خلال مسيرتهم القريبة في مواجهة التطور الإنساني يتصرفون وكأنهم أمة تستعصي على الانقراض، وكأنهم لا يعلمون أن بقاء الأمم على مساحة التاريخ مرهون بمدى مساهمتها في الحضارة الإنسانية، فتراهم إذا جدت أية مسألة أو قضية على واقع الأمة يهرولون للخلف لائذين بالسلف يستلهمون عندهم الحلول، وكأنهم ارتضوا أن يواصلوا بلا قرار مسلمين زمامهم للماضي الذي يعتقدون أنه كان مثاليا من كافة الوجوه، وإذا ما ظهر اتجاه في الفن أو في العلم أو حتى في العمارة تراهم يهربون للخلف، ولذا فإن غالبية ما يصدر عنهم من نشاط في الفكر أو في الفن أو في السلوك هو صياغات قديمة واجترار لمقولات ومواقف

واجهها أسلافهم، هذا على الرغم من أنهم متسامحون جدا في استهلاك كل ما أنتجته إبداعات الأمم الأخرى في المناحي الاستهلاكية ولا يتخذون حيالها نفس الموقف.

وحتى يكون الشعر العربي ( عربيا ) فعلى الشعراء جميعا أن يتقمصوا أدوار أسلافهم ويشحذوا قرائحهم في حضرة الحكام والأمراء كي يكونوا جديرين بالأوسمة التي تزين صدورهم وسجلاتهم في مواجهة أمة هي بالكامل خارج التاريخ!!

# القضيب

استلقى "فرحان" في الشمس، انطرح على ظهره تحت الأفق الممتد والمنسدل حوله تماما كخيمة رصاصية، في البداية تعمد فرحان الخروج إلى الصحراء فرارًا من مضايقات الحضور البشري.. أصدقائه وأهله وغيرهم من الفضوليين وخصوصا من ذكرى زوجته" جليلة" التي انكشف أمامها ليلة عرسه للمرة الأولى وفاجأته بالقول:

- ما هذا يا فرحان؟!

كان قد انقضى الليل كله إلا قليلا، حسبته جليلة دهرا كاملا تمزقه في كل لحظة أسراب النمل المتدافع تحت الجلد من وطأة القلق والترقب.

- ما هذا يا فرحان؟!

كانت جليلة وبعدما يئست من انتظار مبادرته بنزع سراويلها في الظلام وانفتاح شواطئ اللذة والغياب على مسام الحواس والملامسة لماء الوجود، كانت جليلة قد غيرت مسار هواجسها في توقع المبادرة منه فقامت وأشعلت الضوء، هجمت على فرحان وانتزعت جلبابه، لم يقاوم.. قميصه الداخلي، لم يقاوم، أنشبت أصابعها في آخر السراويل، لم يقاوم، جذبته للأسفل فتأرجحت الخصيتان، إحداهما أكثر هبوطًا من الأخرى وكلاهما تحت قماط أبيض يلف القضيب بالكامل.

- ما هذا يا فرحان؟!

- ثؤلول نشب في القضيب منذ ثلاثة أيام يا جليلة.

- وكيف لم تخبرني أن الدمامل تسعى في جسدك يا بن نعيمة؟

- لو أخبرتك لتأجل العرس وقد دعونا كل من نعرف داخل البلدة وخارجها .

اعتاد فرحان الخروج إلى الصحراء والاستلقاء في الخلاء تحت السماء الواسعة والتحديق طويلا في الندب البني العميق الذي تركه الثؤلول وصيره حكاية على كل لسان، تكفي النظرات الهامسة لفضح تفصيلات أكثرها لم يحدث أصلًا، تندلق الهمسات من الأفواه المتقاربة كلما مر فرحان وتذكره بجليلة التي لم تنتظر طلوع الشمس حتى لملمت أغراضها وعادت إلى أمها مع آخر موجات الظلام، وتكفل خالها بتصفية أمور الطلاق فيما بعد.

مرّت سنتان، صار الثؤلول ندبا، يزداد عمقا وقتامة، واطمأن فرحان إلى فحولته لما استفاق ذات صباح على السائل اللزج المعبق ينشع في السراويل والفرش والأغطية، فاتح أمه نعيمة في الزواج، وعدته خيرا، وانتظر الرد.

واصلت الفحولة ضغطها بالسوائل اللزجة في أعقاب الليالي القلقة الطويلة، واصلت نعيمة المراوغة كلما ألح عليها في أمر الزواج حتى اضطرت أخيرا للصياح في وجهه:

- إن كنتَ نسيتَ الثؤلول فأهل البلدة جميعا يتندرون به.

في هذه المرة وبعد مرات ومرات من استبداد الغريزة الجنسية بمنامه وصحوته خرج إلى الخلاء مشقق الثياب والقدمين تتبعه الكلاب وصياح الصغار الذين يركضون وراءه، يرشقونه بالحصى. في هذه المرة استغرق وقتا أطول حتى يخلو بنفسه ويستلقي على رمال الصحراء محدقا في الندب الذي خلّـفه الثؤلول بينما نباح الكلاب يصل إلى أذنيه، في هذه المرة

تذكر كلام خطيب المسجد عن ابراهيم النبي الذي أخذ قدوما وقطع من لحم قضيبه وقضيب كل ذكر من آل بيته امتثالًا لتعاليم ربه، أخرج خنجره من جيب سرواله الداخلي وأجهز على القضيبِ والندب والثؤلول وقذف به في وجه المدينة والكلاب النابحة وانخرط في نوبة صراخ طويلة حادة.

القسم الثالث

# الرواية والخطاب الديني

# قوة الترميز
# إمكانية متاحة .. ووعي مفقود

اللغة معول التطور، بها تتراكم الخبرة وتتصل، لولاها ما أمكن تصور التاريخ، في العلوم والمعارف والديانات وكل مفردات الحضارة، واللغة أول وآخر منبئ عن حضور الجماعة الإنسانية وإمكانية التعاون والاجتماع فيما بينها، إنها الخطوة الأولى في طريق الإقلاع عن الفردانية الخالصة، واللغة الحية المتداولة صفحة حساسة جدا وندب موغل في القدامة؛ يستطيع الخبراء والراؤون قراءة تفاصيله، اللغة الحية وجود نابض بالحيوية، قابل للقراءة والتداول، فيه ملامح من مروا عليه وتفاصيل المواقف والأحداث وخصائص الحضارة وسمات الإنسان الذي مشى عليه.

والمقصود باللغة ليس الحرف المدوّن - وإن دق واستطال - وإن كان الإهتداء إلى الحرف بوصفه رمزا اختزله شخص فذ أو متآلف مع غيره لإنشاء معنى هامًا ذا دلالة في الجانب الاجتماعي والعلمي ـ ليس المقصود باللغة الحرف المدون؛ بل تداعيات الدلالة وخيط عروجها وطريق عبورها حاملة مكنون التصور الإنساني عن الذات والعالم؛ ليس الحرف المدون إذن هو الذي تقوم عليه اللغة إذ التدوين حفظ للغة وشكل من أشكال تداول المعنى ووسيط لنقل الخبرة، التدوين مسلك فردي في الإنشاء وفي التلقي، نزوع ذاتي لحشد خبرات الذات واللغة المدونة هي الحضور الجماعي في صفحة الفرد، هي بصمات وملامح التاريخ في مرمى الغريزة

إن شاءت التوقيع عليه، والتدوين يمنح اللغة فرصة للتمرد على التاريخ والانحياز للغريزة وسماتها الذاتية فهو يحرر اللغة، يحرر الذات الفردانية ويطلقها في مرمى الجماعة، واللغة التي نقصدها هنا خلاصة الحوار الجمعي وصيغة الخطاب التاريخي الشاهد على مسالك ونشاطات جماعة ما، حامل لها ومعبر عن وعيها.

والرمز ـ بهذا التمهيد ـ أقدم أشكال اللغة، هو كذلك حقا، ألا ترى أنه إنجاز يشترك فيه الإنسان والحيوان على حد سواء؛ إنه اقدم الأشكال لنقل الخبرة والمعاني، ألا ترى "البو" وهي دمية على هيئة طفل البهائم تقدم الى الحيوان الذي مات رضيعه حتى يتأثر ويفيض ضرعة باللبن، ألا ترى دمية "بابا نويل" ينتظرها أطفال القطاع المسيحي من العالم مع بدء كل عام ميلادي جديد، يقدم لهم الهدايا والمفاجآت السارة فيثير فيهم الترقب والبهجة، كما لا يخفي تأثير الدمية ذاتها في القطاعات غير المسيحية.

وقد لا نجانب الصواب إن قلنا إن الرمز ـ أيضًا ـ خاتمة الأشكال اللغوية، بل هو خلاصة التمرين الإنساني في مسارات وشبكات اللغة وهو من البساطة والعمق معا مما يُجعل من الأشكال المختزلة رموزا مجردة لا علاقة لها بالخبرة اللغوية، كأنه الفراشة التي خاصمت الشرنقة وسيرورة الدودة في باطن الأرض وانطلقت مرفرفة في سيرورة حرة طليقة في الأفق الواسع، إنه الرمز إذن، أول اللغة وآخر التاريخ.

ولكن، كيف تتم صناعة الرمز حتى يكون بمثل هذا الاقتدار في التأثير والنهوض، نهوض المعاني والحيوات في نفوس الكائنات الأخرى في العوالم الخفية ـ الجن والشياطين والملائكة وما الى ذلك مما وراء التاريخ الإنساني من حيوات وعوالم ـ فترى في تراثنا "الكف" كرمز لمنع الحسد

و"عين حورس" لجلب الحماية ومنع الأذى وخصوصا عن الصغار وغيرها من الرموز في عالم السحر والكهانة حيث الرمز سيمياء التواصل الوحيدة، ناهيك عن الرموز العابرة للثقافات كالصليب والسهم والتفاحة وما إليها من رموز يمكننا بها التواصل مع الآخرين من أبناء الثقافات الأخرى على الرغم من قيام الحواجز اللغوية والجهل بلغاتهم إلا أن الرمز يختصر كل ذلك، أما قلنا أنه أول اللغة وآخر التاريخ!؟

وكيف يتوفر الرمز على كل هذا التأثير والفاعلية، فلننظر مشهد المساجين العراقيين في قبضة السلطة الأمريكية في معتقل "أبوغريب" هذا منظر قابل تماما لاختراق التاريخ المعقول والممكن والدخول في الميثولوجيا؛ بل يمكننا اختزاله تماما في شكل بسيط ـ لاحروفي طبعا ـ يستدعي كل تاريخ القهر والمهانة المفروضة على أبناء هذه الثقافة في هذه اللحظة التاريخية من مسيرة العالم؛ ولكن أين الوعي الذي يلتقط اللحظة ـ الحدث ـ ويغرسها في الثقافة فيخرج رمزًا قابضًا على مفاصل التأثير والفاعلية، معبرا عن عصب الهوية بكل أبعادها الإنسانية الخاصة، أين الوعي وخصوصا في المؤسسات كدور العبادة والإعلام والمدارس والجامعات والملتقيات المهنية والمدنية، إن مؤسسات كهذه بإمكانها المساهمة في التقاط التاريخ ـ الأحداث ـ وتحويله إلى رموز لها القدرة على النهوض واستثارة الحيوات الكامنة في روح الإنسانية لأبناء هذه الثقافات.

والرمز يقف على عتبة حدث حاسم مؤثر وكاسح، استقطب وعي ووجدان ومشاعر أبناء الثقافة المعينة ومن هنا تصبح إمكانية اختزال الأشكال والموضوعات والأحداث متحققة، كما أن الاشتراك والمعايشة التاريخية الطويلة مع معطيات ثقافة محددة بتعاليم محددة يخلط الأدوار

ويتيح الوسائل الناقلة للرمز بشرط تجاوز الخصوصيات والاحتقانات العرقية وكافة الإثنيات وتداعياتها المعوقة لانطلاق الرمز والتركيز على المشترك والممتد والحاضر بين أبناء الثقافة الواحدة لو أريد لها الاستمرار، الرمز ممكن إذا تعامل مع الغريزة الكلية لأبناء الثقافة المشتركة الخاضعين لملابسات ووقائع وأحداث وحّدت بينهم، والترميز ممكن إذا تعامل مع غريزة الحياة والصراع من أجل البقاء، تلك الغريزة البدائية الضامنة لاستمرار النوع، من أجل النفاذ إلى الأمام، وليس أنسب من الرمز لحمل كل ذلك ودفعه بامتداد اللحظة الإنسانية.

وربما كانت الكنيسة أكبر المصانع التي قدمت الرموز وصاغتها، أكبر المدارس التي هضمت التاريخ الإنساني بحوادثه وتنوعاته ومميزاته الروحية والعاطفية وصاغت منه رموزا دالة قوية ومؤثرة، وما الأيقونات إلا منتجات شعبية واستخلاصات تداولية بسيطة تولدت عن الكنيسة تحت أفق الترميز والاندفاع الواعي لتجريد اللغة من كل معوقات التواصل الناجمة عن خصوصيات التلقي، ومن أراد أن يتابع الاقتدار البشري والإمكانيات الإنسانية على التجريد والاختزال وصياغة الرموز فليتابع تاريخ قيام الكنيسة منذ خروج التلاميذ من أورشليم في منتصف الميلادي الأول وحتى انعقاد المحفل المسكوني الأول بعد ثلاثة قرون تقريبا في نيقية بعد اعتراف الامبراطور الروماني بالمسيحية عقب نضال طويل في التبشير وكسب المؤيدين الأتباع، ومن يتابع فسيجد مزيجا من الفلسلفة الإغريقية القديمة والتأمل الباطني "الغنوص" الشرقي في حضاراته من وادي النيل الى بلاد الرافدين مرورا بالساحل الفينيقي، كل ذلك بالتماس مع الميراث الإبراهيمي العبراني والذي هو بصورة أو بأخرى نتاج تلك الحضارات الكبيرة في الشرقين الأوسط الأدنى.

ولتنظر إلى الأقانيم الثلاثة ـ الأب، الابن، الروح القدس ـ ولتنظر إلى الصليب كيف كان في التاريخ حسب الوقائع المشهورة وكيف صار في الرمز، كيف تحول من واقعة الصلب التاريخي في حضور شهود وتعذيب ودماء تسيل ومهانة على مرأى الأشهاد إلى الصليب ـ الخلاص ـ كرمز مقدس يحمله ابن الله المسيح ـ نيابة عن كل أبناء البشر.

التفاصيل كثيرة، وجوه وأحداث ومواقف، وانفعال الناس بالزمن يسفر عن أشكال ومفاهيم، صور محسوسة ومجردات.. وبعد، كيف ينتظم كل ذلك في خيط في نظم مجرد وشكل مجرد، أو حتى مفهوم حاسم تقبض عليه حروف محددة، بسيطة ومختزلة تكون عنوانا، ندبا يستدعي الكثير من المفاهيم والمعاني والخبرات المؤثرة وكل ذلك من أسرار صناعة الرمز، شهوة الإحاطة بعلاقة الإنسان مع مكانه عبر سنوات طويلة.

الانقلابات الطبيعية مما يسمى بالكوارث والهزات التاريخية العنيفة مما يسمى بالاحتلال وإزاحة الثقافات والمفاهيم عن الذات والعالم، كل ذلك يحتويه الرمز ويشير إليه، هكذا كان في الماضي وفي كل الحضارات الشرقية دونما استثناء وفي تصاوير ملحمة جلجامش بلا شك صارت رموزا تستدعي ثقافة شعب الرافدين في تلك الحقبة حيث سطوة القوى الطبيعية الغيبية العنيفة على مصائر التاريخ، وزهرة اللوتس في مقدمة "الماعندت" سفينة الصباح عند قدماء المصريين حيث الخروج إلى الحياة الأبدية عبر الموت، وغيرها من الرموز القديمة، عندما كان الإنسان حرًا في صياغة تاريخه على أرضه، وحتى عندما سادت الكنيسة عبر الديانة المسيحية، وصارت ثقافة معتنقيها عنوانا للعالم كان بالإمكان تلمس الرموز الموحية المؤثرة.

## الرواية الجديدة وتجديد الخطاب الديني
## شيفرة دافنشي لـ (دان براون) مثلًا

لامفر من التاريخ،لامفر من الأثر الإنسانى في الوجود، حيث الدين عصب صائح ومثير فى متنه وبنائه وهيكله الأساسى؛ ذلك أن الناس - وعلى الرغم من مرور عشرين قرنا على ولادة آخر أنبياء النسل العبرانى فى بيت لحم - ما زال الدين هو الزاد الأساسى على مأدبة التاريخ الانسانى منذ سيادة الرومان على مقاديرالعالم وحتى الآن.

والتراث المقدس الذى خلّفه النسل الإبراهيمى،ابتداء من الجد إبراهيم وحتى آخر الأحفاد عيسى بن مريم وتلاميذه الذين حملوا سيرته شرقا وغربا؛ التراث المقدس الذى صار معروفا باسم اللاهوت منذ تأسست الكنيسة بما يحمله من مفاهيم حول الوجود والذات البشرية، التراث المقدس هذا ومنذ ذلك الحين وهو يبسط نفوذه على المصيرالانسانى من المبتدا وحتى المآل الأخير.

ومن الطبيعى أن يتطور فكر الإنسان ونظره إلى ذاته وإلى الوجود بتطور التجربة الإنسانية وتراكم آثارها؛ إلا أن الدين وقد صار نصّا ومفاهيم تصطبغ بقشرة صلبة مانعة من القداسة والثبات حيث الخروج عنها ضرب من الجحود والهرطقة يقتضى القتل وإثارة الحروب وقد حدث كل هذا فى تاريخ الناس المحتفلين بهذه الوليمة على مدار العصور الغابرة.

والدين ثابت، وتجربة الإنسان فى تقدم وتطور، هذا التقدم الذى

اقتحم عوالم وأسرار في ملكوت السموات والأرض ومفردات الوجود، وتغيرت نظرة الإنسان عن نفسه وعن الوجود بفضل الدفع المستمر للتجربة الإنسانية واجتياز الوجود بينما الدين ثابت، وأمام وضع كهذا صار حتميا أن يؤول الدين إلى حزمة من الأعاجيب والطلاسم والخرافات والمعجزات التي يخذلها التطور التاريخي وقد تجاوزها العقل البشري مع تراكم العلوم القائمة على الفكر الإنساني وتواصل التجربة التاريخية لبني البشر.

وعليه شهد الفكر الديني ذو الجذر السماوي ومنذ تأسيس الكنيسة رسميا في ثلاثينيات القرن الرابع الميلادي وحتى الآن؛ شهد هذا الفكر الكثير من التطور بقصد تأهيل الدين للتعايش مع العصور الجديدة،هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الفكر الديني "اللاهوت" داخل إطار الكنيسة ومنذ تدشينها في العالم عقب المجمع السكوني الأول في نيقية سنة ٣٣٢م، هذا الفكر جاء خليطا من النشاط الفلسفي المتأجج في الغرب بوصفه الوارث لميراث الإغريق وروما على مدار سبعة قرون - على الأقل - قبل أن يحط تلاميذ المسيح بدعوته في تلك الأصقاع؛ جاء الفكر الدين خليطا من الفلسفة والنشاط الروحي - الغنوصي - للحكماء المحليين في شرق المتوسط وغربه على حد سواء،ولذا نجد اللاهوت على استعداد دائما لمعايشة العصر نظرا للبعد العقلاني الفلسفلي في نشأته وتكوينه.

وعلى الرغم من ذلك اصطدمت الكنيسة كثيرًا على مدار تاريخها مع حركة العلم التجريبي وخصوصا فيما عرف بالعصور الوسطى التي انبثق عنها عصر النهضة وبداية حقبة جديدة في التاريخ الإنساني وحصر النشاط الكنسي في حدود النص، في أسفار العبرانيين وأناجيل النصارى وأعمال التلاميذ الرسل.

وقد قام على تطوير اللاهوت عبر التاريخ حركات ذات طابع اجتماعى أو فكرى فى أنشطة علنية وسرية وكانت تحقق على الدوام مايعرف بالإصلاح الدينى على شاكلة حركة فرسان الهيكل وماتفرع عنها من دعوات سرية أو علنية لاقى بعضها نجاحا كحركة لوثر كينج.

وحركة الفنون من تشكيل وسينما وأدب ومسرح ساهمت هي الأخرى في تطوير اللاهوت ـ الخطاب الديني ـ وربما كان ذلك بمباركة الكنيسة ذاتها ولا أصدق على ذلك من رواد عصر النهضة في إيطاليا في العمارة والنحت كدافنشي ومايكل أنجلو. وعلى الرغم من الزوابع والاحتجاجات التي تصاحب كل طرح جديد يمس أسس الكنيسة وثوابتها، ومن يقرأ محاضرة البابا الشهيرة في الأكاديمية الألمانية والتي روج لها إعلاميا على أنها مجرد إساءة لنبي الاسلام، من يقرأ تلك المحاضرة فسوف يتلمس فيها من الإثارة العقلية والرغبة في التجديد الشيء الكثير، القارئ لمحاضرة البابا سوف يتلمس مدى اعتمادها على الفكر الفلسفي ومناهجه وطرائق نظره إلى الوجود ومحاولة وضع الأقانيم الثلاثة "الاب ـ الابن ـ الروح القدس" والتي تمثل عصب اللاهوت العبراني الذي استقر في الكنيسة محاولة وضعها في صياغات عقلانية جديدة أكثر قبولا وتعايشا مع واقع العالم والبشر في خضم الإنجازات العقلانية المبهرة وتطبيقاتها العملية في مجال الآلات والوسائط التي يعتمد عليها الإنسان الآن في أداء رسالته ودوره.

والرواية كجنس أدبي ذي طابع فكري ورسالة أخلاقية ليست بعيدة عن هذا المضمار، مضمار تجديد الفكر الديني ـ اللاهوت ـ وخصوصا في العقود الثلاثة الأخيرة، ونلمس ذلك بوضوح في خمسة أعمال روائية على الأقل هي اسم الوردة أو الجنس في الكنيسة لأمبرتو إيكو، وآلهة الجبل

الخامس لـ باولو كويلهو، العطر لـ باتريك زوسكند، والحرافيش

- التي اعتبرها الصياغة الأخيرة لأولاد حارتنا - لـ نجيب محفوظ وأخيرا شفرة دافنشي لداون براون، ناهيك عن أعمال على شاكلة الخطوات الضائعة لأليخو كاربنتير، وفي قلعة جلدي لجورج ليمنج.

وشيفرة دافنشي تلك الرواية التي سمحت الذائقة الغربية بانتشارها عبر الكتب والسينما على الرغم من أنها تطرح افتراضا أساسيا مفارقا لتصور الكنيسة ومفهومها ومناقضا لها في تصوره للأقنوم الثاني ـ الابن ـ حيث تفرض أن يسوع المسيح الذي هو في اللاهوت بمثابة الكلمة التي كانت في البدء ـ كان متزوجا من مريم المجدلية ـ إحدى المؤمنات بدعوته والمؤازرات له في وقت الشدائد ـ وأنجب منها، هذه هي الفرضية الأولى، والأخرى إن هذا النسل اليسوعي مازال حيا ومتواصلا حتى الآن، وأن هذا النسل توفر له عبر التاريخ جماعة سرية تعمل على حمايته، وما زالت هذه الجماعة موجودة حتى الآن وقد رأسها في الماضي القريب كل من دافنشي فنان عصر النهضة الإيطالي صاحب اللوحة الشهيرة " الموناليزا " وكذلك عالم الطبيعيات إسحق نيوتن وحتى جد بطلة الرواية التى تمثل الحفيد المعاصر ليسوع المسيح؛ هذا فيما تحاول جماعة دينية سلفية" أبوس داى " تعمل من نيويورك في أميركا على الوصول إلى تلك الحفيدة ـ حفيدة يسوع ـ للتخلص منها.

والرواية بلغت حدا عظيما فى خلط التاريخى بالمتخيل، وأنجزت عملا يحمل تأويلات عميقة حول المفاهيم الأساسية فى وجود وغايات الأجناس وتأويل الإرث القديم لبنى البشرالذى تجسد فى رموز دالة ومؤثرة استطاعت أن تسحب المفاهيم اللاهوتية الأساسية إلى أرض الواقع والتاريخ وتمنحها أبعادًا وتفسيرات معقولة، حتى إن المقدس أصبح قابلا

للمعايشة والتحقق عبر هذا النسق الروائى الفريد.

وحماية هذا السر المقدس فى الفهم الديني - حفيدة يسوع الذى هوالأقنوم الثانى الكلمة التى كانت فى البدء - عبر التاريخ تتطلب تنظيمات وأسرارا وعمليات تمويه وتضليل لاتنتهى عبر طبقات كثيفة من الرموز جعل الشرطة القرنسية تستعين بأكبر أستاذ "للسيميا" وفك الرموز فى الجامعات الأمريكية للكشف عن مدلولاتها، فالجريمة- جريمة قتل البطل جد حفيدة يسوع - وقعت فى متحف اللوفر تحت لوحة الموناليزا لدافنشى الذى هو نفسه كان أحد رؤساء جمعية فرسان الهيكل فيما مضى.

وقد استطاع الكاتب عبر تقنية عالية فى الدقة والمهارة من السيطرة على جميع الخيوط فى الرواية، خيوط الإثارة والحبكة الروائية، خيوط المعرفة الكلية والمدلول العام للرواية، بناء الشخصيات، وحسب ظني فإن براون قد حشد لهذه الرواية ذخيرة ضخمة من معارف وعلوم وتواريخ ودراسات أسفرت عن عمل جاد يتوفر على الاحترام والمعنى العميق، كما لم يغفل الكاتب الرموز الدينية المقدسة فيما قبل ديانات العبرانيين وخارجها، وخصوصا عند المصريين والآشوريين والفينيقين والإغريق وحتى الهنود والصينيين كما تتبع فى بعض الأحيان انتقال الرموز من ديانات الشعوب غير العبرانية إلى الديانات العبرانية سواء كان الانتقال بنفس الدلالة أم بإزاحات بسيطة يمكن ردها للأصل، وعلى سبيل المثال مفتاح الحياة وقصة الخلق المصرية "إزيس وأوزير"؛ بل إن الكاتب أراد لمفهومه الجديد أن يكون وثيق الصلة بما قبله من مفاهيم تماما كما فى العهدين القديم والجديد حيث الصلات قوية بين نسل إبراهيم وغيرهم من شعوب الأمم المجاورة وخصوصًا المصريين الذين عمد الكاتب أن يحافظ على هذا الصلة وهو يدفع اللاهوت والتصور الديني إلى آفاق حديثة؛

حيث جعل ذلك فى بهو الملحق الهرمي الجديد لمتحف اللوفر الذى أصر الرئيس الفرنسى الأسبق ميتران على إنشائه بهذه الكيفية استحضارا لجوهر الحضارة المصرية وروحها العميقة فى التدين وذلك على الرغم من معارضة كثير من المؤسسات على المبدأ العمرانى بعيدا عن التداعيات الفكرية والثقافية والحضارية عموما.

ويوغل الكاتب فى تفسير الرموز ويتوقف طويلًا عند النجمة السداسية التى هى رمز لمملكة داود النبى والتى يفككها فتصير كأسا /\، سهما \/ متداخلين، تصير أنثى "كأس"وذكر "سهم " فى رباط مقدس لإنبات الأبناء واستمرار الوجود، تماما مثلما فى قصة الخلق المصرية وكأنه ينكر من طرف خفى ان يكون ابن الله "يسوع" "الكلمة" حسب التصور اللاهوتي، ينكر أن يكون عاقرا فيعمد إلى تفسير لوحات دافنشى وخصوصا الموناليزا والعشاء الأخير ويصل لنفس النتيجة وهي أنه حدث اتحاد مقدس بين يسوع ومريم المجدلية وأثمر نسلا قامت الجماعات المتدينة على حراسته وحمايته وخصوصا الجماعات السرية منها، ومن

خلال تحليل لوحتي دافنشي يسجل كثيرًا من الاختلافات بين صورة العشاء الأخير كما جاءت في العهد الجديد "الأناجيل" وبين اللوحة التي رسمها دافنشي وأشهر الاختلافات أن دافنشي "اللاهوت الجديد" جعل لكل واحد من الحاضرين كأسا خاصة به بينما كانت الكأس واحدة في "العهد الجديد" ـ الاناجيل ـ اللاهوت القديم ـ وكذلك البحث في شخصية الواقف بجانب المسيح في اللوحة وفي الإنجيل، ففي اللوحة يتوصل عالم الرموز ـ أحد أبطال رواية دان براون ـ إلى أنها امرأة وأنها هي مريم المجدلية نفسها التي اقترن بها يسوع.

كل هذه المخالفات والتي جاءت في رواية دان براون تبدو للوهلة

الأولى تناقضا صارخا وهدما جذريا للرواية اللاهوتية بشأن طبيعة المسيح وماهيته وكذلك علاقته بتلاميذه ومفهوم الناسوت فيه ـ الشق البشري في طبيعة الابن ـ كل هذه المخالفات سمحت الثقافة المسيحية في الغرب بتداولها على نطاق واسع من خلال رواية توزع بالملايين وفيلم سينمائي يوزع بالمجان على النت وعلى اسطوانات سي. دي.

لابد إذن أن هناك موافقة ضمنية أقرتها الكنيسة في الغرب بطريقة ما؛ بل ودعمت هذا التوجه لهدف واحد وهو إبقاء اللاهوت "الجذر الديني العبراني" في التاريخ والوجود عبر تطويره بما يلائم نضج وتطور العقل والمعرفة الإنسانية في حين لجأت الكنيسة الشرقية إلى مجلس الشعب في مصر لمنع تداول الرواية والفيلم، لأن الفكر الديني اللاهوتي الكنسي في الشرق لايختلف كثيرا عن الفكر الديني الإسلامي من حيث قدرته على تطوير نفسه لمسايرة التاريخ، حيث يعتريه قصور فاضح في فهم طبيعة الدين ودوره وماهيته ومدى علاقته بالتاريخ كإنجاز بشري في المقام الأول، إنجاز صنعه جهد البشر وصراعهم داخل حدود الزمن عبر سنوات طويلة بعضها معلوم وبعضها يقال له ما قبل التاريخ ويخضع للحدس والتخمين وأعمال الأنبياء.

ومما يؤكد هذا الاتجاه في فهم علاقة الرواية باللاهوت ورأس الكنيسة أن الرواية التي لم تترك رمزا سواء كان مركزيًا مشهورًا أم رمزًا بسيطًا متداولًا في نطاقات محدودة، هذا الفهم في تفسير الرموز أغفل تماما التفسير اللاهوتي الشائع لأشهر الرموز الإنسانية وهو الصليب، هذا النصب الخشبي الذي فاضت عليه روح يسوع تعذيبًا واحتقارًا، إلا أن الكاتب لم يشأ أن يتوقف عنده ويضع تفسيرا له على الرغم من إفراده فصلا كاملا ذا عنوان مستقل للخوض في تفسير نجمة داود السداسية، ربما لأنه ـ وهذا

هو الأرجح ـ لا يوافق التفسير والتأويل اللاهوتي للصليب الذي يراه رمزا للخلاص تطوع له "يسوع ـ ابن الله ـ الكلمة ـ الأقنوم الثاني" تطوع بحمله قدرا يكفر به عن أخطاء وخطايا أبناء الله الآخرين ـ بني البشر ـ عبر التاريخ بوصف المسيح هو أكثر أبناء الله الذين تجلت فيهم طبيعة الخالق وكماله. هذا الصليب الرمز البسيط الشهير الشعبي المتداول في كل لحظة عبر وسائط الاتصال مباشرة أو غير مباشرة لم يشأ الكاتب براون أن يضع له تفسيرا في رواية همها الأكبر تفسير الرموز المقدسة وإعادة تأويلها بما يضعها في قلب العصر وقابلية المعايشة، لم يشأ ذلك لأنه سوف يدخل في الصدام الحقيقي مع التفسير والتأويل الفلسفي والديني والغنوصي لطبيعة الأقنوم الثاني، في حين أن إهدار بعض الحقائق الواردة في "العهد الجديد" بشأن زواج المسيح وامتداد نسله ليست ذات قيمة كبيرة لأنها تتناقض فقط مع الإنجاز الطبيعي وتنسف المعجزة بمدلولها البدائي الذي يتركز في مخالفة النسق الطبيعى والسيرورة الطبيعية في إيجاد الأشياء ومآلها، وهذا شيء هين وخصوصًا مع نضج العقل البشري في ظل تقدم العلوم وتطبيقاتها التكنولوجيا حيث لا أمل في ظل هذا النضج من بقاء المعجزة "الأسطورة" بمعناها الطبيعي وانتشارها وبقاء تداولها حيث لا دليل عليه من قبل العقل الجمعي في نضجه داخل اللحظة التاريخية المعاشة الآن، هذا العقل الذي ربما قد يمتد نحو الماضي أيضًا للكشف عن طبيعة الحقائق التي يكرسها اللاهوت القائم على الطبيعة أو كسر ناموسها كإحياء الموتى وتكليم الطيور ونسف الجبال وشق الأفلاك والأقمار أو حتى الفهم البدائي للحقائق الطبيعة كالشمس التى تطلع وتغيب وتغرب في عين ملتهبة، هذا في حين إن الحقيقة التى صنعتها وشيدتها جهود البشر هي التي تقبل التطور والإضافة والامتداد والنمو،

ومن هنا سمحت الكنيسة والفكر اللاهوتي بمرور مثل هذا العمل وسوف تسمح بمرور المزيد من الأعمال الفكرية التى تحمل نفس هذه الطبيعة، فلا أمل من بقاء الدين ذي الجذر السماوي واستمراره وجلب المزيد من البشر نحوه في العصور المقبلة إلا بمسايرة الفكر الإنساني والتطور البشري الذي بلا شك قد بلغ ذروة جديدة في مسيرة نضجه وكماله.

# العزازيل
# هل يستطيع الدكتور زيدان أن يفعلها مع اللاهوت الإسلامي!؟

وقد يستنكر كثير قائلين بأن لا لاهوت في الإسلام - وأنا معهم - إنما الإسلام فقه وسيرة وتاريخ وعلوم أخرى مادتها القرآن وأحاديث الرسول وأعمال صحابته في حياته أو من بعد موته، ليكن، فهل يستطيع الدكتور زيدان أن يفعلها مع النص الإسلامي العام ثقافة وشخصيات وتواريخ!؟

ومختصر رواية زيدان "عزازيل" لمن لم يقرأها تصوير لكيفية انتشار الدين المسيحي على يد الكنيسة ورجالها في روما خلال القرن الرابع الميلادي في ربوع مصر وخصوصا الإسكندرية التي قد مضى على بنائها في ذلك الحين حوالي ستة قرون وقد صارت مدرسة واتجاها في العلم والدين والفكر يرتادها أساطين العلوم والمعارف من كل ربوع العالم الروماني للتعليم والتعلم والالتقاء بنظرائهم من المصريين.

والرواية تابعت خيط العنف والدم والقتل والاستبداد الذي صاحب نشر المسيحية في القرن الرابع كما رصدت انحراف القساوسة ورجال الإكليروس في التنظيم الكنسي على كل المستويات، انحرافات فكرية وعقائدية وحتى انحرافات جنسية، وذلك من خلال رحلة طالب علم مصري يدعى في الرواية "هيبا" والذي انتقل من مدينة إخميم في قلب صعيد مصر الى الإسكندرية طلبا للعلم، ويشهد "هيبا" طرفا من أحداث العنف

والقتل التي يقودها القس "كيرلس" واتباعه لاستئصال المخالفين في العقيدة من المصريين والجاليات الأخرى المقيمين في الإسكندرية من الرومان والإغريق وامتد القتل ليشمل العلماء والفلاسفة وهدم المعابد المصرية ثم ينتقل "هيبا" بطل الرواية الى الشام مبتدئا بفلسطين ومقدسات المسيحيين فيها واستقرارًا في أقصى شمال بلاد الشام في مدينة حلب، ويلتقي خلال الرحلة رجال دين مسيحيين حقيقيين مثل نسطورس بطرك كنيسة أنطاكية في ذلك الحين ويقيم معه ومع غيره الحوارات والمجادلات الكاشفة والموحية عن أسس الإيمان المسيحي التي أرستها الكنيسة.

وللحقيقة فإن ما أقرت به الرواية من أحداث التاريخ أو الاصطناعات الفنية لم تجانب الحقيقة التاريخية، وهذا ما يوقعنا في الحيرة عند تصنيف الرواية والوقوف على الهدف والغاية من إنشائها. إن الرواية تقبض على قدر بازخ من الإثارة بما فيها الجنسية وقد أحسن د. زيدان وقطع شوطا عظيما في ذلك الجانب؛ ولكن هل الإثارة وحدها تصلح أساسا لانتظام عمارة الرواية؟

إن الرواية العربية والعالمية ومنذ عقود مضت دخلت في مسار تجديد الخطاب الديني وأخذت على عاتقها مهمة إعادة النظر في المسلمات العقائدية في الجذر السماوي من الديانات البشرية والتعبير عن المسكوت عنه عمدا في خطابات الدعاة والمبشرين، وفي هذا السياق تجئ رواية

"زوربا" وأيضا المسيح يصلب من جديد للكاتب اليوناني "كازنتزاكس"، آلهة الجبل لباولو كويلهو الإسباني، والعطر لباتريك زوسكيند الألماني وشيفرة دافنشي للانجليزي دان براون، وآيات شيطانية للهندي "سلمان رشدي" واسم الوردة أو الجنس في الكنيسة لأمبرتو إيكو، وربما قبل هؤلاء

وغيرهم نجيب محفوظ في روايته التي كتبها مرتين الأولى بعنوان أولاد حارتنا والأخرى بعنوان الحرافيش والتي تناول فيها كل التاريخ المقدس بداية من الجبلاوي صاحب البيت الكبير وانتهاء بصاحب المئذنة ورفاقه مرورا بصاحب الرؤية والناجي من الطاعون!! فهل يمكن اعتبار عزازيل د. زيدان في سباق روايات ذلك التيار المعنى بتجديد الخطاب الديني أم أن الأمر مجرد روح ثأرية ورغبة انتقامية من طائفة من المصريين ضمن شعب يعيش ظرفا خاصا وواقعا سياسيا يتم توجيهه لحسابات وأهداف ليست في صالح مصر ولاصالح هويتها!! أظن الأمر كذلك والا لماذا أكتفى زيدان بفضح العنف والاستبداد المصاحب لنشر المسيحية ولم يهتم ولو بجزء بسيط عن طبيعة العقيدة المصرية في زمن الرواية خلال القرن الرابع الميلادي وما سبقه من قرون سواء في العمق المصري أو في أخميم حيث مسقط رأس البطل أو حتى في الإسكندرية التي كانت في ذلك الحين عاصمة " عولمية " تجمع في سماحة وإبداع بين مختلف المذاهب والمشارب والاتجاهات في الفلسفة والفكر والعقيدة والعلوم!؟ ولماذا لم يتأمل كما ينبغي الدور العظيم والحيوي الذي قام به أسقف الإسكندرية " أوريجون " ومن بعده " آريوس " الذي اختط منهجا في الفكر اللاهوتي عرف باسمه وقام بمحاولات فذة في مجمع نيقية لضبط التصور الكنسي للوجود على أساس من توحيد العقيدة المصرية الموغل في القدم والاتساق، وخصوصا اختلافاته الشهيرة ومواقفه العميقة في فهم الأقانيم الثلاث:

( الأب ـ الابن ـ الروح القدس ) وأصل كل منها في المحفل المقدس الأول الذي أرسى أسس البناء اللاهوتي والعقلي للكنيسة، فزيدان إذا لم يكن ملمّاً كما ينبغي بتفاصيل العقيدة المصرية التي سادت خلال الألف الأول قبل الميلاد والتي انطلق بطل الرواية "هيبا" منها طالبا لعلوم

الإسكندرية، والإسكندرية لمن لا يعرف هي التي وضعت حدا لنهاية حكم الأسرات المصري الذي عرف بالحكم الفرعوني على مدار ثلاثة آلاف عام من العقيدة والعلوم والمعارف المدونة والتي صارت علما تدرسه كل الجامعات المحترمة في العالم.

وإذا لم يكن د. زيدان مقتنعا بالعقيدة المصرية، فلماذا لم يركز على التصوف كبديل أخلاقي جامع لكل العقائد والمذاهب الدينية وقد كان "هيبا" وبعض من جلس إليهم لديهم مسوح وأدلة على هذا التصور أم أن رغبة الثأر وروح الانتقام والانتصار للذات العقدية هي الدافع وراء الرواية؟ وأما كان من الطبيعي أن تأتي الرواية في سياق سؤال الهوية بعيدا عن مسارب التاريخ التي تناولتها العديد من المراجع والدراسات قديما وحديثا؛ بينما سؤال الهوية ما زال يعصف بمصر وبسلوك أهلها ونتاجهم الحضاري!؟

وألا يعرف الدكتور زيدان طالما أنه جعل التاريخ مادة ومحورا لإبداعه الروائي، ألا يعرف أن نشر ديانة العرب في مصر خلال القرن السابع الميلادي بعد تلك الإبادة العرقية والطائفية التي قامت بها الكنيسة في القرن الرابع، ألا يعرف أن جنود الدين العربي استباحوا مصر، وإذا كان كذلك فليسأل أهل القرى المصرية في سخا ومنوف وسلطيس وبلهيب والخيس الذين سيرت نساؤهم سبايا إلى المدينة المنورة واستعبد أطفالهم وقتل أسراهم لأنهم لم يسلموا وقرروا الدفاع عن بلادهم بعيدًا عن مؤامرة قيرس "المقوقس" بطرك الإسكندرية وقتها الذي ترك وصيته الأخيرة لينفذها له عدوه اللدود ـ كما يعتقد الكثيرون ـ عمرو بن العاص!؟ وأما قرأت يا دكتور زيدان حديث المقوقس هذا لعمرو بن العاص في "فتوح البلدان للبلازري" وهو يقول له: "أسألك ثلاثا" ألا تبذل للروم مثل الذي بذلت لي فإنهم استغشوني وأن لا تنقض بالقبط "المصريين" فإن النقض

لم يأت من قبلهم وإن مت فمر بدفني في كنيسة بالإسكندرية ذكرها له. وأما قرأت حديث عمرو في نفس المصدر بعدما جلس على المنبر قائلا: لقد قعدت مقعدي هذا وما لأحد من قبط مصر علي عهد ولا عقد إن شئت قتلت وإن شئت خمست "يعني يأخذ الخمس من أملاكهم غنيمة " وإن شئت بعت. وأما قرأت في ذات المصدر حديثا في سياق المعركة على فتح الإسكندرية" وسبى الذرية وهرب بعض رومها وهدم المسلمون جدار الإسكندرية وكان عمر نذر لئن فتحها ليفعل ذلك.

وأخيرا أما قرأت هذا الاقتباس من نفس المصدر مع العلم أن فتوح البلدان للبلاذري من أقدم المراجع التي تحدثت عن تاريخ نشر الإسلام خارج بلاد العرب وداخلها، قال عمرو لجنوده: "سيروا على بركة الله فمن ركزمنكم رمحا في دار فهي له ولبني أبيه، فكان الرجل يدخل الدار فيركز رمحه في بعض بيوتها ويأتي الآخر فيركز رمحه أيضا فكانت الدار بين النفسين والثلاثة فكانوا يسكنونها"، وهل يعلم زيدان أن جزية الإسكندرية ثمانية عشر الف دينار فلما كانت ولاية هشام بن عبد الملك بلغت ستة وثلاثين ألف دينار مع العلم أن العرب الفاتحين باسم الإسلام لم يأخذوا الجزية من نصارى العرب من بني تغلب بن وائل في أرض الجزيرة الفراتية المتاخمة لحدود الروم في زمن عمر بن الخطاب عندما فتحها القائد عمير بن سعد.

وإذا كانت الإسكندرية عاصمة مصر في ذلك الحين قد تعرضت لكل هذا البطش لاقتلاع هويتها الثقافية والحضارية والدينية خلال ثلاثة قرون من الزمان مرة من الغرب الروماني لنشر المسيحية ومرة من الشرق من قبائل العرب التي وحدها رسول الإسلام، وكلاهما ديانات ذات الجذر السماوي فلماذا أغفلت رواية زيدان سؤال الهوية وأطلقت العنان لفضح إحدى حلقات نسف الهوية المصرية ـ وإن كان ذلك إيجابيا بلا شك ـ

إلا أنه سيظل غامضا ومحفوفا بالأسئلة غير البريئة وخصوصًا إن الهوية المصرية ـ ما زالت في مرمى قبائل العرب حتى الآن تحت مسميات وإغراءات جديدة!!

وأخيرا ألم يشك الدكتور زيدان ومؤيدوه ولو للحظة بأن هذا الفضح لنشر المسيحية والسكوت عن مثيله العربي كان دافعا قويًا لنيل "البوكر" من أحفاد العرب الفاتحين في عواصمهم الجديدة المتخمة بالنفط والعبيد والمستعمرين وتجار البشر وذلك إذكاء لروح الفتنة في مصر على ضفاف نيلها الفاتن.

## عباس منصور

- من مواليد سندبسط – زفتى – غربية ١٩٦٢م
- ليسانس دار العلوم ١٩٨٥م
- عضو اتحاد الكتاب وأتيليه القاهرة
- يعمل بوزارة التربية والتعليم على فترات متقطعة

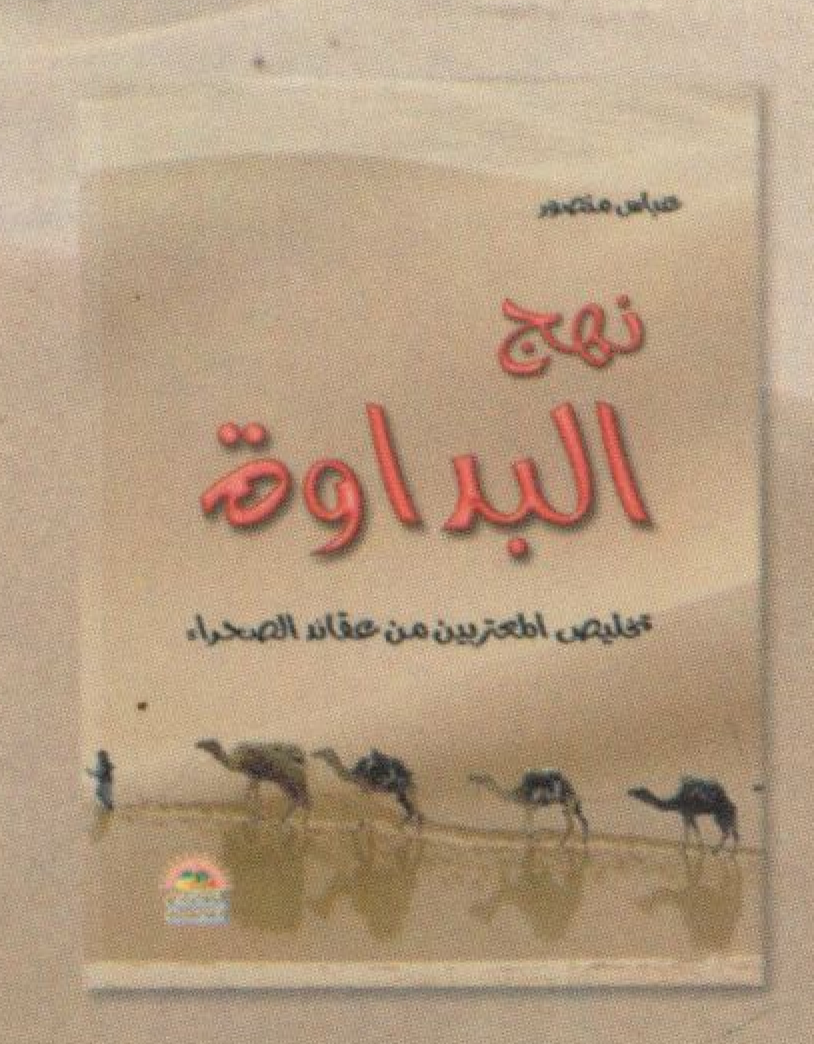
## صدر للشاعر

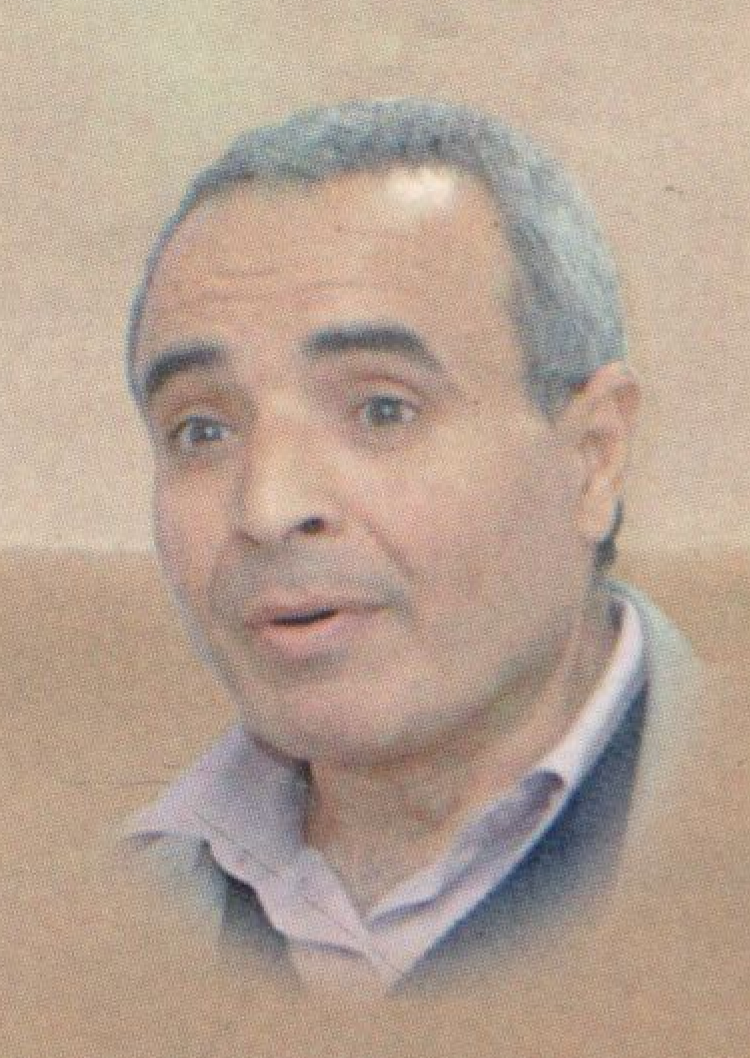
- وجهان في المساء، (شعر) – دار الغد – ١٩٩٠م
- مدينة أخرى،(شعر) – مطبوعات الرافعي – ١٩٩٣م
- في المقهى طبعا(شعر) – أصوات أدبية – ١٩٩٦م
- الخسائر الناجمة عن المشي،(شعر) – مركز الحضارة العربية – ٢٠٠٣م
- صلوات مصرية،(شعر) – دار طابا للنشر – ٢٠٠٥م
- الطماشة،(رواية) – مركز الحضارة – ٢٠٠٧م
- الشاسو (نص للمسرح) – مركز الحضارة – ٢٠٠٩م

## قيد الإصدار:

- سيرة حبشي (رواية)
- خط الأوليا (رواية)
- قلب أحمد (ديوان شعر)

## المحتويات



عندما كنت في الخامسة والعشرين من عمري مكثت في العراق تسعة أشهر ما بين بغداد والفلوجة مدرسًا على شاطئ الفرات ولم أجد كبير فرق بين المصريين والعراقيين، وظننت أنهم عرب وأن العرب كلهم هكذا، لم أكن أعلم أن القسم الأكبر من العراقيين ليسوا عربًا وأن العراق نفسها لم يكن اسمها كذلك إلا في وقت متأخر من تاريخ الإقليم، وقرأت النص القرآني معاودة ثلاث مرات ولم تستوقفني حينها إلا مسالة "إسرائيل" هذا الرجل الذي صار قبيلة ثم شعبًا على مدى خمسة قرون قضى أربعة ونصفًا منها بين المصريين في أرض مصر، هذا الرجل النبى القبيلة الشعب "أخيرًا"، أزعجنى النص
تناول سيرته، فهو قد اصطفاه الله واختاره مع نسله وميّ
وكتب له أرضًا بشعبها، إسرائيل هو نفسه الشعب
واصلت معصية الله ومخالفته ولم يطق الرب إبادتها على
الهلاك والإبادة على صفحات القرآن لكل الأمم التى
ابتداءً من نوح وثمود وهود ولوط وشعيب وغير
إسرائيل الذي لم يفعل الرب معهم سنته في العصاة، وهذ
مما أربكني وأزعجني كثيرًا وسلب السكينة والطمأنينة
تعد الصلوات التى رافقتنى منذ الصغر قادرة على إعادة

